غسان كامل ونوس

المـآب

روايـة

الفصل الأول

-1-

أكاد أختنق، ما هذا الظلام؟! الجدران قريبة، والسقف مطبق. لا أرى شيئاً، لا أحس. أين الألم الذي أمضّني في هذا الفضاء الذي يكاد يتلاشى. حرمني النوم، والرضا والأمان.. ليس وحده من فعل ذلك!

(أنت لا ترضى، لا شيء يرضيك، لا تريد!)

والأمان، هل يتمنى أحد أن لا يحس بالأمان؟!

ليس بيدي، ولا بعقلي.

ليس الألم وحده. ها أنا بلا ألم، أتململ، كأني أتحرك داخل هذا الصندوق الذي يتقلقل ببطء أستشعره، لا بأس في ذلك، لكنني سأتأخر!!

(عمّ؟ وإلى أين تسير هذه العربة التي تقلك؟!)

آه.. العربة تبدو تعبة، أو تسير مكرهة.. ليس الأمر سهلاً؛ كان كذلك، منذ زمن بعيد، كانت السيارة متعبة، أو متعثرة. والطريق.. لم تكن مشرعة، جهة للتحرك وملامح للحركة. ولم تكن الدواليب قد تدحرجت في منحدراتنا الشقية بعد. من يقود هذه السيارة الآن؟! لمن تعود؟! وأين تسير وتتوقف؟! تتردد في المضيّ، لا بأس؛ "في التردد فرصة للاختبار"!

(كنت تقول ذلك، وكانوا يتذمرون: علينا حرق المراحل، الوقت لا ينتظر، والوعد والشعب والأرض، والأماني..

كدت تغدو العثرة التي توقف العجلة، أو تحاول! وكدت تنال الجزاء العادل.. تريثوا، هل كان ذلك من حسن حظك أو سوئه؟! لكنهم لم يتأخروا، بل أنت من انسحب، ارتضيت شجاعة الهروب بدل مغامرة أقسى! واجهت بعد تردد، بعد أن حذرت من غموض المسار، وتأكدت من انحرافه، ويئست من انتظار عودة الرشد. أصروا، هددوا ورغّبوا، وتجاوزوك..)!

عليّ أن أشكر كثيراً، وأتحمّد، لأنهم تركوا لي رأسي فوق كتفي، أتاحوا لي فرصة أخرى لاكتشاف الحال بجلاء أكثر، حتى لو كان ذلك من داخل الجدران الصماء، أو من حركات الكائنات وملامحها وألفاظها؛ الكائنات التي كنت ألتقيها في المناسبات اليومية الضرورية، وصرت أصادفها، أراقبها، أعايشها حتى في بيتي!

كنت أحسب أن الخروج من ذلك الفضاء المحدود ممكن؛ لأنني لم أقترف معصية سوى أنني لم أوافق، وهل هذا الأمر قليل؟! قال الكثيرون!

(ليس هذا زمن الرفض، زمن عدم الموافقة والتأخر في المواكبة، والتهليل؛ إنه زمن الولاءات والانقياد والتصفيق. كنت تحس أن الأمر لم يعد يحتمل، فلست عادياً، ولا منفعلاً، ولا مستفيداً، ولا منتظراً حلاً شخصياً، ولا..

كنت ترى بمنظار أبعد، مدخراته أزمنة شقاء، وسنين أرق وقلق وحصار وتساؤل.. فهل يمكن أن تنحرف عيناك، بعد أن وجدت الخلاص أو دربه أو جهته؟!

يقولون إنك بالغت في الوهم، بالغت في الحماسة، وربما انفردت برأيك وخطوك.. وهذا غير مقبول!! كدت تشك في نفسك، وفي عدسات مرصدك أو أصالة عينيك؛ فهمْ كثير. على الرغم من أنك شجاع. كنت؛ هل ما زلت شجاعاً مبادراً متحمساً؟!)

الحصار كان يشتد، رغم أنني طليق، ولديّ الأحاسيس المتوفزة، والأعضاء القادرة، والعلامات الفارقة، والشروط التي تؤكد أنني كامل الأهلية!

على عكس ما أنا عليه الآن، بلا عناصر، أو أحاسيس، ولا إمكانية للتعرف إلى مكاني وزماني وأهليتي وعلاماتي الفارقة.. سوى في محاولتي الخروج من هذا الحيّز.. سأحاول!

**

-2-

المسافة بين المشفى ومحطة الوقود ليست بعيدة لتستغرق كل ذاك الزمن، لكن الازدحام على أشده في هذا الضحى المشرق بعد انقباض على مدينة تتكاثف وتختلط، تتكور وتتعمق، تتمدد وتتسلق، حتى أن كائناتها المتلبسة باللهاث والحياة داخل أزياء متنوعة وأردية سوداء، تكاد أن تنسى حتى الشهيق، مكتفية بالزفير الذي يملأ الفضاء الغاص بأبخرة أخرى ودخان لا يقل قتامة..

- ألا توجد (كازيات) على الطريق؟!

تذمر أحد الراكبين في حافلة مرافقة، قدمت فجراً من القرية البعيدة.

- هناك محطات عديدة، لكننا نحتاج إلى واحدة مموهة!

أستطيع سماع ما يقولون بعد أن انتقلت إلى تلك السيارة أستطلع وجودها، وأستقرئ حركتها المواكبة للعربة التي كنت فيها؛ أصوات أكاد أعرف إيقاعاتها ونبراتها. آلية أخرى تتقدم التابوت، تتحرك بصعوبة، محاولة الضغط على الكتلة المرتصة من الآليات المتنوعة التي تتقلقل بتثاقل كل حين. تتحرك وراءها سيارة صفراء لم أكد أميزها، لولا إحساس داخلي حازّ ؛ فهي لا تكاد تختلف عن السيل الآلي الذي يشكل اللون الأصفر غالبيته.

- لماذا لا يستعمل منبه الإسعاف؟!

سأل راكب آخر متبرماً!!

- ربما كان معطلاً!

محاولة ضحك من عديدين، أبطلت بصعوبة لدى حديث آخر:

- مثل هذه السيارة، ليس غريباً أن يتعطل فيها المنبه؛ ألا ترى لونها الأخضر المشوه، والكتابة التي تذكّر باختبارات محو الأمية؟!

تحدث آخر:

- هل هذه سيارة إسعاف أو نقل الموتى؟!

- لا فرق بالنسبة إلينا، الآن على الأقل.

- ولماذا تستغربون؟! انظروا إلى السيارة التي تسبقها.

التفت المتحدث إلى السائق:

- كنت أشفق عليك وعلى سيارتك، لا.. أكيد أنت مبسوط، يحق لك ذلك، يمكنك أن ترفع رأسك، وتضغط على الزمور أيضاً..!

هز السائق رأسه ضاحكاً بحذر، لإحساسه ربما بالمشاركة التي غاب عنها حتى الآن:

- لا.. ليس هنا. ما تزال سيارات كثيرة أحدث وأبهى. يمكن أن يختلف الأمر على الطريق، فأمامنا مشوار طويل.

لم تكن الشوارع بهذا الاتساع، وهذا الازدحام. لم تكن المحلات بمثل هذه الإضاءة والزينات، ولا المباني المتعالية ذات الواجهات الزجاجية الملونة، أو الحجرية المشكلة هياكل وخطوطاً مميزة؛ بل هذه الحارات كلها لم تكن. البساتين كانت تمتد في كل صوب، والأشجار المنوعة المثمرة، كأن الغوطة تناغي بدَعَةٍ الساكنين في دورهم القديمة، وتشاطئ الحارات المأهولة آمنة غير دارية بما ينتظرها بعد زمن لم يطل كثيراً.

من موقعي الآن، فوق هذا الصندوق الخشبي الذي كنت فيه منذ لحظات، أستطيع أن أراقب أشياء كثيرة مللت متابعتها منذ سنين. أستطيع أن أميز معالم تحددت، وملامح تضخمت كما كنت أتصور. وتخطر أمامي مسميات ومنشآت ومزارع ومشاريع.. قد لا تبدو الآن، لكنني تخيلتها، سمعت عنها، حذرت منها، داخل المدينة وخارجها؛ يمكنني أن أطير إليها لأتأكد من وجودها، لدي الآن إمكانية أن أفعل ذلك، لم يكن مثل هذا متاحاً، غير مسموح وغير ممكن. ليس لدي وقت. لم يعد لدي وقت. أخمّن ذلك، فالسيارة التي تدبّ بصعوبة، لن تمكث طويلاً هنا، ربما كان في بطئها مكافأة لي، لأتملّى هذه المشاهد مرة آخرة. أحس بذلك، أعرفه، بت أعرفه بعد أن لفتتني الكلمات المكتوبة على واجهة السيارة، وركابها الذين يحركون بأصواتهم أشياء في أركان الأحاسيس. ليس وجودها عادياً، لم يعد الأمر خافياً.. أعلم ذلك، فليس هذا الصندوق إلاّ للأموات، وقد كنت فيه، وأنا لست حيّاً. لا يهم ذلك الآن، ولا يحزنني كثيراً، فقد كنت أنتظر مثل هذه النتيجة، كما ينتظرها كل حي. وهل كنت حياً؟! من غير المعقول أن تؤول مسيرتي إلى ذلك المستقر المحدود. لم يسمَّ، لكنه في الواقع والظروف، لا يختلف كثيراً عن الإقامة الجبرية التي يحكم بها من تشكل حريته خطراً على الناس عامة، أو على السلطة الآمرة. وأنا لست مجنوناً، ولست صاحب انقلاب أو مشروعاً له أو مبشراً به؛ لم أؤمن بالانقلابات، لم أعد أؤمن بها، كنت أراها حلاًّ لحرق المراحل، سبيلاً للقفز فوق الواقع الذي يحتاج إلى تسارع في تحركه، تقدمه، تغيراته.. مع اختلاف التسميات. نعم، كنت واحداً من رجالاتها، وأصبحت جزءاً من وقودها.. رمادها!

لا يهم الآن، المهم أن هذه لحظاتي الأخيرة في هذه المدينة الأثيرة، وبي رغبة لأقرأ كل كلمة على لوحة مرورية، أو فوق أي بناء رسمي أو تجاري: مجمع، مخزن، إدارة، مؤسسة عامة أو خاصة.. وأمر على محتويات أي لافتة أو قوس نصر؛ وما أكثر أقواس النصر في امتدادات الشوارع ومنعطفاتها، في بدايات البلدات والضواحي، وفي وسطها ومنتهاها.. أشكال معدنية مقوسة مربعة مستطيلة. ليس الشكل وحده مفارقاً فيها، الألوان الباهتة والرسوم المتعددة الغامضة، والكلمات الكثيرة التي أحس أنني أعرفها حق المعرفة، والعبارات التي كان لها رصيد في الذاكرة

التي غصت، وكادت تتعفن، لأنني حاولت أن أفرض عليها النسيان، لأنجو من بعض الألم. لم أستطع ذلك، ولم يسعفني الحال بتنشيطها، لم أَرِد، لكنها الآن تنشط؛ بل إنها تزدهي. كل شيء أضحى جلياً، إلى درجة تحتاج معها هذه الذاكرة أو ما تبقى منها إلى مساحة كبيرة لعرض الأشياء المتزاحمة جميعاً. ها هي الأسماء التي تأتلق بالألوان فوق العيادات والمكاتب والمؤسسات الخاصة، أعرف أصحابها، حتى حين كانوا أطفالاً، لم يكن آباؤهم/ زملائي/ أصدقائي يرضون بأقل من ذلك لجميع أبناء الوطن، هذا ما كانوا يقولون. لكنهم عجزوا عن تعميمه، كما يبدو، فاقتصرت إنجازاتهم على هذه. والأقربون أولى بالمنجزات!

لم نكن نختلف على الكثير من الأفكار، لكننا اختلفنا على التطبيق.. وافترقنا عند الثمن، تجادلنا حول العناصر والأدوات، وتبارينا في تقدير الزمن الذي يلزمنا إذا ما استمرت حماستنا في اتقادها، ونهضتنا في تسارعها؛ اختلفنا على الأولويات، والحركة والتسارع.. فاحترق جزء من التاريخ، واحترقتُ.

(آخ، هل هذا وقت مثل هذه الأفكار، هل بقي شيء يؤسف عليه؟!

هل يمكن أن تستغرق لحظاتك الأخيرة هنا بمثل هذه الطريقة؟!

لماذا تجلد روحك في آخر الرمق؟! كانوا يقولون مثل هذا: أنت تحب أن تبالغ في جلد نفسك وجسدك بأفكارك وهمومك وأحلامك، لماذا لا يفعل الآخرون مثلك، لماذا يعيشون النصر على أنه محقق والأهداف على أنها مؤمنة، والمشاريع منجزة؟!

لماذا كانوا يقطفون الخير مبكراً، ويخزنون منه لزمن قد يلزم؟!

وأنت لم تفعل، أفراد أسرتك قالوا ذلك، أصدقاؤك، معارفك، موظفوك، رفاقك، تلامذتك، جيرانك..

لم تبخل عليهم بنصيحة، مساعدة، خدمة، وظيفة.. لم تبخل إلا على نفسك! كل ما عملته كان من دون ثمن، تستغرب إذ يعرضون عليك:

- غيرك لا يرضى من دونه، لا شيء بالمجان، أفد واستفد.

بعضهم كان يستفيد من دون أن يقدم شيئاً. أنت لم تقبل، ولم تتوقف عن العطاء، حتى حين لم يعد أحد يستمع إليك، لم تعد مفيداً، مسؤولاً، لم تعد..

"نفسك كبيرة: قالوا". هذا شرف لي: قلتَ.

همست زوجتك بحسرة:

- هذا شيء أعتز به، ولكنه لا يطعم خبزاً.

قلت:

- ما ليس لي لا أفكر فيه. ما أحلم به، وأنشغل به، وأعيش له، هو ما اقتنعت بجدواه لي وللآخرين، للوطن كله، وهو ما أعمل من أجله، وما انطوت عليه الأهداف التي آمنت

بها خلاصاً. حين نلت شرف العضوية، لم تكن الفرحة تتركني أخطو على الأرض، قافزتني للثقة التي أُوليتها. ورحت أتصور المستقبل زاهياً مشرقاً، والجميع في رضا وكفاية وعدل.. لم أجد من أزفّ له الخبر، فأهلي بعيدون، ولم يكن الكثير من الأصدقاء هنا. في أول زيارة إلى القرية، شرحت لهم الأمر، منهم من طلب مني تكرار الحديث لأنه وجده غريباً، ومنهم من ضحك، لا يستطيع أن يتصور قريتنا مشعشعة بالكهرباء، والماء في البيوت، والطرق معبدة، والسيارات تعبرها بسهولة وسرعة. هذا ما وضحته لهم. آخرون لم يكونوا شديدي الاستغراب، رأوا مثل هذا في الشام، بيروت، حمص.. واستمعوا إلى الأخبار من مذياع كبير. لكنهم فرحوا لوجودي في المسار ذاته، وتوقعوا أن يساعد هذا في التخلص من الملاكين ساكني المدن، وأزلامهم عابري القرى والسفوح والوديان لجباية المواسم، والأمرِ بما يريدون، وسحبِ اللقمة من أفواه طالبيها..).

و.. فرحت لفرحهم، وغنيت لهم على عودي: "أَحِبِّ عيشةِ الحرية.. زيّ الطيور بين الأغصان!!"، وغنوا معي بطريقتهم، رغم أن الكثيرين منهم لم يكن يعرف ما أقول، لكنهم رددوا معي بمرح وغبطة وظرف: "حِبَّيْشة الحرية!""

•

توقف الموكب، ها هي محطة الوقود، ازدحام أيضاً، سيارات متنوعة أراها، صغيرة وكبيرة، حديثة وقديمة. هنا يمكنك أن ترى المفارقة على أشدها، ويمكنك أن تفهم أكثر، آه.. تعبت من الفهم.. ولم يفهمني أحد، ولم يستمع إلي أحد!

(ولماذا تعود إلى التفكير والتحليل والاستنتاج؟! ماذا يفيدك؟! من الذي سيسمعك بعد؟! لكنك لا تستطيع، لا يمكنك أن تستهلك ما تبقى من حيّز لديك من دون انشغال؛ أليس هذا ما عجل بنهايتك؟!

أليس هذا ما جعل المرض يفتك بأعصابك بسرعة!!)

لكن هذا أفضل؟! فكرت في إنهاء حياتي مراراً؛ جبنت؛ بل لم أجبن، كان ذلك سيعدّ جبناً، لن يفهمه أحد على حقيقته، ولن يفكروا فيه. حدث لسواي مثل ذلك. ماذا كانت النتيجة؟!

(لكنك لا تستطيع أن تتجاهل هذا المنظر أمامك.. جميع هذه السيارات ذات لوحات خضراء، تقف لتملأ خزاناتها بالوقود، يمكنك أن تلاحظ كيف تفتح الطريق للصغيرة منها المستفزة حداثة، الحديثة ذات النوافذ المغطاة والألوان البراقة، أو القاتمة اللامعة كالزجاج، والأضواء متنوعة الأشكال، في الوقت الذي تنتظر فيه الأخرى، الآليات الكبيرة، مموهة الألوان، متحورة المعالم.

ستفكر كما كنت تفكر دائماً: لمن يجب أن تكون الأولوية؟! من الذي لديه مهمات أجلّ، من الذي يحمي الثغور، ثغور الوطن لا الثغور الأخرى؟! من الذي سيقاتل إذا ما صارت مناسبة

للقتال؟! أين ستذهب هذه السيارات الحديثة وأصحابها المزينون المحمومون؟! أين سيكون الآخرون أصحاب البدلات المتهدلة والوجوه الشاحبة والنظرات الكسيرة؟!

لماذا تتلفت حولك؟! يمكنك أن تلتفت بحرية دورة كاملة لترى إن كان من يسمعك. لو أنه من المقربين لقال لك: استر علينا الله يستر عليك، لا نريد إلاّ الخلاص.. الخلاص ممن؟! كانوا يقولون ذلك، وكان للخلاص معنى مختلف. كنت تقول معهم: وهل أريد إلا الخلاص أيضاً؟! هل تقول ذلك الآن!)

أقول ذلك، قلته وقتاً ما.. لم يكن الخلاص بالنسبة لي فردياً، يمكنني ذلك.. وبأيسر السبل، وبتشجيع المقربين ومباركة الآخرين. ربما في هذا خلاصهم من مواقفي وتعليقاتي وترددي في تأييدهم ومعارضتهم..

(ولو أن الآخرين يسمعونك الآن لقالوا: مسكين، لم يفهم بعد؟! إذا استمروا في وصفك بالبائس الغر الجاهل، أهون من عدك معيقاً ومعرقلاً للخطا الثابتة الهدارة..!! ولو استمر هذا التوصيف، لكنت الآن في موقع آخر!"

وهل هذا الموقع أفضل؟!

(تدور حول المكان، تطير، تنتقل إلى جوانب مختلفة.. لترى الأشياء عن قرب، ومن الزوايا جميعها. ولتعرف أكثر ماذا يجري، هل ستدخل؟! قسائم وهدايا وأشياء أخرى.. لماذا تهتم بهذه التفاصيل؟! لم تحاول الدخول إلى الغرف المغلقة، لا تحبها، رغم أنك كنت تعرف ما يجري، على الأقل تعرف نتائجه وتوابعه. الكثيرون يتكفلون بإخبارك، ثرثرة أو شكوى، أو رسائل..!

كنت تفهمها، وتتظاهر بعدم الفهم. ولا تتوقف الأخبار بألوانها المختلفة حسب مخبريها، والنتيجة واحدة. ليس كل المخبرين مأجورين، بعضهم لا يطلبون ثمناً، وأنت في كل الأحوال ليس لديك ما تعطي، أو لا تعطي إلا مما لديك. علاقتك بهذه الشريحة من البشر جيدة، يثقون بك رغم علاقة غالبيتهم بمن هو أهم منك. كنت مهماً، لكن الأهمية تختلف فعاليتها؛ فلا تستطيع أن تهب الكثير، ولا أن تتغافل عن الكثير من قلة الفعل. رغم ذلك، فإن لك مكانة بينهم.. كنت تفكر دائماً بهذه الكائنات التي تعمل أذنة أو خدماً أو حجّاباً أو عمال تنظيف.. لا شك في أن ظروفهم السيئة هي السبب، فلم يستطيعوا متابعة التعلم، لأسباب لا يغيب أكثرها عنك. لا شك في أن منهم من قصّر، ومنهم من ليست لديه إمكانية ذاتية. كانت لديك تلك الإمكانية، ولم تقصر في استثمارها. لكن أسباباً أخرى لا يمكن تجاهلها، ولا يتحملون مصادرها، وتحملوا تبعاتها. كانوا يشكون إليك ذلك: الفقر والحاجة والإعالة والمرض والبعد.. كان يمكنك أن تشتكي أيضاً، لو كان من يسمعك!

لم تكن ظروفك أفضل، ولا معاناتك أقل..

سكنت في بيوت الصفيح في بيروت، وعملت في مختلف الأعمال التي يضطر إليها قادم من ريف معذب، من جمع الزبالة قبل الفجر، إلى نقل مواد البناء ورفعها إلى الطوابق التي تبالغ في العلو، إلى تنظيف الحدائق وتنظيم أعشابها، وتقليم أشجارها، إلى العتالة في المرفأ، والحفر في المشاريع، وتنظيف المجارير..

وعرفت هناك قيمة العامل الغريب الذي كنته، والإهانة والذل والمرارة التي يعيشها. وعرفت سطوة رب العمل. الناظر الذي لا يزيدك شهادة أو مقدرة سوى أنه أقدم منك في الورشة، أو أقرب منك إلى صاحبه. المحاسب الذي يستطيع أن يقطع عنك الرزق بأية حجة وأي وقت، والمتعهد، والمالك الذي لأمواله فضيلة القول الفصل والحضور الفاعل لدى جميع المسؤولين، حتى في السياسة؛ أما أنت وأمثالك الكثر، فلستم سوى أدوات يسهل تحريكها، ويستعذب ذلك، ويفترض أن يكون عن بعد كيلا تصيبهم قذاراتها!

و.. قبل ذلك، أما عرفت المُرّ في السهل الذي أودعت فيه؟! لم يكن العمل غريباً عنك، فأنت قريب من الأرض، ابنها المحب، رغم أن وعورتها في قريتكم لم تسمح بالكثير من الإمكانية لإظهار قدراتك. لكن تلك الوعورة كانت وراء تحملك الكثير في أوقات غير هينة بعيداً عنها، حتى أوقاتك فيها لم تكن يسيرة: الرعي، والتحطيب، وتأهيل الأرض البور، واستزراع الزيتون والكرمة والتين والرمان.. تلك أشجار تحبها، ولم تكن تطيق العمل في الأرض: الأفق محدود، والوقت متضاغط مع ضغط الفأس و(المخل) على الصخور المستعصية، والأشواك الفظة والحجارة الناتئة لا تترك يديك وقدميك بلا أثر دام. لم تكن تعبأ بالوخز والتجريح حين تعفّر الزيتون، تلتقط الحب من بين الشجيرات والحفافي الحجرية، وتدور حول الشجرة تبحث عما تناثر من حَبّ، وتاه عن أصحابه في محيطها المتباعد، أو تعلّق في أطراف أغصانها المترامية، أو تخفّى في حضنها المتكاثف. لم تكن تعبأ بعذابه، ولا تحس بالوقت الذي يستهلكه مَلء وعاء صغير، ستبيع ما عفّرت لتشتري بثمنه بعض حاجات البيت. لم يكن لديكم أشجار كثيرة ولا كبيرة. البيت في حاجة ماسة إلى الزيت. يقول أبوك: أشتري ما تجمع وأخوتك. لم تكن تقبل أن تأخذ أجراً، فالزيت لكم، أدامُكم وقُوتُكم.. لكن الحاجة لم تدفعك إلى أن تخالف أخلاق العفارة، فلا تقصد إلا الأراضي التي تأكدت من أن أصحابها انتهوا من جنيها. الأشجار الكثيرة الأخرى البعيدة عن الأنظار المثقلة بالثمار لم تستهدفها، كما كان يفعل زملاؤك، ويهزؤون: توفر الوقت والجهد، وتحصّل الكثير!

كانوا يعاونون أصحاب المواسم، ويغافلونهم، يطمرون الحب في التراب، أو يقذفونه بعيداً، ليعودوا إليه معفِّرين!

فلم تكن تقبل، ولم ترض. لكن هل ما تقوم به يكفي؟!

لعل في السهل ما يعوّض!

مساحات رحبة، ومسافات شاسعة. زروع وبيادر ونوارج. خيول أصيلة وهجينة، و(صيوانات) يتوسطها الآغا والأعوان حوله، والآخرون عند أقدامه.

عرفت كيف كان باستطاعته الأمر بالجَلْد الدامي، والجرّ بذيل الفرس، والحبس في الزريبة، والحرمان من الحاجات الأساسية، والطرد بلا سبب.. عرفت كل ذلك ولم تيئس!!

ولم ترض أن تظل في مكان لا يكبر نزلاؤه ومرتضوه.. وأيقنت أن مكانك ليس هنا!

عدت من بيروت. اشتريت كتباً، تخبئها تحت الثياب التي لا تكاد تستر شيئاً، وتخرج إلى الجبال القريبة، تختفي بين حراجها، وعلى إيقاع حفيف الصنوبر الهامس، بدأت تقرأ وتتأمل وتفكر..)

لم يكن أحد يتصور أن "المجنون" سينجح؛ "مجنون من يقرر أن يتخلص من واقع أضناه؟! مجنون من يفكر في الحصول على شهادة تخرجه من ثوب ملّه، وجلدة كفر بها، وهو يعرف أنه يستحق الأفضل، ولديه الإمكانية لذلك، أم المعتوه الذي يقبل بكل ذلك، أو يسكت عنه؟!"

هذا "المجنون" صار في العاصمة، يستقبل الذين أطلقوا عليه هذه التسمية وسواهم، في مكتبه وبيته أيضاً.. بضحكة مشرعة وذكريات وأسماء وأحداث من تلك الأيام التي لا ينساها.

الأيام التي كانت وراء اندفاعه لتغييرها، وجهده لإخراج القدرات إلى حيّز الفعل.

تلك الأيام في بيروت، أو السهل، أو القرية.. كانت الحافز لدخوله في ذلك التنظيم، بعد أن عمل مستخدماً في مدرسة من مدارس العاصمة.. واطلع على أهدافه التي آمن بها، لأنها كأنما أعدت من أجله، وأبناء جلدته.

**

من شرفة بناء عالٍ قرب محطة الوقود، قفز في الهواء من جديد، يبحث عن الموكب الذي يخصه بشكل أو آخر. جاء معه، أو حضروا من أجله.. سبقوه، وقد استغرق في التذكّر.

"أين أصبحوا؟! لا أرى السيارة القائدة ولا السيارة التابعة، أريد الصندوق الذي كنت فيه، أريد صندوقي! أين الموكب؟!"

يضحك بصوت عالٍ، يلتفت حوله:

"لا بأس.. لن يسمعني أحد هنا."

تنقطع الضحكة باكتئاب..

"لن يسمعوني حتى لو كنت بينهم! لا بأس، المهم الآن أن ألتحق بالموكب، الموكب، الموكب..!

لماذا تلح هذه الكلمة؟! لو كان موكباً حقاً، لما ضاع مني، ولما جاء إلى هنا أصلاً، كان الجميع استعدوا قبل ذلك بوقت، السيارات والوقود والورود.. ولم يكونوا ليتأخروا في الطريق، تتكاثف الدوريات المسهلة للمرور السلس، تفتح لهم الشوارع والجسور والمفارق، يتوقف السير في جميع المواقع التي سيعبرها الموكب المنطلق من المستشفى المميز إلى الحارة التي أسكنها؛ ليس المستشفى العمومي الذي خرجت منه، وليست تلك الحارة، ولا البيت ذلك البيت، ولا الجيران.. آه، الجيران الذين أعتب عليهم كثيراً؛ عليهم، أم على الظروف والزمن. وعلى ماذا يمكنني أن أعتب بعد؟!

لو كان حصل قبل الآن بزمن، كما كان حظ البعض، أو لو أن هذا خص آخرين.. ممن كانوا زملائي، تلامذتي، أبعد الله عنهم الأذى.. لكانت أصوات المنبهات تملأ المدينة، وسيارات الشرطة وأبواقها تأمر المواطنين بالوقوف، والآليات الأخرى بالتنحي، والدراجات النارية بتشكيلها المميز ستتقدم الركب. أما الصندوق فسيكون من خشب فاخر مزين بما يكاد يخفيه من الورد والزنابق والياسمين والجوري، ومختلف الورود الشامية الأصيلة والأخرى المستوردة، وربما لف بالعلم الوطني.. نعم العلم الوطني، هذا ما تمنيته؛ ألا أستحق؟! ألا يلف به من لا يستحقون؟! لا.. لا بأس، لو كان الأمر يتوقف على الشهداء، لما تحدثت في ذلك، هم يستحقون الكثير، في أي زمن قضوا، وأية مناسبة. فلا شيء أسمى من الدفاع عن الوطن، الأرض والكائنات التي تعيش فيها، المبادئ والحقوق والسيادة.. ومن يقضي في سبيل ذلك يكلل بالعلم الوطني.. هناك من يستحق أيضاً، لم يمت في مواجهة أو تفجير، أو استهدافات أخرى، لم يمت.. لكنه أصيب إصابة قاتلة، أصيب في كرامته، في أخلاقه، في آماله؛ لم يمت فوراً، لم يمت تماماً، لو حدث لارتاح. لكنه تعذب كثيراً. لعله قصاص دنيوي سيريحه في الآخرة. ألا يستحق هذا موكباً، ألا يستحق أن يجلل بالعلم الوطني؟! كان الأمر سيصبح حدثاً. أما الآن، فعلي أن أبحث عن موكبي! من حسن حظي أن لدي الإمكانية للتحرك بين هذه الآليات أو فوقها، فأستطيع البحث

عن موئلي. لو كان الأمر غير ذلك لصعب علي اللحاق بهم، هل أفرح بهذه الميزة، وهل بقي وقت للفرح؟!

ها.. وجدتهم، الحمد لله.. الموكب متوقف، والسير متعثر خلفهم، المنبهات وصياح السائقين الذين يطلون برؤوسهم من النوافذ، ويلوحون بأيديهم!! فالمرافقون مرتبكون، غاضبون يشيرون إلى السيارة التي كانت تحملني؟! هل يبحثون عني، هل هم منشغلون بغيابي؟! كيف عرفوا ذلك، أليس جثماني في الصندوق؟! لكنهم يشتبكون، أحدهم يضرب رأسه والآخر يرفع عصاه، والثالثة ترفع غطاء رأسها من سيارة متوقفة، إلى جوار السيارة امرأة أعرفها، كنت أبحث عنها، أستغرب عدم حضورها. لكنها موجودة في سيارة لم أميزها تماماً، لأنها تشبه سيارات كثيرة.. إنها غاضبة، صوتها يعلو، وأصوات أخرى.. ما الذي يجري؟! هل هم محزونون إلى هذه الدرجة؟! لم يفعلوا ذلك قبل الآن! سأقترب منهم، لأقترب أكثر.. لكنهم مختلفون، متعاركون. آه.. هل هذا معقول؟! تختلفون عليّ في آخر أوقاتي؟!

- لا يجوز أن يذهب من المستشفى إلى المقبرة فوراً، لا بد أن يدخل البيت.. لآخر مرة!
- لا فائدة من ذلك، أمامنا مشوار طويل، والناس في الضيعة ينتظرون.
- لينتظروا.. ماذا وراءهم؟! هل من المعقول ألاّ يودع البيت الذي سكنه سنوات طويلة؟!
- سنتأخر، ونربك الناس، والأولاد والحارة.. وإكرام الميت الإسراع في دفنه!

آه، قاسية هذه الكلمة، رغم أنني لم أكره الموت وكنت أنتظره.. لكنها فظيعة مُرة، لم أمت بعد، ما زلت أسمع وأعي وأرغب، لكنكم لا تعرفون ذلك. وهذا ما يؤلمني.. لا تسألونني عن رأيي في ذلك.

- لا بأس، اسمعوا.. نمرّ في الحارة، نقف أمام البيت قليلاً، لا ينزل أحد من السيارات، والتابوت يبقى مكانه، ثم نستأنف السفر.

هذه رغبتي والله، قلتَها يا نضال، لعلك تعرفها، كانوا يتهمونني بالانحياز إليك أكثر من أخوتك. نتفق في الرأي عموماً، ولهذا كنت أحبك، ما زلت أحبك؛ لا لأن عكازيك هما من يحملانك حين تمشي، ولا لأن جسدك ضامر كطفل، رغم أن شاربيك ظاهران، وشعر ذقنك طويل..!

وأحبهم أيضاً، أخاك وأختيك. أحبكم جميعاً، كنت وما زلت، إن كنت أستطيع الحب بعد!"

***

الفصل الثاني

-1-

نهض من خلف مكتبه مشرقاً كعادته، وخطا ليستقبلني آن طرقت بابه المفتوح على مصراعيه، تحرك الضيوف الذين تبدو على بعضهم معالم الأهمية، أما الآخرون فتعبر ملامحهم عن مناطق متباعدة.. استطعت أن ألاحظ ذلك بنظرة فاحصة سريعة، ويدي الخجولة تهم بمصافحة يده الممدودة بثقة.

عانقني، وسحبني إلى جواره، منادياً على الآذن ليحضر كرسياً، وكأساً من الزوفا!!

كنت أغالب مشاعر مستثارة، متباينة دهشة وحياءً وغبطة وترديداً.. وامتلاءً.

لم يتركني أستغرق في لجة الأحاسيس، بادرني بأسئلة واستطرادات عن أحوالي، عن والدي، ووالدتي وأخوتي، وباقي أبناء القرية، الحال العامة والمواسم والأمطار.. معدداً السفوح والتلال والعيون، ما نضب منها وما شحّ. متسائلاً عن الدواب والدجاج.. والثعالب. ملتفتاً أحياناً إلى الحاضرين معرفاً:

- هذا ابن أخي، رب أخ لم تلده أمك.. عشنا أياماً لا تنسى، تقاسمنا الحلوة والمرة، بل المرة والأقل مرارة. مشينا حفاة على الحصى والحجارة والأشواك، تهنا في الحراج رعاة لاهين، اشتغلنا في بيروت ومناطق أخرى من لبنان. جعنا وبردنا. وفي بيادر السهل لعبنا، تخاصمنا، تصالحنا. لكن من ينسى تشاركنا في أوجاع شوك الجربان، ومياه أخاديد الصخور، وحبات البطم والقطلب والصنوبر، وحليّمة البقرة، والقريّنة والحليّبة.. وجريدات الحمص والذرة. برد كانون، ودخان مدفأة الحطب، والثياب التي لا تدفئ ولا تسمن..

لا أدري إن كان عرّفني إلى الحاضرين. لكنني سمعت ألقاباً مهمة لبعضهم تريد مقابلة، ومسميات أهم تؤجل أو تعتذر أو توافق. وترددت في مسامعي أسماء وتعابير وكلمات محلية قالها، كنت أحسب أنني سأخجل منها، أو أنني لن أسمعها في العاصمة!

كنت بالغ الحرج، رغم الأحاديث والروايات التي تؤكد أنه لا يسبب الحرج، بل يبدده بأسرع مما يتصوره من يزور المدينة الكبيرة أول مرة قادماً من بقاع نائية، ووعورة متوارثة، من بيئة وتاريخ وذاكرة.. وحاضر يحاول الخروج من عنق الزجاجة من دون أن يكسرها أو يتشوه.

كدت أتردد في تناول ما في الكأس التي قدمها أبو مصطفى، كما ناداه أبو نضال، شككت في لونها، ونوعها، رغم أني سمعت اسم الزوفا في طلبه.. شيء ما جعلني أنكمش، لماذا لم يطلب لي شيئاً آخر، ألا أستحق؟! ألا أليق؟! هل ملامحي تتطلب هذا الشراب الذي أكاد أملّه، أشربه ضد السعال، والرشح، والاحتقان، والزّحار والسخونة والبرودة وضربة الشمس، والتهاب القصبات، وصداع الرأس ووجع البطن..

هل بدت عليّ أيّ من أعراض هذه الأمراض، أم أن شكلي أوحى بذلك؟! هل أراد أن يعرف الحاضرين إلى شخصيتي بطريقة ذكية، خبيثة، لبقة دون أن يجرح مشاعري؟! ها قد جرحت، أو بدأت تتشرخ، لولا أن تتالت طلباته من الزوفا لجميع الحاضرين، أصحاب البدل الرسمية وربطات العنق المميزة.. لم ينزعجوا، أو يترددوا، أو يحتجوا، إلاّ واحداً:

– لماذا لم تسألنا عما نرغب به؟!

أجاب أبو نضال بمرح باد:

– الزوفا مفيدة.. مشروبنا المفضل في قريتنا، دواؤنا المجاني والمتوفر دائماً.

انتفض المعترض، وقد بدت علائم الغضب على وجهه:

– وهل ترانا مرضى؟! سامحك الله! اطمئن، إذا مرضنا لن نأتي إليك، فالعاصمة ملأى بالأطباء الاختصاصيين!

طفحت السخرية على رد أبي نضال:

– سلامة قلبك وعقلك! لم أقصد..

– لا.. يبدو أنك لا تعرف أن تحترم الناس، ولا تعرف من أنا؟!

– ولا أريد أن أعرف، هل تظن أنك من سلالة الملائكة؟!

وتابع أبو نضال، وقد احتقن وجهه:

– أنا لم أقصد إهانتك. يبدو أنك لا تعرفني أو تسمع عني، ولا تستحق نبات أرضنا، ولا بركتها! وليس لدي غير الزوفا، أما شرابك فلا أقتنيه!

– شرابي لا تعرفه، ولن تناله!

– ذلك أشرف لي، والأشرف أن تبتعد أنت!

– أتطردني؟! طيّب سأريك من أكون، وأعرفك إلى نفسك؟ ولن أرضى بمقابلة سيادته إذا كانت عن طريقك!

قال ذلك وهو يقوم بعصبية بادية، شاداً ثيابه، مسوياً ربطة عنقه، واقفاً ناظراً بتحدّ، ثم خرج بسرعة، قبل أن يتقدم أبو نضال نحوه بخطوات واثقة، ليتجاوز الكرسي حيث أجلس:

– درب يسدّ ما يردّ!!

لا أدري لماذا لم أتحرك لأيسّر لأبي نضال إمكانية المرور، تجمدت من الدهشة والمفاجأة والخوف.. لكن سرعان ما اطمأننت لدى عودته إلى كرسيه، والمرح الذي صبغ الكلمات التي تبادلها مع الباقين، وربتته على كتفي بتودد:

– وأنت أيضاً، لا تشرب الزوفا!!

خفّ اضطرابي، وتواردت في ذاكرتي حكايات عن مقدرة أبي نضال الفعلية وإمكانياته الجسدية، التي كانت أماناً له ولزملائه في الكثير من المواقع التي تعرضوا فيها للإهانة، كما حكى والدي مرات..

كانت تلك أول زيارة لي إليه في مكتبه، قصده الكثيرون قبلي. أرسل من يساعدني في التسجيل الجامعي، وصحبني معه إلى داره التي لم أكن قد قصدتها قبل الآن، ويعرفها الكثيرون.

كان يمكن أن أحس بالمشاعر ذاتها تلك التي انتابتني تجاه مناسبة الزوفا، لو لم تكن قد سبقت؛ فالمائدة التي تحلقنا حولها في بيته لم تكن تحوي أصنافاً لا أعرفها، (الفرّوجان) المكتملان المشويان لفتا انتباهي إلى الطريقة التي تمت فيها عملية الإعداد، بيد أن صورة الدجاج الذي يتقلب أمام النار في السوق، خففت من حدة التساؤل. قالت أم نضال معتذرة:

- لا تؤاخذني يا ابني، لم يخبرني أبو نضال بأن عندنا ضيوفاً!

ضحك..

- وماذا كنت ستعملين أكثر؟!

ملتفتاً إلي:

- لا تصدق.. هذا أقصى ما نقدمه في المناسبات الهامة. كُل يا عم، من الواضح أن عصافير بطنك زقزقت من الجوع!

أجبت متوجهاً إليها بخجل:

- لا.. لا عليك يا أم نضال، أنا في الواقع، ولا أحب الأكلات المعقدة، حتى اسمها يخيفني، وشكلها يجعلني بعيداً عنها!

تدخل أبو نضال على الفور:

- من هذه الناحية اطمئن. أم نضال لا تعرف الكثير منها!

انتفضتْ:

- البركة فيك، وبأولادك. هل تتركونني أطبخ ما أرغب به؟! هل تأكلون منه؟! هل تحضرون لوازمه؟! هل..

قال بهدوء متجنباً النظر نحوي أو جهة الأولاد، متفادياً تسخين الحوار أكثر:

- طوّلي بالك.. يا امرأة، دعينا نأكل، اتركي الرجل يعرف يمسك اللقمة، ولا تصدّي نفسه عن الأكل!

ثم التفت إلي مخففاً من وقع ما جرى، قاطعاً الطريق على إمكانية مباشرتها الكلام، وقد همّت:

- كل يا ابني، بالله عليك لا تخجل!

ثم أضاف مشاركاً زوجته:

- هذا ابن أعز الناس إليّ، أخبرتك عنه.. أبو(عدنان)!

قالت بهدوء، وقد انحسرت علامات الغضب إلى بعض الملامح القابضة في الجبين والعينين:

- أهلاً وسهلاً، لم أعد أعرف من أخبرتني عنهم، معارفك ما شاء الله وبارك..!

خاطبني متجاوزاً المعنى السلبي الذي يمكن أن يفهم من ردّها:

- بالله عليك لا تخجل، مدّ يدك يا أخي، هذا للأكل، وليس للفرجة.

أخذ الفرّوج بيديه، فسخه ووضع نصفه أمامي..

- صدّقني يا عمي لست خجلاً، ولكني لا أحس بالجوع.

- لا تحسّ بالجوع؟! هل أكلت في النبك، كما يقول كل من يأتي إلينا؟! أولاً: طعام الطريق لا يشبع، ثانياً: النبك تبعد عنا أكثر من ساعة، ومن يأكل فيها يصل جائعاً، فكيف إذا ما كان قد مضى إلى وصولك زمن؟! هيّا، كل جيداً. وإلاّ سأغضب منك! أبوك لم يكن مثلك، هيا.. كي ترضى خالتك أم نضال؟! وهذا نضال كاد يشبع، وأخوته أيضاً.

لم يكن الحوار الذي دار على المائدة بين الزوجين هو الذي سرق انتباهي فحسب؛ بل عدم مشاركة أيّ من الأولاد الأربعة فيه، هم الذين شاركونا الطعام. ولفتني أكثر وجود نضال الذي نظر إلي بطريقة لم أفهمها. كان يقرفص طاوياً ساقيه تحته، وعكازتاه جواره، وقد حيرني عدم اهتمام والديه به، ولا سيما أمه التي بدا حرصها على رضا أخوته أكثر، وقد زادوا في النقّ والطلب والاعتراض على الموجودات، ربما كان ذلك استمراراً للانفعال الذي استثير من جراء الجدال الذي سبق، ومحاولة للحؤول دون استئنافه. هذا ما فكرت فيه لاحقاً، متسائلاً عن السبب الذي جعل نضالاً لا يبدي أي تذمر، ولم يتكلم. انتهى من طعامه قبلي، تناقل عكازيه بدقة، وانطلق حاملاً صحنه صوب المطبخ.

*

-2-

المجنون صار لقبه، بعدما حضر من بيروت، وأعلن بتصميم: لن أعود إليها، لا أطيق العيش فيها، لا أتحمل الإهانة، ولا الذل الذي كان يطل عليك من كل صوب: العمل، السكن، الطعام، الشراب.. لسنا سوى حشرات تتحاشى حذاء يمكن أن يهبط عليك في أي مكان، أحذية متنوعة الأشكال والمصادر الأجنبية، كل الماركات العالمية وكل الجنسيات، وعلى رأسك ألا يتهشم..!

كان يمكن أن تحس بتلك الفروق من أنواع الزبالة في الحارات، بل في الحارة الواحدة.. بعض الذين عملوا في هذه المهنة كانوا يستفيدون منها أكثر من أجورهم: مخلفات أثاث، وثياب وأحذية! أو بقايا طعام: معلبات لم تفتح، وزجاجات بسداداتها العميقة والبارزة.. لم أشأ أن أشاركهم:

- مستحيل!

قلت لهم وأنا أتمزق غيظاً، وتساؤلاً، وقرفاً..

حتى الحديث خليط من لهجات عربية وأجنبية.. لا تكاد تميز بين المواطن والأجنبي، المقيم والمغترب.. أصداء العالم تضجّ في أذنيه. ودويّ الحرب العالمية يصل حتى بيوت الصفيح، حيث يسكن مع ثلة من زملائه، ليسوا مثله، حساسيتهم أقل، أو أنهم يكتمون أكثر، أو ينشغلون. لديهم انشغالاتهم التي لا تكاد تعنيه.. كما لا تعنيهم أفكاره التي صار يعبر عنها أمامهم ممتعضاً من الظلم، حانقاً من قلة العدل في هذه الحياة.. لم يطل مكوثه في أي عمل. كان يحتج، يرفع صوته، ويتمرد، فيطرد.

حادثة لا تكاد تفارقه يرويها بحماسة، كأنها حدثت تواً:

كنت في قاع الخندق، سمعت صراخاً غريباً، كان زميلي يتعرض للضرب، لأنه لم ينجز حفر المسافة المطلوبة منه. العبارات المستخدمة أجنبية، وكذلك الحذاء الذي استخدم في الركل، كنت خلال لحظات بينهما. أمسكت بالآخر، وقلت: أنا أكمل الحفر عنه!! بدا كأنه لم يفهم، ولم يتوقف عن الكلام الحانق الغامض، واستدار إليه من جديد.. محاولاً ركله، وقد تكور يئن.. أشرت إليه بيدي، محاولاً إفهامه أنني سأقوم بالمطلوب من زميلي!

ثم وصلت إليه يداي، أمسكت بقميصه، وحمالتي سرواله العابرتين فوق كتفيه، وشددته بعنف، تقطعتا.. وتقطعت أنفاسه حين ألقيته بعيداً، طارت قبعته. وحين أراد أن يقوم كنت فوقه، لكن مساعده وزملاءه أبعدوني.. وإن كانوا يتمنون أن أكمل عليه، كما توقعت، وعبّروا لاحقاً، وقف، فسقط سرواله، وضحك الجميع، فأرغى وأزبد غاضباً منقبضاً.. ومضى!

وأكمل حصته وحصة زميله المريض، حتى جاء آخر النهار قرار فصل أبي نضال من العمل، لكن الناظر نقله إلى ورشة أخرى بعيدة، وقال له: ستأخذ أجرك كاملاً، لن تخسر قرشاً

واحداً، هذه أموالنا، وهذا رزقنا، الأرض لنا، وليست للأجنبي.. وعرقك أثمن عندي من عطوره.. وأفرحني أنك تعهدت بإتمام مقطوعية زميلك، هذا أمر أقدره كثيراً، وتستحق من أجله الثواب، ونحن أشقاء.. لا تهتم لأمره.. سأحسّن أجرك، وسأجعلك ناظراً على الورشة. عليك أن تغيب عن وجهه حين يحضر إلى الورشة، وسأخبرك بذلك على كل حال.

وحزن كثيراً حين قرر أبو نضال أن يغادر البلد كلها، وحاول هذا الوطني القومي –كما وصفه أبو نضال مراراً باعتزاز– أن يقنعه بالبقاء واعداً بأجر أفضل وإقامة أحسن، وأمّن عملاً للكثيرين ممن جاؤوه من أبناء البلد وسواهم.. لكنه كان قد اتخذ قراره بالتوجه نحو مصير آخر..

المجنون صار لقبه، قال أبي: كان يحمل كتاباً يخفيه تحت قميصه الطويل، ويغيب بين أشجار الصنوبر في الغابة الكثيفة.. رآه الرعاة والصيادون مراراً، يقرأ في الكتاب باهتمام، ورفض الرد على الأسئلة التي وجهت إليه عن معنى ما يفعل وجدواه، وقد صار له من العمر ما أبعده عن المدرسة.. وأين هي المدرسة؟! بعيدة في المدينة، والوصول إليها عسير، والإقامة هناك من أجلها غير ممكنة دون عمل.. وأين العمل، وكيف يمكن التوفيق بين العمل والدوام، ومن يمكن أن يرافقه إليها؟!

أحضر كتباً للشهادة الابتدائية من أحد الذين حصلوا عليها في المدينة، وأخذ يحضر للامتحان الذي نجح فيه، ولم يعد المجنون لقبه.

لم يكن يشغله ما يشغلنا، قال أبي أكثر من مرة، كنا نقضي أوقاتنا بعد ساعات العمل المضني، نلعب الورق، ونتبادل المزاح والنكات الفاحشة، والذهاب إلى السينما أو إلى بيوت المتعة..

لم يفعل، ولم يرض بمرافقتنا. حتى أن أمر النساء كان خارج تفكيره، وقد روى لنا حادثة المرأة التي ردت عليه من خلف الباب، حين ذهب لإحضار الماء، قائلة: أنا أستحم، هل أنت متزوج؟! يمكنك أن تأخذ الماء!

وما إن انتهى من حديثه حتى وبخناه ونهرناه وشتمناه، لأنه لا يعرف مصلحته، ولا يفهم الإشارة ولم يلبّ الدعوة، ويلبط النعمة بقدمه.. وغدا شكّنا في رجولته حقيقة واجهناه بها.. لكن ذلك لم يغير من أحواله شيئاً!!

*

-3-

في الحوار معه متعة وجاذبية وإثارة، ثمّة أفكار كثيرة تطوف متكاثفة لاغتنام كل ثانية. لم يكن محدثاً فذاً، ولا مستعداً للاستغراق في عمق الأشياء دائماً، ربما كان لفارق السن بيننا، أو لبعد الأحوال، وابتعاد الفرص التي تتيح تلك اللقاءات. لم تكن ثمة قرابة قريبة، لكن داره كانت موئلاً للكثيرين الذين يؤمون المدينة الكبيرة من أبناء القرية، طلاباً وعسكريين وراغبي وظيفة متقدّمي مسابقات.

كنت أحس أنه يرتاح إليّ، ويقصدني في الحديث أكثر مما يفعل مع أقربائه المقربين حين نكون معاً، ويلح على أن أزوره كلما سنحت الفرصة. الفرصة لم تكن لتسنح إلاّ لدى مراجعة الجامعة للحصول على مصدقة تلح عليها شعبة التجنيد، أو عند الإقامة الحولية في العاصمة لتقديم الامتحانات الجامعية، رغم الانضغاط النفسي والزمني والانشغال الدرسي، أو في أثناء الزيارات القليلة خلال الأيام الأخرى، للتسجيل أو مراجعة مكتب الأمالي الجامعية لابتياع المحاضرات التي يفوتني دائماً تلقيها من الأساتذة الذين لم نكن نتعرف إليهم إلا في الامتحان، وياله من تعرف!

كان يسألني غير ما يفعل مع زملائي أقربائه، ويطلق بعض العبارات التي أحس فيها ملامح مما يخطر في بالي من أفكار ومواقف، أخاف أن أجاهر بها. وحين أستزيد، يغمز عينيه، بسرعة مرات متتابعة، كأنما يختبر أحاسيسي، أو يقرأ أفكاري، ثم يقول: وأنت ما رأيك؟! وبعد أن أتردد أيضاً، لترتيب الكلمات التي يمكن أن تفصح عما أفكر فيه، وأبدأ بإطلاقها.. ينفض رأسه نحو الأعلى، وتتحرك أجفانه متسارعة مرات، ويقول:

- لا.. هذا كثير. عليك أن تنتبه لنفسك. هناك الكثيرون ممن لا يروقهم سماع ذلك، ولا يناسبهم!

أقول بحماسة، وقد شعرت أنني أكبُرُ، وأغتني، وأزداد ثقة:

- لا يهم، لا يهمني ما يناسبهم، المهم ما أقتنع به، وما يناسبني، ولا أفكر فيهم.

- لا يا بني، ليس من الحكمة أن تدخل في معركة خاسرة سلفاً، لا بد من أن تعد العدة للمواجهة. أمامك الوقت كله، والحياة، والظروف الجديدة..

- العمر قصير، وفي الحياة ما يشغلها، ولا أعتقد أن الأحوال يمكن أن تكون الأفضل. هل عليّ أن أنتظر حتى تصبح كل الظروف مناسبة؟! أليست معركة خاسرة أكثر أن تقف مكتوف اليدين، فيما هم يسرحون ويمرحون، والأفكار تُهتك، والمعتقدات والأوقات تهدر؟!

يضحك بهدوء:

- تعجبني حماستك، ولكن.. يمكنك أحياناً أن تفوّت بصبرك وانتظارك وتأملك الكثير من فرص الخسارة.. وهي في المحصلة ربح لما كنت ستفقده من سمعة ووقت وأشياء أخرى، تظن أن من السهل استحضارها كل حين.. ولا تنس أنك تعيش في بيت وأسرة ومجتمع، وتعاشر بشراً لهم أفكارهم، ومعتقداتهم.. وقد لا يسمحون بتهديدها، لأن فيها مكاسبهم وربما حضورهم.

ترددت، رفعت يدي إلى رأسي، نظرت إليه، كان ينظر إلي بتركيز، أطرقت.. قائلاً:

- ولكن.. ولكن يا أبا نضال..

ضحك..

- أعرف، أعرف ما تفكر فيه، لا تخجل! تريد أن تقول: وأنت كنت تعيش في بيئة وأسرة ومجتمع و..

في هذا الجانب أضيف: إنني كنت وما زلت. لكن ما قاسيته، وما جربت من أعمال، لا أتمنى أن تعانوها أنتم، أقصد أنت وأترابك؛ بالطبع لست وحدي من شقي وتعذب، لا أريد أن أعمل من نفسي بطلاً، جميع أبناء جيلي عانوا مثلي، كنا معاً في بيروت، في بيادر السهل، في حصاد العَلا، أبوك كان معنا.. بالتأكيد حكى لكم ما عانينا. هذه الظروف لم تعيشوها أنتم.. كما عشناها.

- ولكن..

قاطعني هازاً رأسه:

- .. ستقول لي إن حياتكم ليست نعيماً، أعرف ذلك، لست غريباً عنها. صحيح أنني في دمشق منذ زمن بعيد، ولكنني لم أنقطع عن القرية، حتى في فترات المسؤولية، وأعرف أن لكم معاناتكم وعوزكم، وتعبكم في الأرض، وقلق التعامل مع المناخ والفصول.. وخاصة الشتاء الذي يكشف المستور. ولكن أقصد أن خروجي المبكر من القرية ولقائي مع بشر متنوعين وشرائح من طبقات فاحشة الثراء، وأخرى فاضحة الفقر.. جعلا لمفهوم صراع الأفكار والطبقات معاني مميزة وواضحة. لقد كان ضرورة، حتى لو لم تكن مثل تلك الأفكار، لوجب علينا أن نخلقها. بالمناسبة فكرنا فيها قبل أن نتعلمها أو نقرأها.. إضافة إلى أن وجودي هنا بعيداً عن القرية، أتاح لي إمكانية التفكير بحرية أكثر، والتصرف بحرية أيضاً، فليس مطلوباً منك طقوس معينة، وليس جوارك من يراقبك إن أخللت بها، حتى لو لم تقلها..

- ولكن يا عم.. هل هذا يعني أن أمضي معهم وفق ما يرون، وأجاريهم في أفكارهم، وأمارس طقوساً لا أراها لائقة، وأردد أقوالاً تجعلني أصغر في نظر نفسي؟!

استقام في قعدته، وقال بجدية:

– لا.. أنا لا أطلب منك أن تمارس عكس قناعاتك، ولكن أقول لك، تزّيث، وخفف من حماستك، وابنِ نفسك بنفسك، حتى تكبر وترى ما أنت فاعل.

وقبل أن أجيب، نظر أمامه، وقال بسرعة، كأنما وجد حلاً أو فرصة:

– إي.. بردت الشاي، اشرب يا بنيّ، اشرب قبل أن تبرد أكثر، وتحتاج إلى تسخين!

كانت هذه عادته حين يريد أن ينهي الحديث بلطف. لكنني أطرقت، ولم أجب. تناولت كأس الشاي، شربت قليلاً، وأنزلته إلى الصينية بسرعة، فارتطم بها، وانتثرت قطرات منه على الطاولة.. فأحرجت، واعتذرت، وأخذت أبحث في جيوبي عبثاً عن منديل، لكنه نادى على من في البيت.. وقال لي:

– لا بأس.. الأمر بسيط. ولكن يبدو أنك ما زلت متوتراً، ولم تقتنع بكلامي.

قلت نافضاً يديّ الفارغتين، هامّاً بفعل أي شيء مداراة أو ربما خجلاً:

– في الحقيقة كنت أتصور يا عم أنك ستقول غير ذلك، وستشجعني، وتأخذ بيدي.

ضحك بمبالغة، مدارياً خجله ربما، حين لم يوافه أحد من أفراد البيت، وبدأ بتنظيف الطاولة والتقاط ما وقع على السجادة بمحرمة قماشية، يستخدمها عادة لمسح عينيه اللتين تدمعان بعد كل عاصفة من الإغماض والفتح؛ لم يسمح لي بمساعدته، وقال كأنما يغالب إحباطاً:

– وأنا كنت أتوقع أن أقول غير هذا، لكن ما رأيته لديك من اندفاع، ولا أقول ثغرات، جعلني أخاف عليك. ربما كان لما قاسيته، وما آلت إليه حالي دور في ذلك.

– هل هذا عدم ثقة بي أم بهذا الجيل؟!

– مسألة الثقة مسألة أخرى. فقدت الثقة بالكثيرين.. كانوا مثلنا، بيئاتهم ومعاناتهم وظروفهم لم تكن تختلف، وأفكارنا وحماستنا.. ولكن اختلفت أشياء وأشياء.

انشغل بالتحديق في مكان ما في الحائط، لوحة باهتة لمناضل عالمي ذي شعر طويل. ثم نظر إلي بلا تركيز:

– مع ذلك، لا يجوز أن أفقد الثقة بالناس، بالأجيال، وإن كنت أتردد في منحها لأي كان.. حتى أولادي؛ نضال هو الوحيد الذي أحس من جهته بالرضا، وأجد نفسي فيه. تستغرب؟!

وأضاف، حين لم أستطع تركيب جملة تعبر عن رأيي في هذا الأمر المفاجئ، لم أكن قد كونت رأياً بعد:

– تصميمه جعلني أميل إليه أكثر من أخوته، إرادته عجيبة، رغم حاله، فهو يدرس في الجامعية ومرتاح في امتحاناته.

قلت متفقاً مع رأيه، ومعبراً عن قناعة تعرفت إليها الآن ربما، محاولاً التأكد منها:

- يعجبني نضال، حقاً هو مثال للجبروت.. وبالتأكيد يشغلك ويشغل أخويه.

بدا الانشراح في ملامحه:

- بالعكس، هو من يريحني.. يعتمد على نفسه حتى في تأمين تسجيله في الجامعة وكتبه ومحاضراته، وتنقله..

يطرق الباب، يدخل نضال بعكازتيه مسلّماً باشّاً:

- مساء الخير يا بابا.. أرى صديقك هنا، عمَّ تتكلمان؟!
- اذكر الديب وحضّر القضيب؛ نتكلم عنك، أهلاً وسهلاً، أين أخوك؟!
- هل أنا الديب؟! اسمع بالمعيدي خير من أن تراه! أمّا..

قاطعه والده بثقة:

- نسمع به ونراه، والعوض على الله.
- لا بأس، ستتحملون النتيجة! سألتني عن أخي، لا أستطيع انتظاره، تركته مع زملائه. لا أطيق مزاحهم ولا أوقاتهم المضيّعة.

التفت إلي:

- مرحبا عماد!
- أهلاً بك يا نضال؟! ما هي أخبارك، ودراستك؟!
- تمام.. والحمد لله؛ بالمناسبة، أبي يحبك، أنا أكشف سراً أليس كذلك يا أبا نضال؟! يحدثني عنك، ومعجب بك وبأفكارك..
- هذا يسعدني ويشرفني، ولكن ينصحني بعكس ذلك..

يقترب من والده، يقف جواره بانشراح، مباعداً بين عكازيه:

- لا .. لا أظن، صحيح أنني لم أكن معكما، ولكنني أعرف أن أبي مصاب هذه الأيام بوعكة الهدوء ومصيبة النصائح.. هل العمر هو السبب؟!

ينظر إلى والده، يربت على ركبته:

- لا تزعل.. أمي ليست هنا!
- أبوك شيخ الشباب، لو تعرفون قيمته عندنا، تضعونه على رؤوسكم!

أحسست بفرح الوالد، وانقباض ملامح نضال. جمع عكازيه، رفع رأسه، وأخذ ينقل ناظريه بيني وبين أبيه، كأنما يتساءل إن كان أخبرني شيئاً عن عدم احترامهم له، كما خمنت. وربما استقرأ والده ذلك، فخف انفعاله، ووضع يده على كتف ابنه، ضاغطاً للجلوس، أو للهدوء:

- لا مشكلة في ذلك، نحن متفاهمون، أليس كذلك يا نضال؟!

لم تهدأ معالم اضطرابه، ونظر بعيداً:

- هل هذا ما كنتما تتناولانه في حديثكما المفيد؟!

أحسست بسوء الفهم الذي تركه قولي:

- لا يا نضال، لم يكن ذلك محور حديثنا، وأنا قصدت من كلامي أن أعبر لك عن مدى احترامنا جميعاً لأبيك، رغم بعده؛ إنه مثال للعطاء والشجاعة والوفاء، والاعتماد على النفس، و..
- والجنون!

قاطعني أبو نضال، مطلقاً ضحكة مجلجلة، أعادت جو المرح، فاغتنمت الفرصة، وتابعت:

- لا لا.. المغامرة والعناد وقوة العزيمة وبعد النظر، أقرانك يقولون ذلك، لكم مكانة مميزة في القرية والمنطقة كلها..

قال نضال، وقد انفرجت أساريره:

- بابا رجل ولا كالرجال.

اقترب من رأسه وقبله، فضمه والده بغبطة، ونظر إلي بخفر:

- هذا يكفي، أنتما ستجعلاني أخجل، ولكن فات عليكما ذلك، هل تشرب الشاي يا نضال؟! سآتيك بكأس.
- وأنا ما الذي ينقصني؟! لا .. أنا سأحضرها؛ أما بردَ الماء؟! بالتأكيد سرقكما الحديث الدسم، ونسيتم شرب الشاي ساخناً. سأقوم بتسخينه لوجه الله، أكملا الكلام المباح؛ لكن بعد أن أعود!

يحمل الإبريق بيده، يركز عكازيه، ويخطو بهما، يحرك قدميه الضعيفتين بثقة، وملامح رضية..

لم أكن وحدي من يراقب، تلاقت نظراتنا.. وأطرقنا صامتين.

***

الفصل الثالث

-1-

"سأتجرأ وأخرج من الصندوق. الشمس حادة في هذا الوقت، أخمن ذلك، ما زلت قادراً على التخمين. أعرف أين صرت، لم أبتعد كثيراً، ما زلنا نصعد بالتواء، المنطقة خطرة، كانت خطرة وما تزال.. ألهذا يسير الموكب ببطء؟! من يمكن أن يسمعني، سيدهش، وربما يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا أنت في عجلةٍ من أمرك!! لا أعرف إن كنت كذلك الآن، لم أكن كذلك يوماً، تلك إحدى السمات التي تناولني بها المتحمسون، هل كان ذلك بسبب حماستهم لحرق المراحل، والوصول إلى مصاف الدول التي سبقتنا بعقود أو قرون؟!

أحب أن تأخذ الأشياء حقها من الحوار والنقاش. كنت أفسر، أدافع عن رويّتي. لكن ذلك سرعان ما يتحول إلى خلاف فعراك فصراع.. يمتد خارج الجلسات. الآن أستطيع أن أنظر إلى الوراء. يا إلهي.. المنظر غامض غائب في الدخان، ليس ضباباً، إنه غلالة قاتمة تحجب كل شيء!! هل كنت أعيش تحت رحمتها؟! هل أبنائي وأبناؤهم سيستمرون في الحياة هذه؟! هل الملايين تحيا هنا؟! كيف يتنفسون؟! كيف يفكرون، يقَرّون؟!"

يهز رأسه؛ ليس هناك من رأس، يتحسس عينيه ليغمضهما؛ لا عينان، لا رأس، لا فم، ولا..

(هل هذا غريب إلى هذا الحد؟! هل تراه للمرة الأولى؟!

لماذا لم تتساءل حين كنت تؤوب من مهمة أو زيارة؟! ذاك كان منذ زمن يبدو بعيداً، هل كانت الحال كذلك حقاً؟!)

"لا أذكر، لم أفكر في ذلك، ربما! لكن لا أظن أن الأمر كان على هذه الدرجة من القتامة!

منذ سنوات لم أسافر، كنت أختزن الذاكرة من أجل هذه الرحلة الأخيرة.. ليس مجرد لفظها سهلاً، لم أكن ألفظها؛ ولم تغب عن خيالي!

منذ سنوات لم أسافر إلا قليلاً، حين تضطرني المناسبات غير السعيدة! فقدت أخوة تناقصوا باطّراد، حتى من كان يصغرني! لكن قتامة الأشياء في الخيال، وغلالة الحزن، والتعب، والهم كانت تجعل مثل هذا المشهد الذي يغطي العاصمة عادياً.

الآن أراه غير ذلك، لكن ما فائدة مثل هذه الرؤية، لم تعد حيلة، لا في اليد، ولا في الرأس، أو الصدر أو.. لا جسد بعد الآن..! في هذا الحيّز الذي ما زلت أشغله، أو ينشغل بي، دون أن يحس بي أحد، صرت بالنسبة إليهم في عالم آخر، صرت خبراً ستنوس أصداؤه يوماً بعد يوم..

الآن.. ولوقت قليل فقط، ما زلتُ مناسبة، أو طقساً يتكرر بلا كبير اهتمام، المهم القيام به واجباً مفروضاً دون انتقاص، كي لا يلوم أحد، أو يعتب أو يغضب..!

رغم ذلك، فقد بدأ الغضب واللوم منذ اللحظات الأولى. اختلفوا على ورقة النعوة وترتيب العائلات، من الذي يكتبها، يوزعها، أين.. حتى أنهم اختلفوا على من سيتم إخبارهم من الأقربين والأبعدين..

تصادموا حول الدفن: الساعة والمصلّي الذي يليق. لم يختلفوا على المكان، كنت حددته لهم؛ بل كان محدداً إلى جانب أخوتي الذين سبقوني؛ ربما كانوا أسعد مني في حياتهم، ولم يحدث في جنازاتهم ما يجري لي الآن. سبقوني إلى السعادة، وكنت أحسب، ويعتقدون، أنني أسبقهم في كل شيء. حتى البساطة التي عاشوا فيها، وماتوا، لم تكن مصطنعة، لم يتعبوا في إقرارها، عاشتهم وتلبسوها؛ أما أنا، فقد كانت أوقاتي شاقة معقدة، لم أستطع تنفيذ قناعاتي حيالها. لو لم تكن وصيتي أن تكون الجنازة بسيطة عادية دون مظاهر منفرة، ماذا كان جرى قبل أن تنطلق القافلة؟! ربما كانوا تصارعوا أضعاف ما فعلوا، وتضاعفت الصناديق، وتزاحمت العربات، كل في اتجاه!

أتراهم احترموا وصيتي؟! ألهذا يقتصر الموكب على سيارات أربع، بما فيها سيارة الإسعاف التي تئن تحتي؟! هل أنا ثقيل إلى هذا الحد، أحس أني بلا وزن، أو قيمة! أشعر بأني عالة على هذا الموكب، لولاي كان يمكن أن يسرع أكثر. عالة.. إحساس انتابني كثيراً في الزمن الأخير، أرّقني وعجّل في خلاصي الذي تمنيته أحياناً كثيرة، وانتظرته بصدر يضيق.. لم أعد في اعتبارهم شيئاً، ولا في حساباتهم التي غصت بالكثير مما هو أكثر فائدة وأشهى متعة..

لو كنت في حسابهم لكانوا الآن بكامل أناقتهم ونظافتهم ولياقة سياراتهم يتزاحمون حولي، لن أكون حينئذٍ في مثل هذه الإسعاف، ولن أخرج إلى حيث أنا الآن، لأن قيمتي لا يليق بها ذلك، أو نشوتي لن تسمح لي أن أفكر فيه.

ربما .. ربما كنت فكرت أن أراقب الموكب الضخم، وأرى الرتل الطويل من السيارات اللامعة تتلوى صاعدة، لو حاول سيف أن يمر بينها، لتكسر الحد مهما قست نصوله، ولقالوا لن يفلّ الحديدَ غير الوفاء!

(مواكب كثيرة عبرت هذا "الطلوع" بمثل ذاك الازدحام، مواكب شاركت في بعضها، لكن لم تكن بمثل الجمال والأناقة والفخامة التي صارت إليها لاحقاً، حين لم أعد مشاركاً.. ليس لي مكان، ولا دعوة..!

شاركت عن بعد في بعض الحزن، والكثير من الأسى والخيبة؛ بل عن قرب أكثر مما كانوا يتقاربون. لكن من كان يراك أو يحس بك..؟!

وها أنت تعبر هذه الطريق، وتنظر إلى موكبك الذي يضيع بين رتل مضاعف من الآليات الضخمة، الشاحنات والقاطرات والحافلات في رحلاتها العادية غير ملتزمة بكم، تسبق وتتسابق وتتجاوز موكبك بمنبهات وأضواء.. تحس ببعض الحزن، والكثير من الأسى والخيبة! وما من يحس بك، أو يشعر بمثل ما تشعر، إلا القليلون!

بعض الحزن والأسى، والهم والتعب.. والكثير من التفكير بما يمكن أن تكون عليه الحال بعد أن تنتهي مراسم الرحيل!!).

***

-2-

ما يزال العبور بطيئاً، ما يزال الطلوع يتثنى أمام الموكب الذي يسير على إيقاع الجِيب المتثاقلة. تستطيع أن تتأمل المكان والجهات حولك، وتحدق مدهوشاً إن كان لك بعد من قدرة على الاندهاش:

هاهي التضاريس تتبارز وتتقارب مكشوفة جرداء على يسارك، بعد أن ابتعدت التلال المأهولة بالبيوت أو الأقفاص كما كنت تسميها، أو الجحور التي تتسلق السفوح المتعالية بقسوة ووعورة، وتلاشت معها ملامح الكثافة المتمردة وأصداء الكائنات المخالفة، العابثة بالطبيعة والقوانين، الباحثة عن موئل أو ملاذ، حتى لو كان بعيداً منبوذاً وغير آمن.

تعود مسرعاً من ضجيجها الذي يملأ الفضاء، وأنينها الذي تغص به الأفئدة، وتغلق دونه الأسماع، فتتعلق بصخور ونتوءات، وتتوقف عند فوهات وفجوات، كهوف وجحور ومسالك تتقطع وتتعقد.. تواصل التجول في السفوح القريبة وذراها التي لما تقترب منها الجحور الآدمية بعد. لكن فيها كائنات خرافية تتشكل من تآكل الجبال الراسخة؛ أطراف متعددة، وأنياب متشارسة، وأشداق مفتوحة. الله ما أقسى هذا المنظر: الجبل منتهك، مجوف، منهوش.. أي قدر جاحد ينهال على تلك الكتل الجبارة فتتداعى؟! أية أيد جزارة وغايات سوداء تعمل في إنهاكها، قبل أن تضيع وتمحي، وتنقل أشلاؤها إلى أمكنة أخرى تغتال خضرة وبساتين وجهات وآفاقاً؟! تحدثت في هذا مطولاً، حذرت ونصحت وشرحت، هل أوقف القضم؟! هل تباطأ؟! تغير شكله ومكانه، ربما، وصار في مكان آخر أبعد عن الواجهة، هناك يمكن أن يصال ويجال ويولغ في الأحشاء أكثر؟! لكنه لا يغيب عنك ولا عن سواك من الناظرين باهتمام؛ تلك آثار التكسر والانهدام ما تزال عالقة في الجو المغبر، وأطراف التآكل بادية في الجوانب التي تتداخل، وأرتال السيارات المتثاقلة تتغارز في خواصر السفوح!

لست قادراً على الإمعان في المشهد الذي يكاد يسد أفقك؛ ليس هذا جديداً عليك، لكنه لا يكاد يفارقك، مخرشاً أوقاتك التي تلي عبورك السريع المتباعد. وهو الآن ممعن في الحزّ على أعصابك، إن كان لك بعد أعصاب؛ لست الآن في وارد المزيد من الألم، لتغير وجهتك إذن!

لم تفعل قبل ذلك، لم تبدل سموتك التي اقتنعت بها، ولم تتحول قناعاتك حتى على سبيل المرونة أو التجربة: لم يعد وقت أو مجال للتجارب، ولا سيما إذا ما كانت الأشياء واضحة، والنتائج أمامك، عاشها سواكم في أمكنة أخرى من العالم الذي يضيق، وما يزالون يعانون!

لكنك الآن ستهرب من مشاهد قارسة، وستنظر في اتجاه آخر:

الكائن الخرافي يتربع فوق التلال اليمينية، كنت تراه حين تغادر دمشق لأي أمر كان، فترتهب: كائن أسطوري الشكل، هائل الحجم، غامض العناصر، متربص منتظر. يذكّرك بوحوش الأساطير التي يمكن أن ترتسم في هيكله الضخم المتضاغط والممتد ملامح حيوانية وبشرية، تكاد تتخيل بعضها، مما عايشت وقرأت وسمعت، ما تركته خلفك، وما ينتظرك في أماكن أخرى، ويتربص بك في أي اتجاه سرت. كنت تحذر منهم، وتتحدث عنهم بحدة، وتقول: أولئك سبب الخراب العام، إنهم تَشوُّه الإنسانية في مسيرتها الممتدة آلاف السنين، طفرات توسعت وتشبثت واستقرت.. تنهب وتمتص وتتباهى في سباقها إلى الصيد الذي لا يستطيع التخفي طويلاً. تلك كانت رؤاكم التي استندتم إليها لتختاروا الطريق المغايرة، ولتواجهوا بضراوة. لكن الحماسة والتصميم والمبادرات جديرة بالتقدم، وقادرة على التجاوز، وقد أفلحتم ولو إلى حين.

لتتشاغل عنه بالسفوح الملساء اللدنة، وبالرغبة التي تستثيرها، والشعارات التي تحفظ، والأهداف التي تتلبسك. وتحاول لملمة العناصر والأعضاء في هيكلك، والاتكاء على ما لدى الآخرين البعيدين والقريبين، والتأمل بالعودة التي لن تطول. وكان ذاك الكائن المتوحش لا يلبث أن يتمدد ويتبدد إلى بضع كتل صخرية جبارة تتوزع التلال التي تتباعد، بعد أن عرتها الظروف والصروف والقرون من ستارها الترابي الأصيل؛ فهل يتبدد خوفك وقلقك مع تجاوزها؟!

كنت تفكر خلال عبورها المتطاول في السنين وآثارها، والزمن وفعلته. هي الكتل الضخمة التي نهضت من عمق الأرض، هرباً من حصار وملل وغليان، استقرت حيث ابتردت، وعاشت مع الشمس والريح والغيم والمطر.. لم تكن تظن أنها تتقشر وتعرى، كانت تحسب ربما أنها تتجدد، كما هي حال الكثير من الكائنات التي أمّتها؛ تعايشت، وتكاثرت، وانحشرت في الأدغال والأكمات، ثم انزوت في كهوف وجحور، تؤوب إليها بعد طراد صيد ناجز، أو هرباً وخلاصاً لا يدوم.. تلك حالها ومحاولاتها للاستمرار. من عجز عن التحمل، وفشل في الاختباء، قضى بلا مواكب أو ذكرى، ومن احتال أو برع في المسايرة والتكيف، حاز على فرص جديدة له، ولسلالته التي تحفظ سماته، وتبزّه فيها.

كنت تهرب من التفكير في كائنات تشبهها، ومصائر لا تبتعد كثيراً، وموعد لن يطول.

تلك مشاهد اليسار واليمين، فإلى أي جانبيك تميل؟! هل يمكنك أن تمشي بينهما صعوداً وتعرجاً واختراقاً؟! هل المسار آمن، وما معنى الأمان إذن؟! هل هو الدفن التام، الأهون من التشرد على التخوم أو في المفازات والقفار بانتظار الطيور الجارحة والوحوش المفترسة التي تنتظر؟!

•

لست على عجل، لكن الطريق تبدو طويلة، والآليات غير قادرة على التسارع، ليس احتراماً للميت كما أظن، بل مواكبة للسيارة التي تحمل التابوت. التابوت ليس ثقيلاً كما أعتقد، لست بذي حجم كبير ولا وزن مقدر، ولم أكن كذلك في البداية حين لم يكن الشبع ممكناً، فتبقى أركان قادرة على استقبال المزيد، الذي لن يأتي: لستَ وحدك في البيت، أفواه عديدة تفتح وتغلق باطراد، وبطون خاوية كثيراً من الوقت، لم يكن طبق القش مليئاً بالصحون؛ صحن واحد كبير، وخبز أسمر، أو مقلاة مقعرة من الفخار الأسود، وملاعق خشبية للمجدّرة، أما القمحية والمخلوطة والمتبّلة واللوف والملفوف.. فلا أقل من وعاء معدني أكبر، يوزع في الصحن الكبير على دفعات. لم تكن منافساً حقيقياً في التسابق على الطعام.. الأيدي تتشابك وتتصادم، والملاعق تنزل وتصعد، فيختلط الحابل بالنابل.. لم تكن متسابقاً شرساً؛ بل كنت أقلهم اهتماماً. وكثيراً ما تركت المائدة قبل أن ينتهي الطعام، أمك تلاحظ ذلك، أبوك أيضاً، يحثانك على المتابعة، فتحمد الله وتقول: اكتفيت، الباقي لأخوتي!!

كان يمكن أن تشبع، ويشبع أخوتك وأترابك.. في موسم التين والعنب والرمان، مع ذلك كنت تنتظر حتى يأكل أشقاؤك. قلت ذات مرة، وأنت تقدم ثمرة التين الناضجة النادرة أول الموسم لأخيك الأصغر: إذا أكلت أنت كأنما أكلت أنا!!

ضحك الآخرون وتساءل بعضهم: كيف؟! حتى أخوك تساءل طويلاً كما أخبرك بعدئذ.

أمك لم تكن تقعد، معظم أوقاتها على التنور تخبز، أو تجلب المياه النزازة من العين في أطراف القرية، تغسل، أو تحضر السليق والحطب لتطبخ.. الباقي للعمل في الأرض التي تقترب وتبتعد، ووالدك يتدبر أمر الدواب، والأرض أيضاً. لم يكن للشبع أن يستقر، حتى الجوع للعب لم يكن لينتهي، البيادر والسفوح والغابات.. الزواريب الموحلة والمساحات الضيقة بين البيوت الطينية، والأضيق داخلها، ولم يدع العمل الشاق بعدئذ إمكانية لتناول ما لذ وطاب، وقتاً أو ثمناً أو هماً..

"يتضاحك، وهو على مقدمة سيارة الإسعاف، وصوت محركها يدوي، كأنها تحمل دبابة.. ينظر إلى جهة التابوت.. تنوس ضحكته.."

حين أدركتك الأسرة، صار صعباً عليك أن تحصل على نصيب كاف من الغذاء، فالزوجة أولاً، والأطفال.. خاصة بعد أن بدأت فصول العذاب مع نضال..

كان يمكنك في أوقات تلت أن تأكل حتى التدشؤ، وتشرب حتى الثمالة، كما صار يفعل زملاؤك، رفاقك، في المناسبات الكثيرة المقررة، والمناسبات الأكثر التي يقررونها، والدعوات التي يلبون! لم تكن تلبي، ولم تكن تنتظر مثل ذلك، ناهيك عن طلبها، أو التلميح بها! حتى إذا ما كنت حاضراً لضرورة أو أمر، وكان لا مناص من الهرب، لم يكن ما تتناوله قادراً على إشباع

عصفور، كما يعلق أصحاب الدعوة، أما رفاقك فيضحكون منك آناء الموائد، وأطراف اللقاءات..!

لم يكن بإمكانك، أن تفعل غير هذا.. وأنت مشغول بالآخرين الذين لا يشبعون. ليست لديهم الإمكانية، ولا القدرة، رغم أنهم يعملون ويتعبون.. في مختلف القطاعات، لن تكون غير هذا. أفكارك ومبادئك، وتاريخك، وحماستك لكل ذلك. أنت متردد، كما يقولون، لكن ترددك يأتي تمهيداً للاقتناع، وإذا ما وصلت إليه، تندفع كل أحاسيسك ومشاعرك وقواك في سبيله.

حين وصلتك بعض الأفكار، انشغلت بها، لم تكن جديدة على سلوكك، أو طباعك، اتهمت بتبنّيك لها قبل أن تعرفها.. في بيروت والسهل والعَلا.. وحين كنت مستخدماً في منطقة بعيدة، لا تقبل ما يجري في المدرسة من ظلم لبعض التلاميذ، تفرقة بينهم بناء على العائلة والطائفة والعشيرة والطبقة.

كنت تناصر من لا نصير له، وتعرضت للزجر، والنبذ، والاتهام بما صرت إليه، وما انتسبت إليه بعد زمن، رغم أنك كنت تقوم بأكثر من واجبك، حتى أنك تدخل إلى الصف حين يتأخر الأستاذ بسبب الطقس العاصف، أو المواصلات، أو المرض أو أي سبب آخر.. الطلاب يحبونك، يستمتعون بتعاليمك، ويتمنون أن يستمر الطقس عاصفاً والطريق مقطوعة حتى تداوم معهم أكثر. كان أستاذاً وحيداً، مديراً ومعلماً، ووجيهاً اجتماعياً، وكان من عائلة معروفة بإقطاعاتها وأملاكها، وعلاقاتها الواسعة مع ذوي النفوذ. تلك العلاقة التي استخدمها حتى أبعدت المدرسة المقررة في منطقتهم إلى تلك القرية. ليس إيثاراً، أو حباً بمنح الأبناء الآخرين هذه الهبة؛ بل لإبعادها عن منطقتهم، لتحافظ عائلته على مواقعها.

لم يرض بما رآه من رضا التلاميذ وأهاليهم عنك.. فبدأ يكيد لك، وكتب فيك إلى معارفه، واتهمك بأفكار لم تكن تعرفها، كنت تمارسها، ومبادئ لم يعطك إياها أحد، خبرتها من تجربتك، فنقلت خارج المحافظة..

فما كان لك إلاّ أن تقصد العاصمة..!!

في أول سفرة..

لم تكن دمشق مثلما هي عليه الآن، ولا السيارات تزدحم بأشكال زاهية متنوعة...

كانت الطريق طويلة ومتعرجة، حارة واحدة باتجاهين. رغم ذلك لم تكن لتغص بالآليات كما هي الحال الآن. ولم تكن وعورتها تعيق اللهفة، ولا منعرجاتها تبدد الشوق. هل تلك المعاناة المتطاولة هي ما كان يزيد الترقب ويصاعد التوثب، ويجعل الانتظار نابضاً بالدهشة والأمل والصبر الجميل..

*

الشمس تلطف أشعتها مع اقترابها من ذروة الجبل، ستختفي بسرعة أكثر مما كانت تفعل في تلك المنطقة؛ حيث ولدت وكبرت؛ الأشجار التي تنتصب مخضرة متواشجة في النهار، تتقاتم مع اقتراب المساء، لترسم طيفاً مغرياً يحتضن الكرة الحانية قبل أن تتلاشى خلفها، فتنسج خيوط المساء الحلكة التي تكاد تتلاشى.

أما هنا، فيمكنني أن أتابع شقاءها الذي يجعلها تنزلق على صلعته المخشوشنة غير بعيد من خطواتي التي تواجه أحد فروع النهر الخالد.

لم يكن يقنعني جريانه على الرغم من حيويته، ولم يكن بإمكاني تصور النهر الخيّر قادماً من الغرب، أنا المنحدر من الشرق صوب العاصمة التي تختصر الجهات، ليس فقط لما يعنيه هذا الرمز الذي يصيبني بالحساسية الفكرية، فتثور الذكريات والمبادئ والأحاسيس وتخض قدور الدرّ، وتبدأ ملايين الأصابع تحك مخزون الأفكار لينطلق المارد المخلص.. لقد نهض من رقاده، وما هي إلا مسافة ما تزال ليكون الحلم بعض الواقع أو نبضه وشذاه.

ما تزال مسافة أخرى بيني وبين الوصول إلى الدار التي تكاد تضيع بين الأشجار الفارعة المكتظة قبل أن تبرح الشمس بيدرها السماوي، فما الذي سيدلني عليها وقد صار الضوء انتثارات وملامح في الأرجاء المحيطة، وإشعاعات نائسة في الخلف؟!

لكن إشارات محفوظة تستطيع إرشادي إلى حيث نلتقي. لن يطول اللقاء، حتى يكون بإمكاني تلمس دربي قريباً من الماء المترقرق، مستأنساً بوشوشته وأصوات النقيق التي تتواطأ على تغييب آثار أقدامي في هذا المساء الذي صار صيفياً بلا مقدمات.. وعليّ أن أتقي مشاكسة الحشرات والزواحف والكائنات التي لم تعتد قامتي وملامحي ومفرزاتي، كالكثير من إمكانياتي الأخرى المنتصبة.

لكن عليّ أن أنفذ المهمة، فالثقة التي أوليتها، ولما يمض على وجودي هنا الكثير تجعلني أنشغل بهذا النشاط، وأقوم بما تطوعت للقيام به بلا أي تلكؤ أو تباطؤ.. فالمشكلات تزداد تعقيداً والمنعطفات خطيرة، والأنياب البارزة بلا ابتسام، والأشواك تغلظ.. ولا بد من مواجهة كل ذلك، والاستعداد له والتضحية من أجله.

(كنت تحكي لأبنائك فيضحكون ويؤكد جداهم ذلك، كان ثائر يقهقه، وثورة تملّ، ونضال يشرد ويتمشى بعكازيه، وبتول تكتئب.)

سيأتي زمن تغدو فيه المسافة المقطوعة مشياً حثيثاً غامضاً، شارعاً عريضاً، ولن يطول الأمر كثيراً، حتى تتجاوز الآليات المتسارعة المتعاكسة من دون أن يكون في ذلك تحدّ، بل هو لإنجاز يحسب ويفاخر به تطوراً حتمياً، ونهوضاً تنموياً لن تتوقف آثاره

على هذه الطريق العريضة والأبنية الحضارية الحديثة الملاصقة له؛ بل ستتعدد الطرق والاتجاهات، ويرتفع البنيان في الجادات والحارات ليغيّب الشمس باكراً، وستعمّ شآبيبه مختلف المناطق والأرجاء. ويخف تسارع النهر، وتنوس وشوشته تحت وقع السقوط المثير للأشجار المترامية، ويتلاشى أنينه في أصداء الخطو المزدحم والآمال المحتشدة، والنهدات المحمومة.

سيتأخر الوقت كثيراً على التفكير بما آلت إليه تلك المنطقة وثراها وسكانها.. كائنات مرئية ومستترة تنق وتزقزق وتصدح.. تدب وتزحف وتطير وتمشي..

هل ما يزال الرفيق أبو أحمد والرفيق أبو منصور يتذكران ذلك اللقاء الأول؟! حين كنت أذكّرهما يضحكان: هذا زمن ما قبل الوعي! فأي وعي جاء، وهل أقام؟!

هاهما يقيمان عليها ما يزالان، ويتابع أبناؤهم جمع الشهادات والفوائد!!

رحت أراجع كتابات بت أتابعها عن هذه المدينة العريقة، ومياهها وأشجارها.. أستطيع أن أتابع الكثير منها الآن، لكن ليس كما أقرأ:

الجداول تنساب عبر البساتين، تنقل الثمار التي تتساقط من على أشجارها الغاصة بها، إلى أي عابر أو مقيل، وكان يمكن لمن يتمشى بينها وتحتها حاملاً على رأسه وعاء أن يجمع ما يطيب له مما يتساقط، من دون أن يضيع وقتاً في الصعود إليها أو استمطارها مشمشاً وخوخاً ودراقاً..

من الصعب على المرء الآن أن يتخيل ذلك ممن عاصرها، وهي تنكمش عاماً بعد عام، ومشروعا إثر مشروع؛ فكيف يمكن أن يتصور ذلك من لم ير سوى الشوارع الحديثة والأبنية المتعالية والأضواء الملونة والحدائق المصطنعة والمجاري المبلطة والمسقوفة؟!

وكيف تستطيع أن تأمل بالمحافظة على ما تبقى منها في الأطراف التي تتجذم؟!

*

-3-

ها أنت مرة أخرى على قارعة الطريق.. الطريق ذاتها، بحارتيها اللتين لم تغيرا في كونها طريقاً واحدة، وحيدة، هل السرعة هي الحل؟! هل الآليات الحديثة هي الملاذ، الاستقامات الممكنة والحدود الملونة والمنصفات، الإشارات والإعلانات الضخمة، الاستراحات العديدة، والمنشآت المتعددة.. هل هي ما كنت تصبو إليه، فحسب؟! هل هي كل الإنجازات، التي كانت نصب عينيك وأنت تعبر من هنا؟! لتعود في سيارة إسعاف تحتاج إلى إسعاف، ومرافقين يتأففون بعدما امتدت الساعات، وتطاول الصبر حتى كاد ينقطع، وتلاشت أو كادت عبارات التأسي والتصبر والامتثال لطاعة القضاء والقدر..؟!

هل يستطيعون التشاغل بالمناظر، وهل فيها ما يبعث الأمل والحياة؟! حتى لو لم يكونوا في مرافقة الموت؟!

المساحات ما تزال جرداء، الجبال والتلال والهضاب، السفوح والوديان.. ما يزال المشهد كئيباً، يحاول المسافر أن يبتعد عنه بالنوم أو الشرود أو التأمل. كنت تفعل ذلك، أما الآن فلا تستطيع، لا وقت لديك ولا سبيل. هل أنت قلق كئيب حائر من هذا التوقف؟!

ليست الوقفة الوحيدة في هذه الرحلة التي يبدو أنها لن تنتهي. سيارة الجيب الضاجّة لم يتأخر إصلاحها كثيراً، بعد ما أجهد السائق الخبير في ذلك، رغم ما تلقاه من إهانة اعتاد عليها من القائد الشاب بنجومه المذهبة. لكنه تمادى كثيراً أمام المرافقين. كان يمكن أن يتركه ويمشي، أن يدعه في الطريق. فعلها قبل ذلك، لكنه الآن لم يفعل. تحمل الكثير رغم البرودة القارسة، تكاد الأصابع لا تطاوعه، وهو يحاول استبدال الدولاب، ومعالجة التقطع في مسار الوقود، لكنه لن يفعل الآن احتراماً للمشيعين، ولروح الفقيد الذي التقاه مرات، ولاسيما في فترة مرضه، حين كان ينقله بين البيت والمشفى بغياب سيده الصهر المرتقب؛ حيث يمكنه أن يتكلم. كان بالإمكان لو استعصى الحل، أن يكمل باقي الموكب من دونها بلا كبير مشقة. يمكن أن تستأجر سيارة أخرى، أية سيارة يمكن أن تحمل راكبها. السائق يبقى مع سيارته، وسيتدبر أمر إصلاحها والالتحاق بالموكب، أو العودة إلى سبيله. الضابط الأنيق الذي رغب أن يكون الوحيد في السيارة تأكيداً لشيمة القيادة، يمكنه أن يتصل بأحد ما، فيرسل له بديلاً منها. هذا ما قاله بأنفة لم يلتفت إليها أحد؛ فلو كان ذلك صحيحاً لجاء بأحسن منها منذ البداية بعد طول انتظار! لا بأس يمكنه أن يستأجر أية سيارة من أي مكان قريب، أو يركب أية سيارة عابرة إلى "موقع" مناسب. أما عربة الإسعاف فأمرها مختلف، لا تستطيع التعويض عنها بأي من السيارات الثلاث، لا يمكن لأي منها أن تحمل التابوت، لا تتسع فراغاتها له، ولا سطوحها جاهزة لاستقبال أية أحمال، كما

كانت سيارات ذلك الزمان. ويحتاج استئجار سيارة أخرى مناسبة لهذا الحمل المميز إلى إجراءات وأسئلة وإحراجات.

لا بد من الانتظار..

"الحال بالنسبة لي غير ذات أهمية، أستطيع أن أنتظر، سيان عندي، وصلت اليوم أو بعد غد، فالأمر انتهى، ومسألة الترتيبات الأخيرة، تعود للآخرين. ليست هذه جديدة تماماً، حاولت أن أقوم بما عقدت الأيمان عليه، وعزمت على تحمله والسعي من أجله والتضحية في سبيله، لم يكن ممكناً أكثر من ذلك، تحملوا، واجتهدوا، وتسارعوا واختلفوا وتفارقوا.. وبقي المصير، معلقاً على كف عفريت!!

القضية بالنسبة لي لم تعد ذات قيمة، ليأتِ الملكان فأنا مستعد للاستجواب، اعتدت على الملوك، الكثيرون ملوك من دون تيجان، وبلا رعية، وإن كانوا يظنون غير ذلك. يختال كل منهم بتاجه الذي لا يراه أحد، لا يحس به سواه، ولا يرضى للآخرين أن يسبقوه إلى ولائم الوعظ والتهديد والوعد الأكيد والنصر المؤزر؛ ليأت الملكان، سيكونان أرحم من أي مليك أرضي، لن يتهماني بما لم أفعل، ولن يفصّلا في تاريخي الذي نسيت، تناسيت، تعاميت، تغافلت عن الكثير منه، هل يعرفان؟! يكون ذلك أفضل، الآخرون كانوا يعرفون أيضاً، لكنهم لم يقتنعوا، نقّبوا عن النيّات والمشاعر، وحللوا الأنفاس، ولوّنوا الأقوال والنبرات، مع ذلك.. (تستطيع أن تشكرهم لأنهم تركوا لك حيزاً ما.. في كثير من المواقع، لم يترك للآخرين من شيء أو قول.. أو هواء؛ بل لم يترك آخرون، في العديد من التجارب المماثلة، التجارب المثال، لم تكن ألوان، ولا نبرات مختلفة ولا إيقاعات متعددة.. لحن واحد، وكلمة واحدة، ولون فاقع، وطريق حتمية إلى المستقبل المشرق، بل إلى النهاية..!

هذه هي الطريق.. ذاتها، واحدة ما تزال بعد كل تلك السنين، وحيدة، ليس هناك من طريق أخرى، ولا إشارات أخرى ولا اتجاهات أخرى؛ إما إلى، أو..!!

أليس هذا ملخص حياتك، نضالك، أحلامك..؟! لماذا لم تكن طرق أخرى، كم من المرات توقف المسير، تأخر الناس لأن حادثاً بسيطاً وقع في مكان ما من الطريق الطويلة، كم من مرة تعطلت برامج، وأخرت رحلات، وتأجلت مواعيد، وفاتت امتحانات، وتبدلت مصائر، لأن الطريق كانت مقطوعة لأي سبب كان!

ربما لم يكن يُفصَح عن ذلك دائماً، ويعبّر بكل تهذيب بأنها سالكة بصعوبة، ذلك هو التوصيف الذي تستحقه الطريق حقاً في كل المراحل، رغم انفتاحها أحياناً، ورغم سيلانها الذي يبدو سلساً. فسلوكها صعب، حتى في الأوقات العادية والظروف المناسبة؛ ففي كل لحظة يمكن أن يحدث مكروه، وفي كل منعطف حكاية. أما منحدراتها فحذرة، والخارج منها مولود..

أما في حالتك، فالخارج منها، حين يقدر لك الخروج، مفقود إلى الأبد!

ليس الأمر سهلاً، ويمكنك أن تُسَرّ قليلاً بهذا العطل الذي يطيل أمل بقائك فوق الأرض، تحت السماء!

ليست هذه المرة الأولى التي تتعثر فيها رحلاتك على هذه الطريق التي عبرتها مئات المرات، لكنك الآن على قارعتها للمرة الأخيرة.. ربما!

في المرة الأولى، السفر الأول، تعطلت الحافلة في مكان قريب من هنا، لم تتأخر كثيراً، ولم يتأفف الناس طويلاً. هل كانوا معتادين على المشاق، متآلفين مع العذاب، صابرين على القضاء والقدر، طائعين له، أكثر من مرافقيك هؤلاء؟!

ها هم يتأففون، يمتعضون، يبدون الحنق، والضجر وضيق النفس. يتذمرون، يشتمون، وربما يعترضون على القدر، ويلعنون الساعة التي حضروا فيها للقيام بهذا الواجب!

ها هم بين حين وآخر يصمتون، يشردون، يتبعثرون، ويعودون ليرقبوا عملية الإصلاح التي بدأت بعد أن استعين بميكانيكي قريب من الثكنة، اعتاد على إصلاح مثل هذه الآليات..

إنهم يمضون الوقت حين يجتمعون ببعض النكات التي تبدد التبرم، بالضحك المتوتر، غير عابئين بالحال التي يفترض أن تكون خاصة. يضحكون بما لا يليق بالمسير في جنازة. لكنها جنازة مغايرة، لا هم حزينون، وإن بدوا محزونين، ولا هم مبالون بالفقد القريب الأبدي، ولا معنيون بالمصائر التي تلي. سواهم أكثر اهتماماً، ركاب السيارة الصفراء أكثر اسوداداً، وامتثالاً لمتطلبات الحال وأكثر توتراً. وبما أن هذه الأوقات هي الأقل حرجاً، فما يزال أمامهم الكثير من الإجراءات واللقاءات التي سيكون للحذر حضور مهم فيها، وربما الحرج، والحساسيات واختلاف الطقوس، أو عدم التعود عليها، وعدم التعرف إلى المشاركين من المواسين.. فلهم معارفهم في الحارة التي خلفوها وراءهم في العاصمة، ولهم صداقاتهم أو علاقاتهم. أما هناك فليس من معارف سوى الأقرباء المقربين، وبعض الذين كانوا يترددون على الدار التي اتسعت للكثيرين بحثاً عن عمل أو طلباً لمساعدة في وظيفة، أو مقيلاً، أو موئلاً إلى حين.

كثيرون منهم لم يعودوا للسؤال عن الدار وأصحابها بعدما أنهوا فصولهم، وانتهت مسؤولية صاحبها؛ حتى الكثيرون ممن كانوا دائمي الحضور والطلبات والإقامة، غابوا دون أي سؤال. ولكن كيف سيكون اللقاء؟! الوقت ليس مناسباً للعتب، ولا للتلويم، حتى لو كنت قادراً على ذلك لن تفعله، تستطيع أن تخلق لهم الأعذار، وتحب ذلك، البعد والانشغال بالأسرة والعمل، والتكاسل والانصياع لرتابة الحياة في القرية، وتمثل عاداتها وتثاؤبها. لكن هذا لم يقنع أفراد أسرتك، ولا سيما زوجتك.)

أما نضال فلم يكن كثير الاهتمام بهذا، رغم أني أحس أنه يترك لديه غصة، ويسبب له شعوراً بالاغتراب حين يفكر في هذه الجهة من توجهاته، رغم أنه يحبها، وكثيراً ما أبدى رغبة

حقيقية بالعيش فيها، زمناً، أو تجربة، أو هروباً من صخب المدينة وضجيجها ومتاهاتها.. المدينة التي تتكاثف أبخرتها القاتمة، وتتزاحم فيها الغايات وتتنافر الرغبات..

لكنها رغم كل ذلك، كما كان يقول، قادرة على التغاضي عن أحوال متعثرة، أو عدم الانشغال بمن كان في مثل حالته، وهذا يريحه، ويؤمن له اهتماماً أكبر بأوضاعه.

أما هناك في القرية، وبعد زيارة مطولة قضاها بصحبة عماد، فقد كان للغم والقلق والخيبة أثر باد، مع كثير من التفهم والتسامح وربما الشفقة!!

وهذا ما تعذر على أخوته الإحساس به، أو قبوله. فأغلقوا المنافذ، أو أداروا ظهورهم ومشاعرهم، وباتوا في حِلٍّ أراحهم من التفكير والترحال والتقارب والقربى التي من دون طائل!

بتول كانت أقرب إليّ في تصورها وتفكيرها، وأقرب إلى نضال. وهذا ما خفف عني، وجعل إحساسي أقل اغتراباً! ولا سيما في السنين الأخيرة التي كنت أحتاج فيها إلى ألحان أليفة افتقدتها، ولم تعد أصابعي قادرة على بثها رغم محاولاتي التي ازدادت خيبة.

***

الفصل الرابع

-1-

نزلت من الحافلة الصغيرة، تساءلنا عن سبب توقف سيارة الإسعاف، درنا حولها، سأل كل منّا السائق بمفرده، لم يكن ينقصه الكثير ليثور:

- قلت لهم غير جاهزة، ألا يوجد سواي في الميدان؟! لماذا لا يرسلون الحديثة؟! لتبقَ هذه السيارة للخدمة، ما هو الأهم: الإسعاف أم الخدمة؟!

يخفف القائد الشاب من ثورته، على عكس ما هو متوقع؛ ليتجنب حدة حنقنا، أم ليهرب من الموقف الذي وجد فيه نفسه؟! بوصفه صاحب المبادرة الإسعافية غير المناسبة. فكرت في ذلك سراً، في الوقت الذي جاهر به الآخرون، بعد أن صحب السائق بسيارته إلى أقرب محل تصليح.

ما يزال نضال في المقعد الأمامي، لم ينزل، لم يطلب من أحد مساعدته في ذلك أول الأمر. فعلت ذلك بعد حين، كان غارقاً في التفكير..

- دعني معه، لآخر مرة.. وحيدين!

حاولت أن أواسيه، أسليه، أخرجه من الحال التي خمنت أنها قارسة. رجاني أن أتركهما.

كان مصراً. لم يكن متبرماً أو منزعجاً من تعطل السيارة، لم يبدِ أي اهتمام بذلك. هل كان يتمنى أن يبقى أطول فترة ممكنة مع أبي نضال، في رحلته الأخيرة؟! لن أحرمه من هذا. خطوت صوب المشيعين الآخرين، كانوا يقتعدون حجارة غير جافة تماماً، أو يقرفصون، التموّا بعد أن انتثروا في المحيط القريب.

غير بعيد في الجانب الأيمن تنتشر البيوت متوسطة الارتفاع بكثافة بادية، إنها المدينة التي ترافق أية سيرة لرحلة إلى العاصمة.. فالاستراحات فيها، وانقطاع الطريق أيام الشتاء يتكرر قربها، إنها الأبرد والأقل أمطاراً، والأكثر حضوراً في ذاكرة العابرين والمسافرين. وهي في ذاكرة المساقين إلى الخدمة المحطة الأبرز ابتداء لأيام عصيبة، وسنين تعد زوراً في سجل الأعمار، تعرف حين تبدأ، أما النهايات فتحتاج إلى منجمين يقرؤون كل الظروف السياسية، ويتكهنون بما ستصير إليه حال المنطقة المحمومة احتلالاً واعتداء، واختصاماً وتوتراً في الداخل والخارج، القريب والبعيد.

وجوه صفر وأجساد تجرجر، ورؤوس منكسة، وأصوات متكسرة، حتى وهي تطلب من سائق الحافلة الكبيرة التوقف، بعد أن يصيح مرات باسم الموقف الأشهر على الطريق كلها. البعض يجلبون بحافلات مستأجرة خصيصاً لهذه المناسبة. داخل السور، وطوال ساعات الحرّ أو القرّ، الجوع والعطش والترقب، والتقاط الأوامر والتعليمات التي تنتقل من أشخاص متذمرين من هذا الازدحام، متثاقلين في الحركة والقول المفيد، متنبهين لأسماء محددة أو باحثين عن أصحابها..!

(قدمتَ الورقة التي تحمل طلب السَّوق، كنت قد نظرت إليها طويلاً، مع أصداء شهقات أمك التي تبكي، ووالدك الذي يرسل تنهدات ذات معنى.. ألا توجد عبارة ألطف؟! القطيع هو الذي يساق، كنت تسوق الدابة للرعي ولجلب الماء، لم يبق إلاّ أن تُهَشّ بالعصا. ليس ما يفعلونه أحياناً في ذاك الموقع اليساري المقابل للمدينة أفضل من ذلك، وهذا ليس شيئاً مقارنة بما ستصير إليه الحال في الدورات التي ستبدأ بعد أيام، الآن يمكنك أن تعود.. ريثما يحدث الإفراز، الأسماء كلها سيتم توزيعها إلى المراكز، الوقت المناسب للقيام بالتدخلات والطلبات، والرجاءات والأعطيات.

بالنسبة إليك الأمر متروك للحظ، أو لحاجة القطعات، أو للشهادة التي تحملها. لم يسألك أحد عن رغبتك، وهذا ليس سيئاً، لو سئلت لاحترت في الجواب. ولن يسأل عنك أحد؛ فدع مصيرك في أيديهم، كما هي الحال دائماً.. لم يبق سوى أيام تحسب من هذا العمر المهدور، يمكن أن تحيا فيها آخر أيامك المدنية، وأول أيام العطالة الحقة!

وقفت على هذا المفترق، لم يكن موقفاً اسمنتياً مسقوفاً، الشمس في طريقها إلى الغروب خلف الرواسي القريبة التي تحيط بهذا الموقع المسوّر، سفوح تفحصتها جيداً وأنت تنتظر لساعات، تختلف كثيراً عن الجبال التي تحتضن قريتك، وتكتسي بالخضرة الدائمة. صحيح أن خضرتها تنوعت، وانتظمت سفوحها أكثر، وصار لها شكل يدل على تدخل الكائنات العاقلة في تكوينه.. لكنها تبقى مميزة الحيوية، نابضة بالحركة والهسيس الملون، أين منها هذه المنحدرات الجرداء؟! لا شيء غير الحجارة والصخور الناتئة، والكهوف الغامضة، والامتداد الضاغط على الصدر والأنفاس.. كنت تتابع تأملها، بعد أن حظيت بمكان يتسع لطولك في حافلة متجهة إلى العاصمة. قررت السير في هذا الاتجاه لأنه الأقرب، والأكثر احتمالاً لسرعة مغادرتك هذا المكان.. والأكثر أماناً. فلو اخترت الجهة الأخرى، لكانت احتمالات الركوب أصعب، وفرص الوصول أكثر غموضاً، واكتئاباً؛ متى ستصل إلى القرية؟! كيف ستمضي الساعات، أين ستبيت؟!

أما في العاصمة التي تبعد ساعة لا أكثر، فستقصد دار أبي نضال، وإذا تعذر ذلك لأي سبب كان، يمكنك أن تقصد فندقاً شعبياً، أو لعلك تتذكر واحداً من معارفك طالباً أو عسكرياً يقيم هنا!

لم يخفف ذلك من الاكتئاب، كما لم يخفف الاستقبال الباش لأسرة أبي نضال، بانتظار أن يعود من اجتماعاته المديدة، من دون احتمال أن يساعدك في الإفراز إلى مكان مناسب.

وما هو المكان المناسب لك؟! مكان تستفيد منه، تستطيع ألا تخدم طويلاً، إجازات ومهمات ولباس مدني!! هل تصلح لذلك؟! لست متأكداً بعد، لا بأس!).

لن أطلب منه، قد يفعل من نفسه.. لم يفعل مثل ذلك كثيراً، لا يطلب ما ليس قانونياً، وهو يستطيع.

ليس في مثل هذا الطلب خروج عن القانون.. يرددون ذلك في القرية، وتقول أمي: اطلب منه يا أبا عدنان. أليس صديقك وعشيرك..!

يرد أبي بإصرار:

- لن أطلب منه، لن أحرجه، لا يقصر إن كان يستطيع.
- لا يستطيع؟! إنه يفك الحبل عن رقبة المحكوم بالإعدام!
- لن أطلب منه.

ويضيف تخفيفاً من حدة بكائها، أو لمواساتي، وقد أيقن أنني أسمع ما يدور:

- أبو نضال شهم، وهو يعرف ابنك، ويحترمه، ألم يقل لك ذلك حين جاءنا إلى هذا البيت؟! ألم يخبرك عماد بذلك مراراً، كيف يستقبله، وكيف يسلم عليه، ويطعمه ويؤويه في بيته أيام الجامعة..!

- هذا أمر آخر، هذه عسكرية، من يعرف أين يرمونه، على الجبهة، في أي خربة، وماذا يأكل، وكيف ينام ويفيق و..

- ليس وحده يا أم عدنان، وابننا صار رجلاً.. أنا لا أخاف عليه في أي موقع كان، يعرف قدر نفسه ويحترم الآخرين ولا يقصر في واجباته، ولا أعتقد أن ما سيلاقيه أصعب من عيشتنا. هل تذكرين كيف تزوجنا وربينا الأولاد أم أذكّرك؟!.

- لا.. لا تذكرني، المهم أننا وصلنا إلى هنا، لا تعيد لي قصة حياتك وبطولاتك ومرجلات صاحبك.. أبو نضال هذا، الآن وقته، دعني أرَ ذلك عن حق، أم كله كلام في كلام؟! يا عيني عليك يا عماد، راحت عليك يا ولدي!!

كنت في الفراش، مستيقظاً، منتظراً بقلق.. ما سيؤول إليه الحوار، هذا ما فكرت فيه، بعد أن هجعا، وعزّ علي النوم.

تساءلت كثيراً، عن رأيي في هذا الأمر؟! هل أرضى أن يريق الرجل المهيوب ماء وجهه في طلب من أجلي؟! وقد قال مراراً: إن في كل طلب خاص ظلماً لكائن آخر، وأنا لا أحب أن أظلم أحداً!

وكان يشكو دائماً من إلحاح الناس:

- أفهم أن صاحب الحاجة أرعن. ولكن، لماذا لا نفكر في من ليس لديهم أحد (فوق)، وليس عندهم ما يعطون؟! هذا الأمر جزء أساس من الخلاف بيني وبين الرفاق..

أعرفه حق المعرفة، وأتمثل خصاله ومبادئه، فكيف يخطر في بالي أن أحرجه؟! أعرف موقفه مني، هو يحترمني بلا شك، هل يفعلها من نفسه؟! وهل كان ذلك سبباً في ذهابي إليه ليلة السَّوق العظيم..؟! رغم أنني أخجل من التفكير في هذا حتى بيني وبين نفسي، كلما تذكرت ذلك الموقف. هل هذا ضعف أم خوف، أم قلق؟! كانت أمي تقول:

- ما متّ، ما شفت من مات؟!

بعض الذين يؤدون الخدمة على الجبهة أو في قطعات هامة، لا يحصلون طوالها إلا على بضع إجازات. في حين يخدم عديدون في بيوتهم، أو دور أسيادهم أو مزارعهم. آخرون بنوا بيوتاً وشاليهات، واشتروا سفوحاً من الزيتون وبساتين ليمون، وأقاموا استراحات، واشتروا سيارات.. نتيجة مواقع خدمتهم على الحدود، أو داخل البلد الشقيق!

ارتحت، أو أسقط في يدي؛ بل عجزت عن تحليل ما راودني من إحساس، حين قال دون أن أسأله، قبل أن يذهب إلى عمله في الصباح، وبقلق وحرج بادبين: بعد انتهاء الدورة نرى! في اثناء الدورة بعدها أو قبلها، لا ضرورة أن يرى أحد شيئاً.. قلت في نفسي، غير عاتب أو راضٍ، وبكثير من الاضطراب. وأنا أحضر جواباً أخف وألطف وأكثر أملاً أقدمه لأمي المهمومة.. وأحضر نفسي لملامح لا تكذّبني!

**

-2-

طبق من القش، وبضعة صحون فيها قطع خيار، وبندورة، وحبات زيتون، وزيت.. كأسان، في الأولى أمامه سائل أبيض حليبي ينخفض إلى ثلثها، الكأس التي أمامي ما تزال مملئة:

- اشرب، لا أعرفك جباناً، هذا حليب السباع؟ اسأل والدك!

قلت مسوغاً عدم حماستي للشراب:

- أبي يختلف مع أمي من أجله. يريد أن يشربه يومياً، ونحن نخاف عليه من الإدمان..

ضحك بضجيج، وانحنى ليتناول الكأس:

- ألا يختلف أبوك مع أمك إلا من أجل هذا؟!

وتابع بعد أن رشف قليلاً وتحسسه بتلمظ، وأعاده إلى مكانه:

- لا تخف عليه، ولا عليّ، من عاش مثلنا، شرب من شقوق الصخور المليئة بالحشرات والمخلفات، وعبّ الماء المهدد بالعلق، ونام في الطرقات الوعرة حيث الأفاعي والعقارب والوحوش.. لن يؤثر فيه مثل هذا الداء.

شرد قليلاً، ثم تابع بصرامة:

- بالعكس، أحس أنه صنع من أجلنا.
- ولكن الإكثار منه، والإدمان عليه، يؤديان إلى الهلاك.
- هناك أشياء كثيرة تهلك أكثر، مع ذلك فأنا لا أتمنى أن تعتاد عليه، ولا أشجعك..
- لست معتاداً عليه، بل أشاركك.

أمسك الكأس بيده، وقد استوعب ترددي:

- مشاركة وجدانية أليس كذلك؟! كمشاركة الشعب للقيادة في اتخاذ القرارات..

ضحكت بخجل:

- لا.. ليس إلى هذه الدرجة، ثم أنت لم تعد قيادة، عدت إلى الشعب.
- أنا لم أعد، لأنني لم أبرح موقعي. وهذا ما جعلني أترك غير نادم، أو لأتواضع قليلاً: هذا ما دفعهم لإعفائي من المهام التي كنت أتحملها.
- والمهام التي كنت على وشك أن تستلمها، كما سمعنا، وفرحنا.
- تسمع الكثير، وليس كل ما تسمعه صحيحاً.
- يقال إن الشهادة هي التي حالت بينك والوصول أبعد!

يلم رجله إلى جوار الأخرى، يتربع، يرفع خصلة شعر مبيضة تدلت على جبينه. يأخذ رشفة من الكأس، أحسست بصوتها الضاج. وبدأ تناقص حجم السائل المبيض بيّناً. حدق في وجهي بجدية وأسى:

- الشهادة! ألم أقل لك ليس كل ما تسمعه صحيحاً؟!

نظر بعيداً عني، وبدا كأنما يحادث نفسه:

- لو رضيت لكانت الشهادة الجامعية في جيبي، دون أن أدخل قاعة.. ألم يفعلوا ذلك؟! هل تظن أن شهاداتهم نتيجة جهودهم أو ذكائهم؟! ألم يصبحوا دالات وهم وراء مكاتبهم؟! ماذا يصنع أبناؤهم وأقرباؤهم في الخارج: تجار، محسّنو نسب، مخصبون!!

تصور أن مسؤولاً كبيراً عن التعليم العالي يرد على شكاوى الطلاب في عاصمة أوروبية كان لنا معها اتفاقيات مهمة بقوله:

- لا تفكروا في هذه القضايا الآن، لا تنشغلوا بها، فكروا أن تعيشوا، وتسروا.. غيركم يتمنى أن يكون مثلكم ولا يستطيع. اضحكوا بعبكم!

تنهد أبو نضال بصوت مسموع، اتكأ على الحائط، رفرف بعينيه، في الوقت الذي عاودت الإمعان في ألوان القش الذي حيك منه حامل المائدة.. وفكرت في المسار الذي سلكته القشة، من البذرة إلى الساق وربما البيدر والتلوين والشبك.. ورحت أتصور أمي تضع القشات، تدورها، تشدها، وتربط بين الأدوار حسب الألوان التي ابتاعتها من الشيني المتجول. وفكرت أن ذلك شبيه بمساراتنا، وليست نهاياتنا أفضل..!

رجعت إلى وجهه الذي تضرج بالدم، ما زال شارداً. أحسست بعبء محاولة الحديث من جديد، رغم أني فكرت كثيراً في إمكانية أن أكون عضواً مثلهم، بينهم، كما دعاني المسؤول في المنطقة، وألح في طلبه. فكرت، وربما، عرضت الأمر على مسامع أبي نضال. أذكر أنه لم يشجعني، أو لم يتحمس للأمر، كعادته في الأمور المماثلة.. هل كان في حديثه ذاك يسوغ أمامي ذلك الموقف؟!

رشف رشفة أخرى بعصبية لا تظهر كثيراً. ضبطني أتفرس بحذر، أنظر في ملامحه وحركاته. استدركت الموقف بسؤال كنت أفكر فيه منذ زمن:

- لا أصدق يا أبا نضال أن الشهادة الثانوية استعصت عليك، من كان لديه إمكانياتك، وصبرك، وعنادك، وإرادتك، لا يمكن لأي أمر أن يقف أمامه، حكى لي والدي كيف حصلت على السرتفيكا، والشهادة الاعدادية..

ضحك، بانشراح، ورفرف بأجفانه مرات:

- حكى لك عن "المجنون" أليس كذلك؟!

هز رأسه بأسىً:

- أعذرك إن لم تصدق، المجنون لا يعصى عليه أمر، لكن القضية تكمن في القناعة، لست مقتنعاً بذلك الجهد، أو تلك الشهادة..!

- هل تعني أنك لست محتاجاً إليها، أقصد لم تكن محتاجاً؟!

- منذ بعض الوقت، سألتني إن كانت السبب في مآلي، لا.. ليست السبب ولم أكن محتاجاً إليها، لأن المسؤولية غير المنصب. هل أذكرك برفاق لي صاروا في مواقع عليا، وشهادتهم لا

تزيد عن شهادتي، لم أكن مقتنعاً بأهميتها، لأنها لا تعطي قيمة. الشخص هو بما يحمل من قيم وأفكار ومبادئ وقدرة على التفكير، والأهم من كل ذلك القدرة على السلوك المنسجم مع يفكر فيه، ما يقول، أو يدّعي..

- ولكنك تقدمت إلى امتحانات عديدة.. كما سمعت.
- صحيح، كان ذلك بناء على إلحاح رفاقي، والأهم زوجتي وأولادي.
- وسمعت أنهم كانوا يتفقدون القاعات، وفوجئوا بك، وعرضوا عليك المساعدة.
- قلت لك، ما تسمعه يمكن ألا يكون الحقيقة، أو ليس الحقيقة كلها!
- ألم يعرضوا عليك المساعدة؟!
- وأرسلوا الإجابات، ووعدوا بالشهادة. ورفضت بشكل قاطع، كان ذلك في البداية، ثم ملّوا..!
- ملّوا، أو صار من مصلحتهم أن تبقى من دون شهادة!

يضحك..

- صار من مصلحتهم، أن لا أكون بينهم، أو أن لا أكون..!

أفرغ ما في الكأس في فمه بسرعة، ملأها مرة جديدة بسائلين شفافين اختلطا ليكوّنا سائلاً أبيض متكاثفاً! فكرت من جديد، إلى أي حد يشابه ذلك أبا نضال.. هل صار بياضه كتيماً، بعد الكثير من الشفافية؟!

وهل أستطيع أن أصل معه إلى جوانياته الشفيفة؟!

هل يود ذلك، وإلى أي حد يستطيع؟! ألهذا أحس أنه يرغب في مجالستي، يحتاج إليّ؟! وإلى أي حد أحتاج إليه؟! كنت سأسأله إذا ما كان المجنون قد تعقّل، هل يعتقد أن ذلك حدث أو يمكن أن يحدث. وهل كان مجنوناً حقاً، ويحس بالندم أو الأسف؟! هل هدأت ثورته الداخلية، حماسته، أو ناست طاقته ووهنت آفاقه..؟! لكنه كان منشغلاً هذه المرة بما على الشاشة. ما إن ابتدأت الأخبار، حتى صاح بابنته التي حضرت تواً:

- بدّليه، لا أريد أن أسمع كذباً، حتى المصطلحات صارت مضللة: الشعب، القومية، الجماهير، الوحدة، الاشتراكية الديمقراطية.. الكلام ذاته، والشعارات عينها، والأخبار نفسها. حتى لتحسب أن الزمن لا يسير، والكرة ثابتة عند نقطة الجزاء، ولا تحتاج إلا إلى القذف في المرمى. لكن الأرجل مكبلة، والمرمى يقهقه ويتلاشى، والجماهير التي انتظرت تسجيل الأهداف المحققة، ملت وتركت الملعب منذ زمن؛ أو أن آليتنا تعطلت أمام شاخصات بعينها، ننشغل بقراءتها كل مرة، علّنا نرتاح لأننا قاربنا الهدف، أو نقنع أنفسنا بصوابية اتجاهاتنا، لأن ما من أحد بعدُ يقتنع!!

صعقت من حدته، وكدت أبادر إلى أن أعبر عن ذلك، لكنني توقفت، حين صرخ بابنته التي تقلب المحطات.

– هنا على مهلك، اتركيه، هذا قتل، أريد أن أشاهد العراك، ها.. فريد شوقي ملك الشاشة فارسها. هذا فيلم فيه قتل، ليس قتلاً عميقاً، لكنه صراع بالأيدي، والأرجل، والرؤوس، صراع الشهامة، استخدام الجسم فقط؛ لا تقتل غريمك لا تدمره، لا تمثل به؛ هي مواجهة حقيقية، لا مؤامرات ولا دسائس، ولا حيل، كذب ونفاق.. خصمك أمامك بملامحه المتربصة وعناصره المتوفزة، يحاول النيل منك جهاراً، وعليك المواجهة، ويمكن حين تخمن أنها الضربة المناسبة أن تحذره، ولا تأخذه غدراً، وقد تختلف بين الاثنين ضربتان قاطعتان؛ أحب هذا النوع من الأفلام، تريحني..

شرب قليلاً، ثم صاح بالفتاة التي كانت ماتزال واقفة بانتظار الانتهاء من حدثيه، واستقراره على رأي، أو لسبب آخر:

– فتشي عن فيلم آخر فيه قتل أكثر، أجنبي لا بأس، عربي يمكن.. لا أريد أخباراً، ولا مسلسلات مضيعة للوقت، ومتلفة للأعصاب..

أردت التدخل من جديد، لكن اهتمامه بمشاهد العنف على الشاشة جعلني أرشف من الكأس قليلاً، وأنظر إلى بتول مسترقاً نظرة تلاقت مع نظرة مسترقة أخرى..!!

*

ما الذي يجعل رجلاً مهماً ينشغل بمصارعة حرة أو قتال فردي؟! ينفعل به ويستمتع، في الأوقات التي يفترض فيها أن يركن إلى الهدوء الذي لا يكاد يعرفه في عمله الوظيفي: مراجعات واعتراضات وشكاوى.. رجاء وإلحاح وترغيب وتهديد، اكتظاظ في الطلبات وفوضى من تحت إلى فوق، وغلظة في الأوامر من فوق إلى تحت. وتباين وتناقض وازدراء وتجاهل واستثناءات..لاحظت بعض ذلك، وحدثني بالكثير منه. أما في التنظيم الذي يأخذ حيزاً مهماً من وقته وجهده وفكره، كما صرت أستنتج، فليست الحال أفضل، رغم أن الأمر يفترض أن يكون أكثر يسراً، فالرؤى والأفكار متقاربة أو منسجمة، والتيار واحد، والمبادئ والأهداف استقرت!

يضحك أبو نضال من هذه الملاحظات:

– لا.. ليست الآراء متفقة ولا التطلعات، حتى صرت أشك في أن الأهداف واحدة!

ويضيف بجدية:

– المشكلة في المواقف التي تتذبذب، وتختلف عن التنظيرات المطولة التي تسمعها، والتي يستفيض الرفاق في شرحها وتأكيدها على المنابر وفي الاجتماعات

الموسعة المحتشدة. المشكلة الأساس هي في الإمكانيات المتفاوتة حتى لدى أبناء الجيل الواحد، ومن الصعوبة أن تطلب من المرء أكثر مما يستطيع تأمينه. والمفارقة المضحكة المبكية أنه يظن عكس ذلك، ولا يمكنك إقناعه، لأنه سيثور عليك ويتهمك بأنك تسخفه لتأخذ مكانه.

قلت لأبي نضال:

– .. والنقد والنقد الذاتي؟!

ضحك حتى كاد أن ينقلب على قفاه.

لم يتابع حديثنا في تلك الجلسة التي بدأت تواً، وتمنيت أن تطول، وإن بدا لي أن الجواب وصلني فاقعاً.

اعتذر أبو نضال عن مغادرته لاجتماع طارئ، وما أكثر الاجتماعات الطارئة والأحداث المفاجئة والمنعطفات الخطيرة واللحظات المصيرية في عمر الأمة، كما علّق. خرج كظيماً وعاد كذلك، كما أخبرني نضال بعد ذلك.. ولم يكن من عادته أن يغضب، وقد سألته ذات حميمية:

– أفكر في اجتماعاتكم، كيف تسير؟! وكيف تتصرف؟!

ابتسم:

– مالك ووجع الرأس؟!

– يشغلني هذا الأمر، وأنا أراجع ما قاله والدي عن فروسيتك وتمردك وقوتك، وعدم سكوتك على ظلم أو افتراء.

تنهد طويلاً، ثم قال:

– ما زلت كما أنا!

وحين بدا عدم اكتفائي بالرد، مستمراً في النظر إليه، أضاف:

– أتصرف في الوزارة وفي التنظيم، كما تراني هنا! وقد حضرتني في مكتبي أكثر من مرة.

– ألاحظ أنك تأخذ الأمور بأريحية، وتضحك مع شخص، وتسخر من آخر!

بدت معالم الجد لديه أوضح:

– لا يا عماد.. أنا لا أسخر؛ بل أحاول تهدئة النفوس، وآخذ القضايا على محمل مريح للتخفيف من حدتها.

– لكن هذا قد يزعج الآخرين!

– قد يحدث ذلك في أول الأمر، لكن الحال تتبدل بعد قليل، الكثيرون فهموا طريقتي في التعامل.. لست ابن اليوم، (الدهر كسّر ريشي) كما يقال. الناس يعانون، وأحاول بأسلوبي أن ألطف المشهد أمامهم. ويغبطون لذلك، ألاحظ ذلك لدى المهمومين وحاجاتهم حقيقية، ومطالبهم محقة، وهم الأكثرية، وهم من يهموننني في الواقع. بعض الناس يطلبون ما ليس من حقهم، ويحاولون الحصول على موافقات على مخالفاتهم، أو مسوغات للسطو على مواقع وامتيازات ومشاريع لا يتجرؤون على التفكير بها، لو كانت الأمور نظامية وعادلة، مثل هؤلاء أزيدها عليهم، لكنني لا أسخر، ليس من طبعي. وهم يستحقون أكثر من السخرية.

– ولكنك لست هيناً، كدت تضرب دفاعاً عن الزوفا!

– ليس دفاعاً عن الزوفا، وهي تستحق؛ بل تقديراً لطبيعتنا وأصالتنا وطيبتنا..

– وهل تتعامل بالطريقة نفسها مع الرفاق في الاجتماعات، أم هذا سر لا يجوز أن أسأل عنه؟!

ضحك بانشراح:

– أولاً: هذا ليس سراً، أمارسه حتى في اللقاءات المفتوحة مع الناس، لأن هذه طبيعتي لا أبدلها، وهذا ثانياً؛ أما ثالثاً ونهائياً:

وإذا ظُلِمت فإن ظلمي باسل مُرٌّ مذاقته كطعم العلقم

ليس الظلم الذي يخصني شخصياً؛ بل أي ظلم يلحق بأي كان.

– ألن يؤثر ذلك على الحوار والأفكار التي تتناول صلب الموضوعات، أقصد الطريقة البرّية المازحة؟!

تربع في جلسته:

– ليت الحوارات تبقى في صلب القضايا. فالقضايا الجوهرية تكشف جوهر الناس، لكن الضعفاء لا يستطيعون الاستمرار في تحملها، فينحدرون إلى الأمور الفرعية والشخصية والآنية، وتصبح محاكمتهم للأمور ردود أفعال أكثر مما هي مبادرات خلاقة ومواجهة مصيرية للقضايا الأساسية والمواقف المبدئية.

كنت مشدوهاً من طريقته في الكلام إضافة إلى ما تكلم به من ألفاظ. وقد لاحظ ذلك كما استنتجت من قوله:

– لا تؤاخذني يا ابني.. أنا أستخدم العبارات التي نستخدمها دائماً في الإعلام وفي اجتماعاتنا الحاشدة.

– إذا كان الأمر كذلك، من الذي يخطط ويقرر ويوجه ويعلن؟!

– هذا سؤال لا أستطيع الإجابة عنه.

وأضاف بعد أن لا حظ حيرتي:

– لا.. ليس هذا سراً، ولا أحجم عن الكلام فيه خوفاً، لا أخاف أحداً. السؤال يبدو بسيطاً ومشروعاً، لكنه ليس كذلك، ولا يعني هذا أن أحداً من الخارج يملي علينا، أو أن أحداً يفرض رأيه بالقوة، لا.. لكن في هذه المجموعة من المسؤولين تنتج قرارات كهذه. حسب التربية والمعاناة والإمكانيات والظروف.. لو كانت مجموعة أخرى، ربما كانت القرارات تغيرت، وليس بالضرورة نحو الأفضل، ربما كانت أسوأ.

لم أسأل، أطرقت قليلاً، ثم تطلعت إليه، وهو ينظر إلي، تجرأت وقلت:

– وأنت.. يا أبا نضال؟!

– أعرف أنك تفكر في ذلك. ليس الانسحاب هو الحل، إذا انسحب جميع من لهم موقف مخالف، سينفرد الآخرون بالموقف والقرار. يفترض أن لا نخلي الساحة.

– ولكن كل شيء محسوب عليكم جميعاً، وأنت من مسؤولي المرحلة.

– أنا لا أنكر ذلك، ما زلت أرى أن المشاركة ضرورية، وهي إن كانت غير فاعلة، فإنها مؤثرة بشكل أو آخر.

وتابع بعد أن تابع إنصاتي المتسائل:

– أنا لا أسبب الأذى على الأقل، وأجعل الآخرين يفكرون أكثر في وجودي، إزاء أي أمر أو إجراء.

توقف برهة، ثم أضاف:

– لكن لكي شيء نهاية، واحتمالي ليس بلا حدود.. أنت تعرفني.

واستطرد بعد تلكؤي في التعبير عن أي شعور:

– أنا هين لين في الكثير من الحالات، وأطرح رأيي وأشرحه، وأدافع عنه وأحصنه. ولكن حين يستدعي الأمر، لا أحد يوقفني عن اتخاذ القرار، والمواجهة بأية طريقة.

توقف قليلاً ثم تابع:

– على فكرة، ليست المواجهة العنيفة بطولة، ولا الهدوء في الجواب ضعفاً؛ على العكس من ذلك، الضعيف هو الذي يمارس العنف، هو الذي يضرب، يقتل، يمثل بالجثث.. لأنه لا يستطيع الإقناع بآرائه وأفكاره، حتى لو كان مقتنعاً بها، وبالتالي يحاول فرضها بالقوة، والقوات أيضاً، ويزيح من أمامه خصومه إلى الهاوية.

واستطرد وأنا أتابعه منتشياً، وقد بات مأخوذاً بالحالة:

– القوي هو الذي يملك رأياً صريحاً يتبناه، يشرحه، ويدافع عنه، ويمارس ما ينسجم معه، ولا تناقض بين ما يقول وما يفعل؛ هنا يمكنه أن يجمع حوله الكثيرين الذين يحصنون موقفه وموقعه، وقد صار قوياً بهم.

تدخلت بلا تردد:

– وقد يخدع بمواقفهم الحقيقية أيضاً.

– الانسان ليس كائناً آلياً، إنه كيان حي له علاقاته وأقاربه ومشاعره وعواطفه وميوله، وله حساسياته ومصالحه.. وبالتالي لا يمكنك الارتهان إلى موقفه إلى ما لا نهاية. وعليك أن تكون قادراً دائماً على تمثّل رأيك وتدعيمه، وتحصين نفسك للدفاع عنه.. مهما كانت قوة خصومك، فإن ثباتك وصمودك وإصرارك ستجعلك فائزاً في النهاية.

– وقد تخسر كل شيء، وحياتك أيضاً.

– وهذا فوز للموقف الذي سيستفيد منه الآخرون الذين يتخذونه رمزاً ومثلاً، فيتمسكون بأفكارهم ويدافعون عنها، فلا تموت القضية.

أشرت بيدي إلى الجدار:

– وهذا ما يجعلك تعلق صورة هذا الثائر!

– في الواقع.. نضال هو من علق الصورة، أنا لا أحب مثل هذه المظاهر، أو لا أعلق عليها الكثير من الآمال. لكنني احترمت رغبة نضال في ذلك، كما احترمت رغبة أخيه في تعليق صور أخرى مغايرة.

كنت أعرف أنه يقصد صور الممثلين والفنانات، تجاهلت ذلك لاستكمال الحوار الذي يغذيني:

– ولكن هذا المناضل انسحب من المواجهة مع رفاقه في الثورة، ماذا تعد ذلك؟!

– المعروف أن الثورات كالقطط تأكل أبناءها، وهذا أمر طبيعي؛ إذ يكون المشاركون من شرائح مختلفة وبإمكانيات متفاوتة، وربما تختلف أهدافهم، ولا بد من أن تتواجه المواقف والأفكار والمصائر أيضاً في فترة استلام المسؤوليات، وتنفيذ الوعود والأهداف التي ينتظرها الناس بلهفة. ولا تنس أنه حين ينبثق النبع يكون حزمة متدفقة، ثم لا تلبث أمواهه أن تتشعب حسب الوعورة والعثرات والانحدارات، لكنها بعد حين تستقر في مجرى واحد، يضيق أو يتسع. وانسحاب هذا المناضل الملتحي لم يكن هروباً من الموقف أو تراجعاً عن المبادئ، أو توقفاً عن الكفاح؛ بل ذهب إلى مكان آخر

لاستكمال نشر المبادئ التي آمن بها، صحيح أنه ذهب ضحيتها، لكن أفكاره ما تزال مستمرة، ويذهب ضحيتها آخرون أيضاً.

بعد توقف قصير، شرب قليلاً مما في الكأس، ومن دون أن يهتم بعدم شربي، ولا بملامحي المنتظرة، أضاف:

- أوضح الأمر أكثر: كيف كانت الحال في فيتنام؟! هل خسرت القوة الغازية معركة مواجهة واحدة إذا ما فكرنا بالدمار والخراب وقوة النيران والأسلحة المستخدمة؟! لكنها خسرت في النهاية كل شيء، لأن في مواجهتها مناضلين مؤمنين بقضيتهم، ويعرفون إمكانياتهم وطبيعة بلادهم وعناصرها وكائناتها، واستثمروا ذلك خير استثمار، فكانت لهم الغلبة. الأمر كذلك يمكن أن ينسحب على الحال عندنا؛ فمواجهة محتلي فلسطين الذين يملكون كل أنواع السلاح القادر على القتل عن بعد تكون بالمواجهة عن قرب، وهذا ما يخافه الاسرائيليون. والفوز النهائي لمن يملك الحق والأرض والإرادة.

ضحكت:

– تتكلم كالمعلق السياسي في الإذاعة والتلفزة، كما يقول الإعلام الذي لا يعجبك!

– لا يعجبني.. صحيح، لأسباب وأسباب، لكن الكلام الذي يقوله ليس مجافياً للصواب أو نسبة كبيرة منه، وهناك مبالغة واستطراد، وهنا تكمن المشكلة الأساسية؛ إذ إننا نضيع التفاصيل الأساسية في الحديث عن المشكلة الكبرى، فيغدو الكلام المدوي طاغياً، وهو ما لا يقنع. الحديث الهادئ بالوقائع والشواهد والممكنات والحلول.. هو الأساس الفعال. وعدم قناعتنا بأسلوب الإعلام لا يعني عدم اقتناعنا بالقضايا التي يثيرها، والحقوق التي يفترض أن ندافع عنها.

*

رحت أفكر في فلسفة القوة والضعف، وأراجع الكثير من الحوادث التي وردت في كتبي الدراسية، ولم أتوقف عندها طويلاً في أثناء تحضيري للامتحانات، الهم الأساس الذي كان يلح في غمرة معركتي بين البحث عن لقمة العيش، والسعي لنيل الشهادة. فجميع الثورات ضد المحتلين بدأت بأفراد قلائل وإمكانيات بسيطة، ولو فكر المقاومون بالتباين بين ما يمتلكه كل طرف من قوة في العتاد والسلاح، لما كان لهم سبيل إلى الاستمرار أو نصيب في الاستقلال.

إن القادة التاريخيين الذين فظعوا وقتلوا وخربوا لم يكونوا أقوياء بل جبناء استعانوا بالقوة الآلية والقتل والضعف والأعوان والجواسيس والجلادين والمرتزقة ليحاولوا السيطرة؛ وهم ضعفاء.. ما أن ينهار جزء من أسطولهم، ويخسرون معركة حتى ينهزموا، وتبقى الأرض لأصحابها.

***

الفصل الخامس

-1-

فكرت طويلاً في ذلك النفور الذي أحسه في ملامح ثائر، الذكر الثاني لأبي نضال، دون أن أجد تفسيراً معقولاً. كنا في عمر متقارب، لكن التفاهم فيما بيننا بدا صعباً. لا أحب أن أظلمه، فحاولت التقرب منه مراراً. لم يكن يجالسني طويلاً في غياب والده، وسرعان ما يظهر التبرم على حركاته، وترتفع نبرة صوته بنزق إن تكلم راداً على أسئلتي التي لم تكن متطفلة ولا كثيفة، زاعقاً في وجه أختيه أو والدته، إن بدر منهم أي سؤال أو حديث حتى لو كان عن أبيه..

كان يمكن أن أفهم الأمر على أنه اختلاف في وجهات النظر، لو أننا تبادلنا الآراء والأفكار ملياً؛ لم يكن يسمح بذلك، ولم يكن يحظى باحترام والده الذي يحترمني، هل هذا هو السبب إذن؟! وما ذنبي أنا في ذلك؟! وماذا أفعل إذا كانت الجامعة بالنسبة إلي واجباً علي أن أنجزه بأسرع ما يمكن، في الوقت الذي تتطاول سنواته الجامعية حتى تكاد تنقطع!

أخوه استطاع عبور العتبات الجامعية بعكازيه بأسرع مما كان يُتَوَقَّعُ ممن حاله كحاله، وليس هذا السبب الوحيد الذي يجعل الجميع يحترمونه؛ بل ملامح الرضا التي لا تفارق وجهه، والكلام الهادئ الذي لا يغلظ حتى في أكثر الأوقات عسراً وعثرات..

ولا تكاد ثورة تختلف عن أخيها ثائر في تبرمها وتذمرها من الحياة وقسوتها، ومن البيت وأوقاته العصية، ووالدها الذي لم يؤمن لها وظيفة محترمة رغم أنها تجاوزت الثانوية بشق النفس، فنقلت من معمل إلى معمل، ومن مهنة إلى أخرى.. دون أن تجد مستقراً، ودون أن تتوقف عن الشكوى.. ما الذي جعل والدها المسؤول البارز في التنظيم ينكفئ إلى نفسه، ويعتكف في البيت، فتبتعد أحلام المسؤولية والزواج المدروس بعد أن كاد يتحقق! ولكن مَن مِن أبناء المسؤولين يرضى أن يرتبط بابنة قيادي مخلوع؟!

هل تحمّل أمها تبعات مصيرها القاتم؟! لماذا لم تسعَ من أجلها؟! لماذا لم تقنع أباها بأن العناد لا يطعم خبزاً، وأن الدنيا لا ترحم القانعين بكفاف يومهم، وبيض وجوههم.. كذلك كان رأي أخيها ثائر الذي قال مرات: لم يرد والدك أن يريق ماء وجهه، وتركنا نريق أعمارنا في أخاديد الحاجة ومهاوي الرغبات.. انظري إلى من كنا وإياهم في مرحلة واحدة. يركبون السيارات اللامعة، يخفون وراء نظاراتهم السوداء عيوناً لا تود أن ترانا، وهذا أفضل لنا من أن نحس بالخجل، أو نطرق رؤوسنا كيلا تصطدم بزجاج سياراتهم العاتم، تاركين أمر تقدير ما وراءه للتحسر والتشهي..

أما بتول، فقضية أخرى، مختلفة تماماً. "أحس أنها أقربّ إليّ من الجميع"، يقول والدها، فأصمت، دون أن أوافق، متكتماً عن حال تود تأكيد ذلك، مضيفاً لو قدر لي التعبير: وألذ وأعذب.. ربما!

لا تشكو، ولا تحتاج إلى مساعدة أحد، ولا تنتظرها، ولا تبخل في تقديمها إلى أي كان من أهل البيت أو زواره، على ما أعرف في أدنى تقدير. وكان حضورها يملأ الوقت غبطة، والفضاء

حبوراً، أما غيابها فيضيّع السموت أو تقديرها، ويجعل الكثير من العناصر والتفاصيل بلا معنى.. على الرغم من عدم جلوسي الطويل في حضرة أي من أفراد البيت الذين يكبرونها جميعاً، ويتوقف الكثير من عبورها حيّز وجودي على الطلبات التي يحتاج إليها الضيف، أو التي يأمر بها أخواها ثائر وثورة، إثباتاً للتراتبية والشخصية. أما الوالد فيناديها من دون حاجة، فيلقي طرفة، أو يداعبها بابتسامة أو ربتة، أو شدة شعر .. فتتحرك بغنج واستحياء يضاعفه حضوري، وتتّطلع ناحيتي بشبه اهتمام.. أبادلها الاستلطاف الباش، الذي سرعان ما يتبخر لدى خروجها، وعودة الحديث إلى سابق جديته.

لم يكن وجود الوالدة ليؤثر كثيراً في اختفاء أي معنى مميز، رغم أن في غيابها راحة تتحسسها لدى البنت الكبيرة وأخيها ثائر، ووالدهما الذي تكاد كلماته الموجهة إليها أن تقتصر على الأسئلة التي تتعلق بالأولاد والطعام وشؤون البيت، تلك التي تضمر تأنيباً، ولا تتوقف إجاباتها على ردّ الإهانة المبطنة بنبرة مقرّعة أو انسحاب نزق.

كنت أحس بهذا، وأنقبض من أجلها، رغم أنني أحاول أن أفسر حياديتها بإيجابية سرعان ما تفتقدها، فتترك سلبيتها أثراً تضاعفه مختلف النتوءات التي تتكاثر في فضاء البيت الذي تلتقي فيه الأماني والرغبات والخيبات، وتتوزع بإيقاعات متباينة في جهات مختلفة.

هل كان وجودي الذي يقصر ويطول يفاقم الحالة؟! هل كان يرجح الكفة في اتجاه، فتثور الجهات الأخرى؟! وهل كان عليّ أن أنسحب أم أتجذر؟! وقد انتهت الجامعة، وتباعدت المسافات والأسباب، وتعذرت فرص التعيين، وخلت قوائم الناجحين في المسابقات من اسمي؟!

وعدني بالمساعدة، وبذل جهداً، أحاول أن أصدق رغبته، رغم أني أعرف أن هذا لا يدخل في مستوى تفكيره، أو قناعته، لكن من يرد على مسؤول كان؟!

وكيف يمكن أن ترضى بتول بعاطل عن العمل؟! وهل يرضى أهلها؟!

لهذا لم يكن أمامي الكثير من الخيارات؟! ولا الكثير من التفكير!

في واحدة من الزيارات؛ قعدت أنتظر أبا نضال لعل وعسى، كانت ملامحها متوترة، وحركاتها متشاغلة... ورغم وجود نضال الذي لا يكثر من الطلبات وحديثه الرضي، استطعت متابعة الكثير من التساؤلات في عينيها الحزينتين؟! ولم أكن أستطيع الإجابة بيسر!

**

-2-

لم تكن الإجابات ممكنة، ولا مطمئنة، والأسئلة لم ترحم. لم يكن ليخفف منها تحاشي النظر إليها خجلاً، واحتراماً للرجل الذي أكرمني، والبيت الذي استضافني، رغم أن النظر لا يفسد مودة، إن لم يكن يقوّيها، إلا إذا كان عليك أن تتبع عادة أهل المدينة، فترسل الخطّابة لتبحث لك عن فتاة أحلامك المحصّنة داخل الأسوار المتعالية، وفي أحسن الأحوال تتولّى أمك تلك المهمة

العصـية، فتبـالغ فـي تقبيـل العـروس المنتظـرة لتكتشـف روائحهـا، وتعنـف فـي ضـمها اختبـاراً لأعضائها وقدرة تحملها، وتسألها بصوت خفيض لتكتشف مدى قدرتها على السماع، وتختبر إمكانياتها الصوتية في الرد والأسلوب والأداء والكفاية.

كنت تسمع تلك الأحاديث، وتضحك طويلاً. يقول أبو نضال: كأنك تشتري بضاعة أو عفشاً، أو كائناً للحلب والولادة.. كما كنا نفعل منذ زمن بعيد لدى الرغبة باقتناء بقرة أو غنمة أو معزى..

تخفف أم نضال من وقع ذلك:

– لو كنت سأنتظر حضور أمك.. لما تزوجنا!!

يضحك بانفعال مبالغ فيه:

– أنا لم أكن لأرضى..

ويتابع قبل أن تفعل بما يمكن أن يصعّد الموقف بما لا يسر، وقد همّت:

– وأنتِ أيضاً، نحن شكل ثانٍ.

يضحك.. بارتياح:

– تصوري نفسك ذاهبة لطلب عروس لابنك!

واستطرد مخافة أن يفسر كلامه خطأ:

– أقصد لأيٍ من ابنيك! وهو لا يعرفها ولا رآها!

قالت بحزم:

– مع ذلك، لن أقدم ابنتيّ رخيصتين!!

تململتُ، وقد أحسست أن الجو تعكر.. ويمكن أن يتطور في غير صالحي، ربما هجس أبو نضال بذلك، فقرر الدفاع في جبهة أخرى:

– وهل كنت رخيصة يا بنت الأكارم؟!

انتفض رأسها:

– أقصد أني تزوجت من دون أن أحصل على ما تحصل عليه العروس عادة!

– لا تنسي أنك لم تطلبي!

– هذا صحيح، ولكن هذا لا يعني أنني لا أرغب به، أو أشتهيه!

نظر إليّ، كنت أتابع الحوار بترقب وقلق:

– غريب حال النساء، حتى الأمر الذي يمكن أن يكون في صالحهن لا يرضين به.

تأففتْ، قالت وهي تحاول النهوض:

– هذه حالي معك، لا تحب أن تسمع مني غير ما تريد؛ أنا أقول الحقيقة، حقيقة مشاعري.. هل هذا حرام؟!

– أنت تعلمين أن ما يزيد من احترامي لك اقتناعك بالقليل، ورضاك بالعيش عندي وليس لديّ الكثير..!

انشرحت ملامحها. خطت خطوة ثم توقفت. نظرت إليّ، ثم إليه وقالت:

– يعني، أنت تحترمني؟!

– وهل تشكين في هذا؟!

– أحياناً، أراك غير مهتم بي، بوجودي، بأسئلتي وطلباتي، برأيي.. الأوقات التي نقضيها معاً ليست كثيرة، مع ذلك لا ألاحظ اهتماماً منك، اهتمامك بنضال واضح، وحنانك لبتول لا يخفى!

– لا.. لا تظلميني يا أم الأولاد! إذا لم تقدر زوجتي وأم فلذات أكبادي ظرفي، من يمكن أن يفعل؟! ولا تنسي أنهما ابناك، وأنا لا أفرق بين الأولاد ولكن هذا يعني أن الولدين يهتمان بوجودي، ويسهران على راحتي..

– وأنا، ألا أستحق أن تقدر جهودي، ويكون وجودي محلّ احترامك واحترام أولادك؟! يجب أن تقدر بقائي الدائم في البيت، مع الأولاد، أؤمن طلباتك، ولا أترك لك شيئاً ينقص؟! ألا أستحق؟!

التفتت إليّ تستنجد بي، وهل أستطيع النجدة؟!

– أنتما على الرأس والعين.. وأعتز بوجودي في هذا البيت الكريم، وأرجو أن تسمحا لي بالذهاب!

قال أبو نضال بتوتر باد، محركاً أجفانه رافعاً غرته:

– لا.. لا يمكن. أنت صرت منا وفينا، ولذلك نعيش حياتنا بحضورك كما هي!

نظر إليها يستحثها على قول شيء إيجابي:

– أليس كذلك يا أم نضال؟!

أجابت وهي تنهض:

– نعم.. هذا صحيح!

لم أفهم عبارتها جيداً، فقد كانت قرب الباب، ولست أدري إذا ما قالت بعد أن عبرته كلاماً آخر قد يكون مختلفاً!

**

-3-

... وكيف تداري أسئلة الرغبة التي تلح هي الأخرى، كلما فكرت في الواقع الذي يتمدد انتظاراً شوكياً، ويتقارب حصاراً وعجزاً، ويتبدد حاجات ورغبات، وأحلاماً تنهزم مدوّمة بصفير يحزّ على

الأعصاب، حتى لتكاد لا تنقطع الأسئلة القارسة، تنهمر على رأسك العاجز عن الثبات، تهزّه، أو يهتز تحت وقعها، أو بحثاً خائباً عن أجوبة قادمة!

تنظر إلى جانب الحافلة، في رحلاتك المتقطعة خلال الدراسة الجامعية، فترى الأرض جرداء، تخصب بأشكال سيقان السفوح وأفخاذها الملساء، تتقارب أو تتباعد مقبلة مدبرة، راسمة ما توشيه الرغبة بملامح مغرية، وتفاصيل مشتهاة.. تنشغل بهذه الأشكال، وبالهضاب التي تشي بمؤخرات عارية، تنحدر منها موارد البهجة، المتخيلة، والمتعة المنشودة. ترتفع بناظريك أكثر، فترى الحواف الصخرية المتأهبة للانقضاض بعد ما أتت عوامل كثيرة على ما يحمي جذورها في الذرى العنيدة، فتطأطئ قبل أن يصيبك جلمود صخر يوشك أن يهده القنوط والانتظار من علٍ، وقد لا يتوقف في مكان ما من المنحدر، كما هي حال الكثير سواه في أزمنة ماضية.

هل تخاف ذلك حقاً أم تتمناه؟! ولكن ما ذنب ركاب الحافلة الآخرين، حتى تصيبهم بلواك؟! ربما كانوا أكثر منك خيبة، لكنهم ينسحبون من المواجهة، وسيكملون المشوار.. هل أنت خائف من هذا؟! لست أقل منهم شجاعة، ولا أكثرهم تفاؤلاً.. ربما!

تستطيع أن تعيش أوقاتاً طويلة مع الرغبة التي تتوارد على مخيلتك الخصيبة تهيؤات وملامح تُستحضر من أقوال وحكايا، ونكات فاضحة لا يبخل بها الكثيرون، كباراً وصغاراً، إناثاً وذكوراً في السر، كما لا يخلو العلن من الحديث فيها وعنها، في المواقف، في الكراج، الحافلات، السوق.. أما الخدمة الإلزامية، فما تكاد أوقات الراحة المقتضبة أن تفتقدها في الأحاديث العادية، حتى تتفاقم مبالغات في الشتيمة والقذف المتواصل للحالة التي تعيشون، والساعات والأيام التي لا تعدّون..!

تزدحم وحدتك بها، وتؤرقك حين تلح، ويلح العمر والسنون. تستذكر أقوال أبيك، ومرارة أمك وأخبار زملائك الذين استقرّوا باكراً، وصار لأولادهم فضيلة المشاغبة التي تخفف من دوي الضغوط، وضجيج الحركة في اتجاهات مختلفة، ليس الكثير منها مشرقاً. لكنهم مقتنعون، صاروا مقتنعين، أو تظاهروا بالقناعة بأن الحي أفضل من الميت، وسرقة السارق ليست حراماً، وليس مال الدولة محرّماً، ولا يشكل تهريب بطارية أو بطانية أو مصباح كهربائي كارثة قومية أو إنسانية، أمام الكوارث التي تكاد تطيح بنظام الأسرة الذي لم يعد يقبل بالقليل. فالزيجات لا يمكن أن تُعلن وتبارك إلاّ من خلال المقاصف والموائد والأصوات المرتفعة لتمنع المدعوين من الكلام والسلام.. في حضرة الهزّ والرقص ومشاهد (التلبيسة) التي تطول على وقع آهات الدافعين وتلمّظ القابضين!!

حتى أن الأسرة بذاتها صارت عرضة لاحتمال عدم التشكل إلا لدى شرائح معينة في الأدنى أو الأعلى.. أما أصحاب الشهادات الذين ينتظرون القدر كي ينصفهم، فليس أمامهم إلا القلق

والتوتر والاكتئاب، وسوى ذلك مما ينتجه العجز وتبعثه الخيبة ويسببه اليأس. كنت تخشى تلك الأوقات، لكنها لا تخلف الميعاد، ولا تتورع عن التهشيم والرص والرعش والانطفاء..!

**

-4-

"أعرف، كنت أحس أن لنظرات بتول معاني خصبة، وآفاقاً من السحر والاخضرار، وأعماقاً من الزرقة الشفيفة.. ولصوتها إيقاعات لا نهائية من أصداء الهطل العزيز والاخضلال..

يتكاثف كل ذلك، ويتعاضد، حتى يصبح واحات في عمق الصحراء التي تلفني، ويتفرع ويتشعب إلى دروب بهية مورقة الشجر المجانب، مزهرة الضفاف التي ترافق المسير الرقراق لنهر قد يجري.. في بقاعنا الجديبة، وربوعنا العطشى.."

تفكر في ذلك، كنت تفكر كثيراً، وأنت في قلب اللجة، رهناً للأوامر التي تدق رأسك، وعرضة للخطر الذي يمكن أن يدهم في أية لحظة، ومن أي جانب، وشاية أو شكوى أو نزوة من زملائك أو رؤسائك أو المقربين منهم من مرؤوسيك..

إن خطأ واحداً في إيقاع الأقدام التي (تستريح) أو (تستعد) سيودي بك، ويحرم أفراد طاقمك كل المكتسبات التي تجعلكم على قيد الحياة في حدها الأدنى.

فما بالك بالأخطاء الأخرى، والأغلاط التي لا يمكن المصالحة عليها، فيما لو وقعت، فعليك أن تفترض واقعاً حربياً قادماً لا محالة، تكون فيه مثل هذه الهفوات قاتلة.

تضحك، تحاول، وأنت تذكر عنترة الذي تذكّر عبلة والرماح نواهل منه، وبيض الهند تقطر من دمه، هلا رأيتها مع فوهة المدفع، أو مرايا العربة المدرعة.. أو شاشات الملاحقة، وأزرار الزناد؟! وهل وددت تقبيل تلك الأشياء التي تألقت كثغرها الجميل وعينيها الأخاذتين وشعرها المثير؟!

لو فعلت، لم تكن لتلام، لأنها تستحق.. والمكان الذي يدخله أي ملمح منها، أو يرتسم فيه، يهل يشع يطوف.. يغدو عزيزاً. ألم تكن تسارع إلى استقبالك ببسمتها التي تزيل عنك كل ما علق بجسدك وثيابك وعقلك من غبار وأسىً وقتامة؟! ألم يكن لخطوها الواثق، وقامتها الرشيقة، وحركاتها المترعة بهجة وغبطة، القدرة على مدّك بشحنة تستحوذ على تفكيرك زمناً يتواصل حتى بعد انتهاء الإجازة الساعية، أو المغادرة التي لا تتجاوز الساعات المكملة لليوم، والتي لا تكفي للوصول إلى القرية والعودة دون إبطاء؟! التأخر جريمة، والتخلف عار، والعقاب قارس.. فالوطن على المحك، والمستقبل على كف عفريت، والبقاء مرهون بهذا الانضباط والاستبسال والاستعداد الدائم، وتلك الحميّة واليقظة والمسؤولية التي لا تنوس، ولا تذبل..

لم يكن لأختها القدرة على مجاراتها؛ ثورة التي لم تكد تخرج من علاقة فاشلة مع أستاذ، سرعان ما اكتشف هشاشتها، حتى وقعت في بركة ابن أحد زملاء والدها، قبل أن يغيب خارج البلد تهرباً من جريرة تهريب، أو استمراراً لها. هل كان ذلك سبب غيرتها من بتول، أم أن تلك الغيرة سبب في ما جرى لها، وهي تحاول مرة بعد مرة منافستها..؟! أنت لم تستطع أن تجامل كثيراً، ولم تفعل الكثير حتى من أجل بتول. لكن ثورة كانت قادرة على فرض حضورها الأنثوي، الذي لم يكن بلا جاذبية أو إثارة، وخاصة في إقبالها الواقعي، وإدبارها السخي، وفي انحناءاتها المرنة أو جلستها الرحبة.. ولا سيما في غياب الأب الذي يعطي الأمان لأوقاتك، والمسوغ للحضور الربيعي لبتول.

كنت تحس بتلك المنافسة التي تجعلك في مواجهة أخرى ليست سهلة، ولا مضمونة العواقب، على الرغم من ثقتك بالنتيجة التي تبدو نظرية. أما التنفيذ فيحتاج إلى ظروف أفضل وشروط أكثر يسراً وأماناً، وهي ما تكاد أن تفتقده في المدى المنظور، وهذا ما يجعل في حركات ثورة وثائر فاعلية يمكن أن تؤثر على ما يلي من أحداث. المواجهة ذاتها، كنت تحسها بين نضال وأخيه في الحضور الفاعل والمفتعل، ولكنها ليست في خطورة المواجهة الأنثوية وإثارتها؛ فذكوريتها تجعل صخبها طاغياً، وتترك ردود أفعالها ضمن المدى المجدي للإصابات المؤثرة..

من كانت تصيب؟ لمن كانت موجهة؟!

لم يكد يسلم منها أحد في البيت أو حتى زواره.. عصوا نضال، وعجزه، آلة خياطة ثورة وعنوستها، كتب بتول ومرآتها، تاريخ الأب، وَعوده الذي كاد أن يغبرّ، وربما صوته الذي بدأ ينوس أكثر. على الرغم من إصراره على التهدئة والاستيعاب والتفهم والتسويغ، مدارياً هزائم أخرى أبعد وأعمق، وخيبات متكررة على نطاق أوسع، وإصابات لن يستطيع الزمن مداراتها، وإن تقاوى عليها، كما فعل مع الكثير سواها..

**

-5-

ذات وقت، وكان ثائر مضطراً لمجالستي، تفرس في وجهي وبدلتي ملياً، ثم قال:

- ألم تحرروها بعد؟!

تجاهلت تعريضه، مبدياً الكثير من السذاجة:

- ماذا تقصد؟!

كأنما فوجئ بالجواب السؤال، فقال:

- أقصد.. أقصد.. القضية!

بالغت في التجاهل:

- أية قضية؟!

– القضية.. القضية التي تحاربون من أجلها، القضية التي فلقتمونا بها، أفقرتمونا من أجل عيونها، قتلتم أحلامنا في الطريق إليها، غضضتم السمع عن آهاتنا؟! لماذا أحضرتمونا إذن؟! لماذا وعدتمونا بالحياة الكريمة، والعدالة، وتحقيق المنى والأحلام؟!

وجدت نفسي محاصراً باتهامات، لا قبل لي بها، ولا أتحملها؛ بل كنت سأقذفها في وجوه آخرين، لو قدر لي ذلك، لو تجرأت، أو أمكنني تحديد المسؤولية عنها. لا أحب أن أظلم أحداً، بالقدر الذي لا أرضى بالظلم، أو أستسلم له، لو قدرت لي ظروف المواجهة. لم تكن الوجهة صائبة إذا ما كنت المقصود. ظني قال غير ذلك. هل كان يخاطب والده؟! لم يكن أبو نضال فظاً مع أولاده، كما عهدته، ولم يكن ظالماً. لم يدّع التفوق، أو يظهر عقد السلطة عليهم، كما يفعل الآخرون، وكما يقول هذا الـ ثائر! لا أستطيع تأكيد مشاعره. أتفهمها، وأتفهم تلك العلاقة التي تجعل الابن متباعداً عن أبيه، منافساً له، متهماً إياه بما يعجز عن تحقيقه.. أعرف زملاء لي يحمّلون آباءهم مسؤولية خروجهم من المدرسة؛ يقولون: كان عليهم أن يجبرونا على المتابعة مهما كانت الأسباب!!

وهم يفعلون، الكثيرون من الآباء الأميين لم يكن من همٍّ لديهم أكبر من أن يتعلم أبناؤهم. والدي أقرب مثال!

أما الأبناء الذين يولدون في أسر يمتاز الوالد فيها بمكانة ومسؤولية وقيمة في المجتمع، فإن الأزمة أكبر. الإحساس بالعجز يزداد، والحضور الاجتماعي يتطلب تمايزاً عن حال الوالد. هذا التمايز الذي لا يأتي بسهولة، فأهمية الابن من أهمية والده، وهيهات أن يفترقا! ثائر لم يكن مميزاً، أبوه لم يميزه، لم يؤمن له أو لأخوته ما يوفره المسؤولون لأبنائهم، لم يشرّع له الخروج عن المألوف، باللباس أو السهر أو المال أو السيارة.. لم يكن يملك، ألهذا لم يشجعه على مثل ذاك السلوك؟!

حتى لو كان يملك، لم يكن ليفعل. كان يمكن أن يهيئ لابنه السبل تلك لو كان يريد، يرضى، يقتنع. لكنه مختلف عن باقي المسؤولين، هذا الاختلاف لم يكن يروق لابنه، لابنته.. زوجه اقتنعت، استسلمت، أو خابت، لا يهم.. كما يقول نضال، ويتابع:

– هي ترضى بسهولة، أمي تسلب قلبي، أراها، أتحسس مشاعرها التي يظنها الآخرون، والدي وأخوتي، تبلدت، لا يعيرونها كبير اهتمام.. تعمل كالآلة التي لا تشعر بقيمتها إلا إذا توقفت.. لا سمح الله!

يتوقف برهة، ثم يتابع عرض الحال الأسروية الخاصة، بوحاً عزيزاً علي، بقدر إحساسي بالثقة التي أولاني، وبأنه يرتاح لما يقول:

– ثائر أُشفِقُ عليه وعلى أخته ثورة.

تختلف نبرته فجأة:

- تصور؛ يغار مني، هل تصدق؟!

ينظر إلى نفسه بتساؤل واندهاش:

- قل لي يا عماد، أصدقني القول: هل أنا من يُغار منه؟!

يتابع بعد ما لم أجب مشغولاً بكلامه المؤثر:

- كان يمكن أن أغار، أعتقد أن الكثيرين يسوغونه إذا ما حصل. لكني أشفق عليه من غيرته، عجزه، نشازه. وأشفق على أبي من غلوائه، ومن هوايته في التمرد عليه، والتهرب من الجلوس في حضرته، كحال ثورة.. يحمّلان والدي مسؤولية فشلهما، أنا لا أحمّله أكثر من طاقته، وهو يعمل!!

أحس نضال بالرضا، بدا ذلك على ملامحه، حين قلت:

- طاقتك محل احترام، إمكانياتك مقدرة، وصبرك وجديتك وإصرارك خصال تغبط عليها، كيلا أقول تحسد! منهم من يحسدك!

- حتى على الموت لا أخلو من الحسد!!

يضحك باصفرار، وأضيف بجدية لا يفوته معناها:

- لا.. أنت مثار تقدير واعتبار، لك مكانتك وحديثك وحضورك وأفكارك ومبادئك..

يسارع لإكمال قولي، متابعاً بالجدية ذاتها:

- ولي عجزي ووحدتي وعكازاي..

وأتابع بالوتيرة عينها، كي نتجاوز أصداء مفرداته:

- وأبوك وأخوك وبتول.. وأنا..

خجلت حين وضعت نفسي إلى جوار بتول، حاولت أن أتدارك الأمر:

- أقصد..!

- لا.. لا تنسحب، أعرف مقدار حبك لي واحترامك لأهلي.. وأعرف مقدار احترامهم لك. وأنا أيضاً أعدّك صديقاً حقيقياً.. وأخاً لم تلده أمي. ألا تحس بذلك؟!

فكرت في هذا الحوار، وأنا أسمع كلام ثائر الذي راح يحمّلني سوءات الدنيا كلها، وربما توصل إلى أنني سبب خطيئة آدم ونزوله إلى الأرض!

لم يكن باستطاعتي مواجهته، لا أريد هذه المواجهة الخاسرة سلفاً، وقررت الخروج بأقل الخسائر.

هممت بالنهوض، لولا دخول بتول التي سمعت حدة الصوت، ولم تسأل عن السبب والموضوع؛ بل سألت:

- هل ناديتني يا أخي؟! ماذا تشربان؟!

قال ثائر متابعاً:

– ألا يكفي أننا نشرب السم ونقتات العفونة، ونعيش كالأشقياء المحكوم عليهم بالبؤس المؤبد!!

تجاهلتْ كلامه، وتوجهت إلي بالسؤال:

– ماذا تحب أن تشرب يا أستاذ عماد؟!

أثارني صدى اسمي مبثوثاً من شفتيها، لكن الظرف غير مناسب، فأسرعت إلى الإجابة قبل أن تنهمر السهام المسمومة:

– لا.. لا شيء، كنت خارجاً، شكراً، سأذهب الآن!

أصرت بجرأة عجبت منها:

– لا.. لا يجوز أن تذهب قبل تشرب شيئاً..

وتابعتْ، بعد ما نظرت إلى أخيها بتأنيب بادٍ:

– بعد قليل يأتي والدي، أو أخي نضال..

انتفض أخوها:

– ماذا تقصدين يا بتول خانم؟! أنا لا أملأ العين.. لا أسدّ فراغ نضالك هذا؟! أو والدك المصون؟!

– لا.. لا أقصد يا أخي.. سلامتك وسلامة رأسك.. أنت على العين والرأس ولكن..

نهضتُ، استأذنت، رغم إصرارها على البقاء وعتابها لأخيها الذي لم يكن على ما يرام.

**

–6–

كان يمكن أن يكون المآل غير هذا، الأفكار الكثيرة التي داهمتني في مقتبل الوعي لم تفدني في اختيار مصيري، ولم تساعد في تخطي المعابر العسيرة، ولا سيما تلك الخدمة التي دامت سنين، وما تلاها من بطالة مشرعة، وإفلاس معلن.

أستطيع الآن أن أحس بمشاعر متناقضة حيال ذلك، كان يمكن لحياتي أن تنتهي في غمضة عين، خطأ، غفلة، تدريب على حرب متوقعة، وأخرى غير مشرّفة، انتحار.. كل منها كان ممكناً وقريباً..

كان يمكن أن تنتهي بصاعقة من تلك التي تتكاثف في عواصف الشتاء المديدة، أو في أي حادث بقيادة سائقين رعاة، جمّالين، مراهقين، عسكريين.. أو أي حادث على الطريق الطويلة

غير الآمنة بين الساحل والعاصمة. ويمكن أن تنقلب السيارة غير المجهزة في أي منحدر آناء الخدمة!

فكرت في إنهائها في الكثير من الأوقات، السلاح في يدي أدور على الحرس في آخر الليل، القنبلة التي أدرب المقاتلين على رميها نحو الأعداء الذين يمكن أن يكونوا في جهة القلب.

كان يمكن لحياتي أن تنطفئ بطريقة أخرى..

بارودة الصيد في يدي، غابة ممتدة من الصنوبر المتعالي، والشجيرات القصيرة المتكاثفة تخفي الكائن الذي يتربص بالطريدة التي لن تأتي.. فلا بأس أن يكون الصيد مؤكداً: فوهة البندقية على الصدغ الأيسر، الطلقة تقتل ضبعاً، والإصبع على الزناد..

النسيم الرطب ينعش الذاكرة، الأزهار الملونة في الغصون التي تتراقص بتوتر، والعصافير الصغيرة تتشاكس فرِحةً بالصحو الذي تلا أسبوعاً عاصفاً من أمطار آذار، راضية عن ضآلتها التي تبعدها عن اهتمام الصيادين.

طقس جميل لنهاية وشيكة، احتفاء نموذجي من الطبيعة باستقبال روح ولفظ جسد. الطبيعة التي تنبض بالحيوية، في مقتبل فصل الحياة الصارخ بالانبثاق والتفتح والخصوبة..

هنا مسرح تعبيري لكل ألوان الحياة وألحانها ومساراتها التي يعرفها محبوها، يتقنها أبناؤها دون تعلم. أي مسار تسلكه الروح التي ستنطلق تواً، أي مكان تقصد؟! من ستلاقي، من سيحتفي بها أو ينشغل، ماذا تقول إذا ما سئلت: بأية عبرة خرجت؟! وأي جدوى؟! وأي معنى لبقائها في هذا الجسد الذي أنهكه البحث عن سبيل أمين؟! وأي مسوغ يجعله متشبثاً بها، أو يدعها مقيدة بعناصره ومحدوديته؟! ستطير إلى أي فضاء، أليست أرواح كثيرة سواها تطوّف أيضاً؟! ألا يوجد رصيد مهم منها جاهز للانتقال إلى طور التجسد حتى في دودة أو جرثومة، أو بكتريا..؟! إذن لماذا تتخلق مثل هذه الكائنات لدى أي إهمال أو عفونة، أو تعرض لتغير في ظروف حفظ الأطعمة، الخضروات، الفاكهة..

حتى الجسد الذي تفارقه الروح تتسارع إليه أرواح. لهذا تحرقه أقوام، وتدفنه أخرى..

لكن الروح التي ستغادر هذا الجسد المستعد للارتماء بلا حول هنا في هذه البرية، لن تدخل في أي جسد آخر؛ جربتْ، وقاست: لن تعود.. لو كان بإمكانها ذلك، من يدري؟!

قرأت كثيراً، وفكرت أكثر.. لماذا تهرع الروح للتجسد؟! وهل يتم ذلك بأمرها، أو برضاها؟! الأرواح التي يمكن أن تكون موجودة لا نحس بها، إذا لم تتمظهر في شكل أو هيئة..!!

نتوهمها، نحلم بها، نتخيلها.. لكن ذلك لن يكون من دون كيان؟! ألهذا تسعى إلى ذلك..؟!

ليكون لها وجود، حضور، معنى..! هذه الروح التي قد تخرج بعد قليل، هل لها الآن من هذا شيء؟! هل هذا يسوغ الإيغال في الضياع؟! وما الفائدة من ذلك لو حصل؟! ما الذي سيتغير إن نفذت قراري؟! ينقص البؤساء واحداً، ويولدون بالعشرات..! من سيقدر ذلك، يحترمه، يتساءل

حوله؟! وماذا سيكون حال مقربين: أمي، أخوتي، أبي..؟! لا يهم؛ يرتاحون من همٍّ مقيم، ويبقى لديهم ما يكفي. وما ذنب الروح التي ستخرج؟! أين ستذهب؟! هل هي ما يدفع إلى ذلك؟! هل تحب عيشة الحرية؟! ومن يضمن أن حريتها في الانعتاق، ولماذا تسارع إلى هيكل آخر؟!

وما الحل إذا لم يحصل؟!

هل للروح منازل ومستويات؟! هل يمكن لهذه الروح التي ستخرج من أكمل صورة نعرفها أن تدخل في جسد يزحف، أو يطير أو يسبح؟! وماذا لو دخلت في جثة أو قذارة؟! هل سيكون الحال أفضل؟!

الهواء يزداد إثارة وإنعاشاً، والرطوبة الظليلة تتغلغل عميقاً في هذا المكمن الأخير..

الذاكرة تعود للانطلاق.

دخلت إليه ذات مساء، كانت المائدة المعتادة أمامه.. فدعاني إليها ضاحكاً:

- حماتك تحبك..!

قلت بعفوية:

- لا أعتقد!

- كأنك تعرفها..

- لا.. أقصد أنني لا أعرف ابنتها، حتى يحصل لي الشرف بالتعرف إلى أمها!

هز رأسه:

- ستعرف.. لا تتعجل..! ستعرف، وربما تتمنى لو أنك لم تعرف!

ملامح أسى باد في ثنايا نبرته، قال، قاطعاً متابعتي:

- هيّا.. هيّا يا عماد، البيدر أكرم من صاحبه!

وضحك، متابعاً:

- بيدر، يا عيني عليه وعلى أيامه!

قلت وأنا أجلس جواره:

- كأنك تحنّ إلى أيام البيدر.. هل كنت مرتاحاً؟!

- لا.. لم تكن راحة، لكن الأمور هناك كانت واضحة: آغا، وبيك، وخضري، وفلاحون.. لكل موقعه ودوره وظلمه وقسوته. تعرف مشكلتك مع من. أعرف أن هناك فلاحين وحصادين تختلف معهم، منهم من يتزلف، يدلس، ينافق، وله ظروفه.. لكن القضية الآن تعقدت، فأصحاب الحلول، هم مثيرو المشاكل، حماة القانون أو المفترض أن يكونوا كذلك، هم أول من يقفزون فوق أوتاره. يضحك بسخرية. ويعزفون النغمات التي تناسبهم. يدوزنونه على هواهم، دون أدنى اعتبار للجماهير التي صدقت، واقتنعت، وصخبت وأيدت. لكن الألحان كما تعرف صارت كالضرب على الرأس!

كنت شارداً، في ما يقول، متلقفاً كل كلمة، كأنما يشرح حالتي.. قال، ربما ليخفف عني:

- أراك لا تأكل، ألا يعجبك هذا الأكل؟! بتول..

حاول النداء ملتفتاً إلى الداخل. قاطعته بسرعة:

- معاذ الله.. معاذ الله! بالله عليك لا تنادِ على أحد. تابع أرجوك..

ربما تمنيت في داخلي لو لم أكن مكتئباً أن يتابع مناداته لـ بتول.. لكنني لم أكن مهيأ لأي منعطف آخر في الحديث. رغم أنني عرجت إلى تلك الدار كي أراها..!

- أعتذر إن كنت قد سببت إزعاجاً لكم، كنت ذاهباً في إجازة قصيرة، حصلت عليها متأخراً، فقلت: أبات عندكم حتى الصباح!

- أهلاً.. وسهلاً، تشرف في كل وقت..

وتابع كأنما تذكر شيئاً مهماً، بعد أن رشف من كأسه الحليبي:

- في البيدر كنت تعرف الأصيل من الرخيص، حدث ذات سباق، أن انزلقت عن ظهر الفرس، ووقعت أرضاً. رجعتْ إلى جواري، وظلت واقفة تصهل بقوة، حتى حضر من رفعني إلى ظهرها.. وسارت بهدوء وحزن حتى مكان الإقامة.

توقف لحظة، أخذ نفساً عميقاً:

- تلك هي الفرس الأصيلة، هل يفعلها الناس الآن؟!

زفر بصوت مسموع، نافضاً برأسه، محركاً جفنيه بعد موجة إغماض وفتح مديدة:

- انظر في حالي تعرف الجواب؟!

- في الواقع يا عم.. أحس بأن الأفق مسدود أمامي، وأمام الكثيرين من أبناء جيلي.. فمصيري مجهول، وأيامي معلقة في كف عفريت؛ منذ سنوات لا أعرف إلاّ الخدمة، ولا أعرف كيف تكون الحياة في الخارج، ولا أكاد أتعرف إلى حاجاتي، أو نزواتي، أو رغباتي..!!

ضربت رأسي بكفي وأطرقت. رفعت رأسي، كان يتناول قطعة من البندورة الحمراء.

- أتعرف يا أبا نضال أنني فكرت بأن حياتي من دون معنى، وفكرت في إنهائها..!

سقطت القطعة من يده:

- لا.. لا.. أعوذ بالله ماذا تقول؟! الانتحار ليس حلاً.

- وما هو الحل، وكيف الخلاص؟!هل أنا شاب، رجل، كائن حي، أم أداة، أو دابة؟!

- لا يا ولدي، الحق علي أنا، ما كان يجب أن أتحدث معك بهذه الطريقة. ولكنني.. لا أعرف. أحس أنني أبوح، أحتاج إلى ذلك، أحتاج إلى من أبوح له. أحياناً أتحدث إلى نفسي..

أحسست بقربه، وبعذوبة أحاسيسه:

- أنظر إليك يا أبا نضال أيضاً، فتزداد قناعتي بعدم الجدوى.

- أعرف أفكارك المشككة، عفواً، المتسائلة عن معنى الحياة والوجود، وعلة ذلك وجدواه.. ولكن الانتحار..!!

بعد توقف متأمل في القريب البعيد، تابع بحزم:

- لا.. لا يجوز يا عماد، مهما كانت الظروف. عليك أن تتحمل.

مضيت في همي:

- لقد وصلت إلى قناعة بأن الحياة والموت سيان!

ضحك مربتاً على ركبتي وقد انحنى مقترباً، ثم اعتدل متربعاً:

- الآن سأقول لك ما قاله ذاك الحكيم، حين سأله أحد القانطين أو المشاكسين:

أيهما أفضل لديك الحياة أو الموت؟!

فأجاب الحكيم: سيان عندي..

فعاجله السائل: لماذا لا تنتحر إذن..؟!

أجاب الحكيم بهدوء: وهل قلت لك إن الموت أفضل؟!

***

الفصل السادس

-1-

لم أكن مقتنعاً.

ليس الأمر إرضاء حاجة، كما في مقتبل اللذة، ولا سبيلاً للإنجاب في معرض إثبات الحضور..

ولا استرجاعاً للصدى الماتع حين تبتعد الممكنات وتقترب الخواتيم..

ليس نظرة أو ابتسامة أو لقاء..

وليس قبلة متغافلة في البرية أو على درب العين، ولا حركة مشاكسة، أو لمساً موارباً معتَذَراً عنه أو مقصوداً أو مطلوباً..

وليس مواقعة تنتهي من شامخ عالٍ إلى خفضٍ!

ليس هذا كله، أو ليس هذا فقط..

ولم أكن بعيداً عن التفكير فيه، وإن كنت مشغولاً بسواه، فيما تلا من عمر يترنح الآن.

كنا مع مجموعة أخرى من أترابنا نقطف الزعتر من السفوح شديدة الانحدار، لنبيعه إلى مخيمين في البيدر الواسع، يأتون كل عامين.

وكانت، وأنا، قريبين، راحت تغني بصوت دافئ..

(والِك والِك وين كنتِ

والك والك بالزعتر

والك والك شو شفتِ

والك والك شب اسمر)

لمحتها تنظر إلي عند هذا المقطع. كنت أتابع النغمات بلا كبير اهتمام.. أعادت ذلك أكثر من مرة، ثم وقفت وسألت:

- أيعجبك الغناء؟!

قلت دون أن أطيل النظر إليها:

- يعني.. ماشي الحال.

- ماشي الحال، يعني لا يعجبك كثيراً؟!

- لا.. لا بأس.

اقتربتْ:

- لماذا لا تنظر نحوي؟! وماذا تعني لا بأس هذه؟!

التفتُّ إليها ببرود:

- تعني فوق الوسط!

- هل يعجبك الصوت أم الكلام؟!

- يعني.. الاثنان!

- يعني؟!

وقالت ضاحكة:

- هل أكمل!!

أعدت النظر إليها بمرح أكثر:

- لا مانع عندي.. نتسلّى!

سددتْ إليّ نظرة ثاقبة:

- هل تعرف بقية كلام الأغنية؟!

أطرقت قليلاً، وانشغلت بالبحث عن النبتة بين الشجيرات المتناهضة، وقلت:

- لا.. لا أعرف، لا أذكر!

- ولماذا احمرّ وجهك؟!

تحسست خدي براحتي:

- وجهي أنا؟! من الحر!

- أي حرّ؟!

قالت ذلك وهي تقهقه، وتابعت:

- أنت تعرف الأغنية، وسأكملها لك. اسمع.

أعادت المقطع من أوله.. ثم أضافت وهي تنظر بخبث:

(والك والك ما باسِك

والك والك ما فشر!!)

ضحكتْ.. ثم ضحكتُ ووجهي باتجاه الأعلى، فتزحلقت قدمي.. ولم تسعفني أغصان الريحان والسنديان التي تمسكت بها، فتدحرجت أمتاراً، لم تلبث أن لحقتني بالطريقة ذاتها، دون أن أعلم إن كان ذلك نتيجة انزلاق مشابه، أو فعل مقصود.. رغم أن ما حدث بعدئذ لا يترجم الموقف الذي تجسده كلمات الأغنية!!

لم يثرني الموضوع كثيراً، ولم أسعَ إلى تكراره! كما سعت فتاة الزعتر، وسواها من نسوة تعرفت إليهن في مراحل متعددة من حياتي التي توزعتها الهموم والمتاعب في ضيعتي، في القرية التي نقلت إلى مدرستها تعسفاً، ثم في بيروت ودمشق.. قبل الزواج وبعده.

لم أكن عنيداً كما يقول عني الكثير من الزملاء، لأني لم أتخذ موقفاً صريحاً بعد تفكير؛ بل لم أقتنع أنها الطريقة التي تليق بابن آدم. وهي لا تختلف كثيراً عن طريقة مقاربة الدواب التي كنت أشهدها في الرعي، وفي مواسم الخصوبة، ولا تفترق من حيث الأعضاء والأوضاع. ربما كان الفرق يكمن بين العلنية والسرية، بين الإفصاح عن الرغبة وكتمانها.

رغم أن مشاهد مرت، وحكايا قيلت، كادت فيها هذه الفوارق تتلاشى.

وليس هذا مهمّاً.

لم أكن بلا حواس، كما يقول آخرون.

ولم أتزوج لإقناعهم برجولتي وجدواي، وحضور العدة المطلوبة للإنجاب!

ولم يكد يغرب الأمر عن بالي.

كنت أفكر دائماً بصورة ما، ملمح، أو طيف، أو ظل.. لا يفارقني، أستطيع أن أنشغل بصداه، في الأوقات التي تعتم فيها المشاهد أو تتعكر الأجواء، والآفاق.. وفي أكثر منعطفات

النضال أهمية وخطورة. كنت أعرف المرجعية، أو لا أعرف.. ولا أريد الاقتراب منها كثيراً، حتى لا نبتعد أكثر!

هل كان الأمر مرهوناً بالبعد والفقد، وممزوجاً بالحزن والأسى والكآبة؟!

ألهذا كنت أستغرب حين نتبادل النظرات أن تضحك؟! وفكرت بعدئذ بجدية: إذا كان التوافق موجوداً بالنظرات والحركات والاستعداد لما هو أقرب، فلماذا الحزن؟!

ولماذا تنداح أنغامه على أوتار العود الذي صار رفيقي، ربما لأن في إيقاعاته أشجاناً!!

صديقي أبو مسعود، لم يكن في حديثه إلا ذكر النساء والعلاقات المشروعة وغير المشروعة، والنيات غير الصادقة، والمواقعات التي تتهيأ له، أو يتمنى أن تحدث.. ويشك في أقرب الناس إليه.

لكنه لم يكن يفعل!!

قال لي ذات يوم:

- أنت لا تعيش، ولا تعرف معنى العيش.. لديك من الإمكانيات والمصادفات والظروف ما يسمح لك أن تكون زير نساء!

- ولماذا لا تكون أنت ذلك الزير!

فكر قليلاً، ثم قال:

- أنا.. لا أريد، لا أرضى، لا أعرف، لا أعرف..!!

لكن سوانا يعرفون، كثير من زملائنا في النضال والمواقع والمسؤوليات تفاخروا بالمثنى والثلاث وحتى الرباع، وما ملكت أيمانهم وما لم تملك، ولم يكن ذلك بالقليل، ولم يستتروا!

لأن المعاصي تحتمل التأويل والتسويغ، ولا سيما إذا وجد من يفتي بها.. ويشرعها!!

حين كنت أدافع عن حق مشاركة المرأة في الحياة حسب إمكانياتها التي يفترض أن تتطور وتتسع لتشمل نسباً أعلى من الواقع، كانوا يتفاخرون ويقولون:

- مع أنك لا تهتم بالمرأة؛ هذا شغلنا نحن، ماذا تركت لنا؟!

كنت أقول:

- بل شغلي أنا، أنا الذي أحترم المرأة، ولا أطالب بتحررها كي يتسنى لي الوقت الكافي لأختلي بها، كما يفعل بعضكم، ولا أستغلها، أو أستثمرها في إشباع جوع، أو تعويضاً عن فشل المشاريع الأخرى..

يتهامسون:

- يبيع الماء في حارة السقايين!

- أنا لا أبيع ولا أشتري، أقول ما أقتنع به، وأحس بضرورته، وجدواه.

أستطيع أن أقول إنني تعلمت من أمي الأمية الكثير مما يفتقده الرجال، ولو كانت متعلمة لكان لها شأن آخر.

- وكان لكم شأن آخر!

قال أبو أحمد ذلك، وغمز بعينه صوب أبي منصور ضاحكاً. تغاضيت عن سخريته جاداً:

- ربما؛ إلا إذا كنت تقصد أنه ليس لي شأن!

تقلصت عضلات وجهه، وأكمل بما يوحي بالجد:

- لا.. لا أقصد، ولكن أقول، ربما لو كانت تعلمت، لما استطاعت تربية أولادها. كما يجب، كانت ستنشغل بأمور أخرى.

- هذه ليست مسؤوليتها وحدها، إنها مسؤولية الجميع. على المجتمع والدولة أن تؤمن لها سبل التعلم والعمل الكريم، كما هي حال الرجل، وأن تؤمن لأولادها أيضاً الرعاية الممكنة.

تدخل أبو منصور:

- ألا ترى معي أن في هذا تناقضاً أو استحالة في التنفيذ؟!

وتابع من دون أن يترك لي مجالاً للرد:

- إن الذي سيحدث بالفعل هو أن المرأة ستزداد أعباؤها؛ إذ تؤجل مهامها الأخرى إلى ما بعد أوقات العمل.. وبالتالي، نكون قد ضاعفنا الهم بدل أن نخفف منه؛ ناهيك عن الأولاد الذين ستتكفل بهم جدتهم أو عمتهم أو جارتهم.. وستكون حالهم من حال من يربيهم، وهن بالتأكيد لسن من المتعلمات أو الخبيرات بشؤون التربية. وبدلاً من أن نربح عمل المرأة وحضورها وإحساسها بجدواها، نخسر الجيل القادم الذي سيحس بالفصام بين ما يعيشه ويتعلم من المربيات الأميات، وبين ما يراه لدى حضور الأم.

- الأمر لا يتجسد في هذه الصورة فحسب، لا بد من رعاة حقيقيين للأطفال، روضات أو حضانات، أو ملاحق.. في المعامل أو التجمعات الكبرى.

- وفي القرى، والريف عموماً، والتجمعات الصغرى.. هل يمكن تأمين ما تقول؟!

- يجب أن نسعى لتأمينه، وأن لا نوقف تعلم المرأة، أو نرجئه حتى تحل قضية الحضانة.

- هل تقصد تلازماً بين الحل الاجتماعي والحل التربوي؟!

يضحك أبو منصور، من تساؤل أبي أحمد:

- ذكرتني بالتلازم بين النضالين القومي والاشتراكي.

قلت بانزعاج:

- وهل في الأمر ما يضحك؟!

أجاب أبو منصور بين الجد والهزل:

- بصراحة أنا لا أفهم هذا الموضوع، رغم أنني أحاضر فيه!

– الأمر بسيط. هذا معناه ألاّ يتوقف مشروع حتى يتحقق الثاني. وأن أيّ إنجاز في أيّ محور منهما، إنجاز في المحور الآخر.

استطرد أبو أحمد:

– وأيّ فشل في أحدهما سينعكس فشلاً على الثاني!!

– ربما.. لكن ليس بهذا التأكيد.

– وإذا ما كان الفشل في المحورين!!

– لا.. أنت متشائم كثيراً، وعلينا أن نرفع الجلسة، حتى يتحسن الحال أكثر.

قال أبو منصور بدعابة:

– لن ترفع الجلسة قبل أن تعترف بالهزيمة وترفع يديك!

قلت بما هو أكثر من دعابة:

– ما هذه الديمقراطية؟!

– ليست ديمقراطية شعبية؛ بل ديمقراطية مركزية!

– وما الفرق بينهما؟!

قلت بسخرية مرة:

– هل ستقول لي إنك لا تفهم هذا الموضوع أيضاً؟! قيادات آخر زمن!

تأفف أبو أحمد:

– لا تقلبوها ثورجية؛ قلنا يجب أن ترفع الجلسة إلى وقت آخر.

قلت محاولاً تثبيت موقف:

– هل هذا يعني أن هناك تلازماً بين انعقاد جلساتنا وبين تحسن الحال؟!

– تماماً كالتلازم بينك، وبين أم تحسين.

(ردّ أبو نضال بتقطيب وحدّة:

– التزم حدودك يا أبا منصور، ولا تتناول أعراض الناس!!

– لا.. أنا لم أتحدث بسوء عنها، معاذ الله؛ بل أقول إن الجميع يرى هذا الاستلطاف.. وربما كان هذا هو سبب حماستك نحو المرأة!

– معاذ الله! أنت فاجر يا أبا منصور. الأمر لا يعدو كونه احتراماً. وأنا لا أخون زوجتي وأم أولادي. ليس ذلك من شيمي، لم أفعل ذلك يوم كنت عازباً.

– احترام أمامنا، أما من ورائنا.. الله يعلم! كما حدث مع رفيقنا سلوان المرحوم بإذن الله، حين حضرت امرأته المخفية تجر أولادها إلى بيت العزاء، فاشتبكت مع زوجته العلنية، وتحول المأتم من مناسبة حزينة إلى فرجة على المناضلين!

قال أبو أحمد:

– أين الغلط؟! يمكن أن يكون زواجاً عرفياً، يظهر في الوقت المناسب.

أجاب أبو نضال على كلام أبي منصور، محاولاً أن يكون هادئاً:

– اطمئن، لن تشمت! هي امرأة مقدرة ومحترمة في الديوان ليس إلاّ..

تدخّل أبو أحمد:

– ومن الذي وظفها؟!

– هي معيلة لأولاد، وزوجها عاجز، ورجتني زوجتي أن أجد لها عملاً؟!

بدا شرح أبي نضال باهتاً، فسارع أبو منصور لاستغلال ذلك:

– الله يعين زوجتك عليك.. تطالب بتحرر المرأة وتعلمها، وتتزوج شبه أمية؟! أي تناقض هذا الذي تمارسه وتتهمنا به؟!

– زواجي كان تحصيل حاصل. لم أفكر في الأمر كثيراً!!

– تصور معي لو كانت زوجتك موظفة كأم تحسين بلا شبه، كيف ستناضل حضرتك؟! هل لديك وقت للبيت أو للأولاد؟! وأين سيعيشون وكيف سيربون؟!

تابع أبو نضال كلامه الذي يشبه المرافعة:

– أعترف أن في الأمر مشكلة، لكنها ليست مستعصية الحل، ولا يمكن لهذا المجتمع أن يتقدم، ولمشاريعنا أن تتحقق إذا لم تتشارك المرأة الواعية مع الرجل الواعي في تأسيس حياة رشيدة.

رددا بصوت واحد:

– إي عيش يا..!!).

لم يكن كلام أبي منصور خطأ كله، وتلك مسألة تستحق الدراسة.. ولا سيما أن الكثيرات ممن تسلمن مهمات لم يتزوجن، أو تركن المسؤولية عند الزواج، أو أنهن بلا أولاد، أو كانت لهن تجارب غير محمودة العواقب. مع أن نسبة كبيرة من الاتهامات لا أساس لها، وربما لفقها مناضلون عجزوا عن استغلالهن، أو قصّرن في إرضائهم. وجميع هذه الأمثلة ذات صدى سيئ، على المشروع الذي نناضل من أجله، والتنظيم برمته؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، والمرأة غير المتعلمة لن تنجح كثيراً في الإقناع..

ومن كانت ناجحة في البيت لا تملك الوقت الكافي للإعداد والتنظير والمتابعة والتقويم!

وأعرف أن مجموعات أخرى في تنظيمات أقدم وأحدث استغلت المرأة في عمليات التنسيب، وأن كثيراً من الانتسابات إليها كان من أجل ذلك! أخبرني عديدون بحكايا دخولهم في التنظيم..

**

-2-

- لستَ مرتاحاً؟! ماذا جرى لك؟! هل تخاصمت مع (الخِضري) مرة جديدة؟!

- خصامي معه متواصل، اعتدت عليه، لكنني اليوم أحس أن حرارتي مرتفعة، وحيلي ضعيف!

- مريض؟! لماذا لا ترتاح؟! لماذا لا تبقى في الفراش؟!

- أبقى في الفراش؟! هل الأمر بهذه السهولة؟! القطيع والبيدر، المرج والماء، والخيول والغسيل؟!

توقف عن الكلام، نظر إليها محدقة به، مشدوهة..

- وأنتِ، هل يمكن ألاّ أراك؟! ماذا يحصل لي؟! كيف أقضي نهاري؟! كيف يمضي ليلي؟! هل أستطيع أن أعيش من دون وجهك، عينيك، أنفاسك، قامتك، ضحكتك..

بدا كأنه يهذي!!

- مهلك .. مهلك يا حسن! ألا تخاف أن يسمعك أحد؟!

– يسمعني؟! هل أخاف؟! وهل تخافين؟! أنا لا يهمني الآغا، البيك، الأفندي، الخضري، لا يهمني الحساد والبصاصون والمنافقون..!

– أقصد أهلي!!

– لا يهمني أحد في هذه الدنيا سواك؟! هل تسمعين، تفهمين، تعلمين؟! أنت التي كانت في رؤاي قبل أن آتي إلى هنا، أنت من جعلني أتحمل هذا العذاب الذي يسمونه الحصاد الدراس السهل.. أنت من يدفعني إلى أن أدافع عن كرامة كل العاملين هنا أمام الآغوات والباكوات و.. أنت من كانت في نهاية السباق تنتظرني حين تقدمت جميع الفرسان، وجعلت حموداً يحنق ويهجم علي.. لأنه راهن على الفوز، وتعرفين ماذا فعلت به.. ولو راهنني الخضري أو البيك نفسه لما ترددت في الفوز عليه. أعتبرك جائزتي!

– ولكن الخضري يراهن علي؟

– وما رأيك أنتِ؟!

– الرأي رأيك، وهل لنا نحن الحريم رأي!!

– لأ.. لا أرضى بهذا الكلام. الرأي رأيك.. لن أقبل أن يجبرك أحد على أمر، ولن أجبرك على القبول بي أيضاً!

– الآن أنت مريض. وحين تشفى نفكر في الأمر، فقد يتغير رأيك!!

– لا أقبل بمثل هذا الكلام، حتى لو كان مزاحاً.. الأمر لا علاقة له بالمرض، ولا يحتاج إلى تفكير، بالنسبة لي على الأقل. فأنت جائزتي التي لن أفرط بها، إذا ما رضيتِ أن تكوني تاجي وصولجاني..

– اذهب يا حبيبي إلى فراشك وارتح، وكن مطمئناً.. ليت هذه السخونة تنتقل إلي بدلاً منك.. لأنك لا تستحق إلا الصحة والسلامة والسعادة!!

لم تأتِ في اليوم التالي إلى الموعد، في الركن البعيد من البيدر، كان منشغلاً بها، وبما قالته، هل تُفكِّر في الأمر؟!

أم أن الأمر لا يحتاج إلى تفكير، رغم أن العلاقة الجميلة ما تزال في مستهلها، العلاقة التي جعلت أوقات الحر، تبترد حين تخطر أمامه حاملة صينية الطعام، ووعاء الماء.. وحين لا يكون دورها في المجيئ بالزاد، يتخيلها.. ومن ثم صار يلقاها: وصارت أوقات المساء تزدهي بضحكتها.

وفي ساعات الفجر الأولى حين يقوم إلى مربط الخيل، يحس بحيوية مبعثها أمنية رؤيتها، أو تسريع لقياها.. لم تكن حسنا الفتاة الوحيدة التي تنتقل بين الحصادين، أو على البيدر، أو قرب القطعان.. لكنها الوحيدة التي أحسّ حسن بميل نحوها لم يفهمه، ميل جعله يتمنى تكرار

حضورها. فقد بات يرتاح لعبورها، وينشرح لكلامها، ويغتبط لابتسامتها، وينتشي من مبادلتها له الملامح المعبرة عن الرضا..

لم تأتِ ذاك اليوم.. حضر رغم أن السخونة لم تفارقه، لكنه تحامل على نفسه ومرضه وعمله كي يراها. هل كانت الدواء الذي ينتظره، الطبيب الذي يستطيع وحده أن يعالجه؟! وأين هو الطبيب؟! هل تداويه؟! إنها اختصاصية في مرضه ذاته، أم أنها صاحبة الداء، وسره لديها؟!

الداء.. من قال الداء؟! من قال إنه يريد أن يشفى من هذا المرض الجميل؟! إنه يتمنى أن يتحول إلى وباء يجتاح العاملين جميعاً، لعلهم يسعدون رغم شقائهم. ستختلف علاقتهم بعضهم مع البعض الآخر؛ بل حتى مع القطيع والخيل والكائنات الأخرى، الأشياء والعناصر والظروف.. ليس أنانياً، يحس أنه اليوم غيره بالأمس القريب، أجمل وأنقى وأصفى وأكثر سعادة ونشاطاً وحيوية.. لكنه بالغ في العمل منذ يومين، فأصابته الشمس بأشعتها الحارقة. لا يهم، سيشفى ما دامت حسنا موجودة. ليس أنانياً، يتمنى أن تصيب بأعراضه الآغا والبيك.. والخضري ذاته. لو أصابهم ما أصابه، لتغيرت معاملتهم مع العمال وصاروا أكثر رأفة، وأكثر ابتساماً، ولازدادت المواسم، والأمطار، والخصوبة..

"لا.. ليست حياتهم في القصر، أو في الصيوان أجمل.. رغم أن لديهم الكثير من النساء، يرقصن ويغنين.. وربما يرافقنهم إلى أي مكان يختلون بهن.. سمعت ذلك، وأسمع، لا يستطيع أحد أن يرد لهم طلباً: ابنته، أخته، حتى زوجته.. ربما بطريقة أو أخرى!

ليسوا سعداء.. لا أشتري حياتهم بلحظة من قرب حسنا.

لا يستحقون هذه السعادة، هذه الحياة.. الجائزة هذه لي وحدي، قسمتي.. هل يمكن أن أهنأ بها، معها، أن أعيش من أجلها؟! ألهذا خفّت سخونتي اليوم، وزالت عني الحرارة. ولكن أين هي.. لماذا لم تأت؟!"

– حسنا مريضة هذا اليوم! حرارتها مرتفعة.. وجسدها ساخن واهن!!

قالت بديلتها ذلك بلا براءة، ومن دون أن تلاحظ ربما أثرَ ما قالت على حسن بالذات!

**

-3-

لم تكن أم تحسين بعيدة عن الصدى الذي أسترجعه في أوقات الشدة.. ولم أكن أريد للأمر أن يتفاقم، كما في حالات شبيهة عديدة.. لكن الذي كان يجري، أن الطرف الآخر ليس رهن يديك، أو قيد رغبتك. هذا الذي لم أتفهمه، أو أتعلم منه.. وهو بالضبط ما كنت ألوم الآخرين من أجله: هل تريدونهن وفق ما ترتؤون..!!

ربما لم يكن الأمر لديهن بالخصوصية ذاتها؛ بل هناك حاجات، وطموحات، ورغبات. وهذا حق، كان علي الانتباه إليه: كنت أضطر للابتعاد كثيراً، بعدما يصبح الاستمرار مدعاة للفضيحة، الفضيحة التي لا أريدها، ولا أتمنى أن تحدث لأي من الرفاق، وقد حدثت..!!

كنت ألوم نفسي، الأمّارة بالبحث عن أعطية لديها الخصال التي لا تضاهى، وهي أكثر من صنو أو ندّ أو قرين: طيف عذوبة تدوم، أو ملاذ نشوة لا تخبو.. آخذ منها على قدر ما أريد، دون أن ينقص منها شيء، أو تتأذى أو تتحور؛ بل عليها أن تزداد ألقاً. أين يمكن أن توجد؟!

أليست هذه حال المرتبة العليا من الاشتراكية؛ مجتمع يقدم فيه كل فرد ما يستطيع، ويأخذ ما يحتاج إليه!!

ألوم نفسي لأنني اعترضت على من ادعى ذلك، ويَحمِله عقيدة وغاية:

- إنه قول مثالي، لمجتمع أفراده مثاليون، ليسوا من أبناء آدم؟!
- أليس الطموح مشروعاً!!
- لكن الطموح الذي لا يقوم على أسس منطقية وخطوات جدية ثابتة، قد يتحول إلى فجيعة!!
- لا.. ليس الأمر على هذه الخطورة والمأساوية.

أجاب أبو توفيق بشبه انكسار بعد طول نقاش، ولم أكن أريد أن ينتهي الحوار هنا، لاعتقادي أن الأمر يحتاج إلى مناقشة أوسع وأعمق، بهدوء وروية، من دون أن تؤخذ الأمور بتسرع ولا مبالاة أحياناً. كنت أقول ذلك في الاجتماعات التي تتناول القضايا الفكرية والنفسية بعجالة. وكانوا يقولون: هذه أفكار لا خلاف عليها، ومبادئ لا يُجادَل فيها. ويمررون المشاريع التي يرون أنها الأهم. كنت أقول: القضية الأهم طرق التنفيذ وأدواته. كانوا يقولون: لن نأتي بكائنات من المريخ؛ إنساننا هو من سينفذ. فأقول: ألا يحتاج إلى إعداد؟!

يجيبون:

- يتعلم كما تعلمنا.. من خلال العمل.
- هل يمكن التعلّم من الشعارات؟! هل المبادئ والأهداف تكفي؟!

– أنت تكبرها دائماً. وإن كنا سنتبع توجهاتك، سنبقى في حيزنا، ولن نصل إلى ما نصبو إليه، وتتطلع إليه جماهيرنا، ولن نلحق بسوانا!

وقالت من أصبحت زوجتي ما يشابه ذلك، بعد أن أبديت لها الكثير من الثقة والأمل بأنها ستكون الأساس الحقيقي الذي يشكل بيتاً آمناً وأسرة سعيدة، وأنها ستؤمن بذلك الجبهة الداخلية، وتتيح أمامي فرص النضال الفعال من أجل بيوت الآخرين. وأضافت:

– أرجو أن تتحملني كما أنا، لا كما تريد!!

لقد كانت نصيحة ورؤيا اكتشفت مدى رجاحتها بعد زمن طويل، وأكاد أجزم أنها لم تكن عن خبرة ودراية؛ بل أطلقتها العفوية وأثارها الخوف من حماستي الجامحة، والتخوف من المسؤولية التي بدا أنني أضعها في عنقها وحدها..

هل كنت أطلب منها أكثر مما تستطيع أن تعطي؟!

صحيح أنها لم تقدم الكثير، ولم تكن ذلك الطيف الذي أسترجعه.. حتى قبل أن تقترب كثيراً، لكنها لم تقصّر معي أو مع الأولاد. كما لم أقصرّ في احترام كيان البيت.. إلا إذا كانت مثل تلك الأحلام التي تأخذ بعض ملامحها من الواقع خيانة.. من دون أن أفكر في ما إذا كان من حق الشريك أن تكون له مثل تلك الملامح!!

ومن دون أن أفكر فيما إذا كانت تنسحب هذه الحال على المبادئ والأفكار والأهداف التي نستند إليها في المشروع المصيري الذي نسعى لإقناع الناس به، والنضال من أجل إنجازه..!!

***

الفصل السابع

-1-

أفقت من حلم التسريح، وشآبيب التهاني التي غمرتني بإحساس الخارج من القبر، وأثارت لدي شعوراً بضرورة اختبار حواسي وأعضائي للتأكد من أنني بكامل أهليتي. لأجد نفسي من جديد، وبشدة أكبر، في مواجهة مع ظروف وشروط ومتطلبات، مهما بلغت من حدود دنيا يمكن أن أرتضيها ويقبل بها من سيعايشني، فإنها أكبر من طاقتي، وإمكانياتي.. حتى في إطار الحلم أو الأمل..

أن تبدأ من الصفر، أو من تحته على الأصح، ليس هيناً، ولا سيما أنك تخطو مسرعاً في بداية العقد الرابع. وأن تخوّض في طمي البحث عن عمل أو وظيفة أو أي مورد رزق، من دون أن تجرؤ على التفكير بشريكة المستقبل الغامض، والمأوى الضروري لكائن ينشد الحياة بأبسط أشكالها، لن يكون ذلك في حيّز قدرتك على الاستيعاب أو الصبر..

شهادتك كدت تنساها.. ربما لم يغب الكثير من الفرص التي يمكن أن تكون ضالتك فيها، كما يعزيك زملاؤك. فاختصاصك مرهون بالتعليم، لكن الشواغر معدومة، وأمامك ما لا يقل عن عقد من السنين حتى يمكن أن يتوفر مجال لك في المحافظة، وربما المحافظات كلها.

لست الوحيد في هذا البؤس على كل حال. خريجون كثيرون ينتظرون مثل تلك الفرص. هل يعزيك ذلك؟! وماذا يفيدك أن تتشاركوا في ندب حظوظكم ورغباتكم بأن تكونوا جامعيين! لم تعيشوا حياة الجامعة الحقيقية، ولم تهنؤوا بالعلاقات والصداقات والمناسبات التي تسمعون بها، وتقاربونها أيام الامتحانات، أو في الزيارات المختطفة من عمر يُنتهك باطراد. كأنكم في سعيكم إلى الجامعة أو خروجكم منها، تهرّبون وجوهاً لا تتناسب مع مرايا تأتلق فيها النظرات، وتشع الأحلام.. وتدارون قامات تميل إلى الانحناء، وتسحبون من زحام الأماني خطاً لا تتوازن.. أو لا تليق!

لماذا كانت الجامعة إذن؟! كان يمكن الدخول في أي معهد.. سنتان: في الأولى مستجد، والثانية تخرج. ومن ثم العمل، الوظيفة، المورد المادي..

معاهد عديدة للتعليم كان يمكن الانتساب إليها. كثيرون من زملائك فعلوا مثل هذا. بعضهم تطوع في مختلف الكليات العسكرية، أقرب الطرق إلى الوظيفة، المردود، الوجاهة ربما! لكنك بعد تلك السنين، لا تحس بأي ندم على ذلك؛ بل تكاد تحس بالشفقة حتى على من كانوا يَأمرون

ويعـذِّبون.. ويُسـجَنون!! المعهـد يحتـاج إلـى دوام، وللـدوام متطلبـات: التـزام وهنـدام وإقامـة ومصروف.. هذا كله ليس متوافراً؛ إذن لتكن الجامعة بفرع أدبي، لا يفرض الكثير من التفرغ، ولا يعطل عن العمل. وما كان أي عمل مجدياً أو مقبولاً، أو محتملاً. رغم ذلك تحملت وأكملت. والآن.. إلى أين؟!

نضالك في التنظيم المشرع، لم يفدك. فلا أمّن لك وظيفة، ولا قدمك إلى مسابقة. يقولون لك: كنت بعيداً، أمرك غير واضح.. ويقولون: الآن شهادتك محرجة، هل تقبل بالتقدم إلى وظيفة لا تشترط أكثر من ابتدائية؟! قبل أن ترد، يتابعون: العشرات أمثالك تقدموا إليها، والمئات من حملة الثانوية، لكن شهادتك مشكلة، فلن تُقبل! هذا من أجل كرامتك؛ يُعزّون. لنفرض أن أحداً ما لن يحترم الشهادة، وسيطبق عليك الأنظمة والقوانين، هل يصح أن تكنس وتمسح وتقدم الضيافة، وتقف على الباب؟!

هذا لا يليق بالمناضلين الذين نعتز بانتمائهم وأمانتهم أمثالك!!

من أجل كرامتك استدنت ثمن بقرة! البقرة التي اقترض على اسمها وقامتها نصف سكان القرية. واشتريت عجولاً للتسمين. لم يكن العلف ميسراً، ولست تصلح للرعي، لم تعد تصلح، الأراضي لم تعد وفيرة كذلك..

انتقلت إلى عمل آخر، اشتريت منشاراً لتقطيع الحطب. لم يدم ذلك طويلاً. لم يعد الكثير من الناس يستخدمون الحطب، لا يستطيبون نكهة الحرق الطبيعية أمام الحضور الطاغي للمدافئ التي تعمل على المازوت، بدخانها الذي يكاد يسد المسام.. في منشرتك الصغيرة بدأت بتصنيع أوعية الخضرة التي صارت إلى ازدياد، وبعض الأدوات البيتية: طاولات، كراس، أسرّة.. وقعت في شباك مأموري الحراج والمخبرين اليقظين؛ أنت تقطع الأشجار بلا رخصة، عليك بالامتناع عن ذلك، أو تغلق المنشرة، ويصادر المنشار، أو..!

لن تقول لهم: انظروا إلى السفوح التي غاب نصف أشجارها، من قبل المشحّرين، ألا تشتمّون روائح دخانهم الليلي؟! ألا تعرفون أن الحرائق لا تتوقف، وتسجل ضد مجهول؟! ولن تؤكد أن ما تقوم به لا يتعدى شجرة هنا وأخرى هناك، داخل الأراضي الزراعية، وبين الأشجار المثمرة. أشجار تطاولت في غفلة عن أصحابها المنشغلين بالوظيفة، أو بلعب الورق، والنميمة على الآخرين، والمنافسة على العلاقة مع مسؤول، والتمسح بأذيال صاحب وجاهة، أو البحث عن صلة معه، أو إبراز صفة تجعل من صاحبها في محرق الألقاب والمناصب والمسؤوليات الحزبية، النقابية، الإدارية.. التي لا تحتاج إلى شهاداتٍ أخرى. لن تقول لهم ولا لسواهم من حماة الأقدار ومقرري المصائر ذلك أو سواه مما تحتاج إليه، ترغب به، تحس بضرورته، تعاني من حرمانه.. لست وحدك؛ بل جيل كامل، وأجيال. هاهم أخوتك على الطريق ذاتها، انتظر والداك أن تأخذ الشهادة، فتساعدهما، فوجدا أنهما يبحثان عن دائن جديد، للمحامي الذي سيدافع عنك،

أو للمسؤول الذي سيصفح عن أخطائك بحق الوطن والإنسان.. لن تقول لهم، ولن تغفر،لأنهم يعلمون بما يجري، ويعرفون أنك تعرف. لذلك لن يكون مرحباً بك في الاجتماعات، ولا سيما إذا كنت ستتكلم عن مسؤول المياه الذي يصول ويجول، مغدقاً ً على هذا مقتّراً على ذاك. قلت مرة: رحم الله أيام العين؛ على الأقل كنت تستطيع أن تعرف دورك، وتجتمع من أجل ذلك مع من يطيب حديثه أو كلامها! أما الآن.. فأنت تنظر بأسى إلى الحنفية التي لا تضخ غير الهواء والسراب..

وهل ستتكلم عن الكهرباء التي تنقطع أكثر مما تصل، لأنها تحتاج إلى صيانة بعد وقت قليل من الاحتفال العميم بوصولها؛ بل إلى إصلاح مستمر، يفرح له عامل الشبكة أيام العطل، لأنه مدرّ لما يستطاب من رجاء ومنة وإكرامية لا يخجل من طلبها!!

أم أنك ستتحدث عن الطرقات التي تتحفّر تحت وقع الدابكين في حفل تدشينها! أم على المدرسة التي يتنافس المدير والموجهون ومدربو الفتوة ومسؤولو التنظيم الأمينون والشبيبيون والأذنة المدللون على امتهان الطلاب والعلم، وينشغل الأساتذة باصطياد طلاب الحصص الخاصة والاهتمام بأبنائهم، أو المنافسة على مهمة في مناسبة وشيكة. وماذا عن المدافئ المصلوبة في الصفوف تعيق الحركة ومتابعة ما يكتب على الألواح، ولم تذق طعم المازوت سنوات؟! وماذا عن (الندوات) وصفقاتها والترميمات وتعهداتها، وعلامات الرياضة والفنون وغاياتها؟! وماذا عن عين الطاووس والزيتون الذي يكتئب ويتعفن، والأنهار التي تحولت مصبات للمجارير، ومفاقس للبعوض والحشرات، ومحطات للحيوانات غير الأليفة، ومصادر للروائح التي لا تريح.. ستتحدث عن كل هذا، وتحلم بأن يرحّب بك، أو تستقر في عمل هنا؟! تمنوا في سرهم لو أنك لم تسرّح، لو أن تلك القذيفة التي انفجرت جوارك، وأودت بزميلك، نالت منك أيضاً.

وها هم يعلنون استعدادهم لمساعدتك. يشجعونك على الرحيل، السفر للعمل في الخليج، أو في أعالي البحار أو أبعد، حتى لو تزوجت من استرالية!

لكنك لا تستطيع، حتى هذا الأمر يحتاج إلى تبعات ومتطلبات. فدخلت عهد البلاستيك، عملت لدى أحد جيرانك؛ هو موظف (مستفيد) من الظروف والعلاقات والملكات.. وعليك القيام بمسؤولياتك تجاه بيوته العديدة. لم يكن ذلك سهلاً: السهر، وإشعال المدافئ، وتأمين الحطب، والدواليب لرفع الحرارة عن درجة الصقيع. السقاية المنتظمة، وربط الشتلات على خيطان مدلاة، والاعتناء بالأخاديد.. لم تكن في كل ذلك مشكلة رغم ضغوط الوقت والجهد والقلق. المشاكل بدأت حين حان القطاف. كنت تضع الثمار الجيدة في صناديق محددة، وتوزع ما تبقى ظاهراً في أوعية أخرى..

لم ينتبه إليك الأستاذ. نبّهك الشاري في السوق، حين أخذ يقلب ثمار أحد الصناديق..

نظر إليك بتساؤل:

- هذا الرزق ليس لك!
- كأنه لي!

قال:

- لا.. لو كان لك لما فعلت ذلك!

قلت مندهشاً:

- ماذا فعلت، وأين الغش؟!

قال وهو يضحك من سذاجتك، كما قدرت لاحقاً:

- بالعكس؛ المشكلة في أنك لا تغش! ولو علم بك صاحب الرزق، لن يقبل أن تخرب بيته.

صرخت:

- ماذا تقول؟! أخرب بيته.. لست أفهم.

قال بإشفاق آلمك:

- واضح، وأصدقك!

وأضاف بهدوء واستحياء:

- أنت لا تعرف السوق! عليك أن تضع الثمار غير الناضجة، وذات الشكل المشوه والعطب الظاهر.. في الأسفل، وتستر كل ذلك بالجميل والنظيف والمتناسق على الوجه، ألم تسمع بالوجهنة؟!

احترت في ما يقول، وماذا يقصد، وبما تجيب:

- لا.. نعم نعم؛ أعرفها لدينا نحن البشر. لكن في الخضار، في السوق، لا لا أعرف!
- عليك أن تعرف؛ ألم تسمع بما يقال من أن فلاناً وجه السحارة؟! يبدو أنك ذلك الوجه!

وأضاف بعد أن أحس بذهولي:

- يا ابني عليك بالعمل حسب المثل: (على قد السوق سوق!)
- إذا كان الجميع يفعل ذلك، ويعلم الشارون والبائعون بهذا السر، فما الفائدة منه؟!

ضحك وقال:

- (هون حطّنا الجمّال)؛ كل الذين يشترون يحددون السعر على هذا الأساس، هذا أمر معروف.. أما إذا جاءنا زبون أعمى القلب، مفتح العينين، لا مؤاخذة يعني مثل..

وأشار إلى الصناديق التي أحضرتها أمامه، ثم تابع:

- .. فسيباع الممتاز بسعر الوسط، والرديء يبقى من دون ثمن!!

لم تقبل أن تقوم بهذا، ولم تقل لصاحب الرزق، زميلك في المدرسة وصديقك الذي كان، وكنت تناديه بالأستاذ بدلاً من "المْعَلّم" التي يحبها، ويمتعض لعدم مخاطبتك إياه بها. لكنه حين عرف بطرقه الخاصة، لم يرحمك، تكلم معك بقسوة، وصار يرتب الصناديق بنفسه.. ولم يكن

هذا السبب الوحيد الذي دعاك لترك العمل؛ "فالمخفي أعظم!". كنت تود أن تجيب من يسألك، لكنك لم تقل ذلك، ولم تتحدث عما كان يحصل:

"قال الأستاذ:

- انتبه يا عماد.. لا تدع هذا الدواء يقترب من هذين (الخطّين).. ورشّ الباقي!!

لم أسأل عن السبب. فهذا رزقه وهو حر فيه، وأنا أنفذ تعليماته التي يحصل عليها من خبراء مهمين، كما كان يردد هادئاً أو غاضباً من تقصير ما. حتى حين أمر:

- لا تقطف الثمار من هذا الجانب!

لم آخذ الأمر بكثير من الاهتمام.

لكني حين زرته، وقدم لي الضيافة، وشكرته مباركاً داعياً له بالمزيد، قال ضاحكاً مغتبطاً:

- كلْ وقوِّ قلبك، لا تخف، هذه من ثمار (الخطّين)..!

قلت بلا اهتمام:

- وماذا يعني؟!

قهقه:

- هل أنت ساذج إلى هذه الدرجة؟!

وتابع متشفياً، وهو يقدم لي صحن الخضروات:

- أين تعيش، وكيف ستقضي عمرك؟! هل تحب الفقر؟!

- لم أفهم، صدّقني!

أخذ يقلب بعض حبات البندورة والخيار، منتشياً:

- ألا تلاحظ أن هذه الثمار مختلفة عن سواها مما تبيع؟! اللون والشكل والطعم؟!

هززت رأسي أفقياً، محاولاً الربط بين ما يقول، وما هو أمامي، وقبل أن أصل إلى نتيجة مفهومة، أضاف:

- هذه الثمار، ليست مرشوشة بذلك الدواء..

- وماذا يعني؟!

- ألم تلاحظ أن نموها أقل من تلك؟!

استقر في كرسيه بانتصار:

- وأنني لا أبيعها؟!

حاولت أن أبعد ما بدأت أفهمه:

- لاحظت، ولم أهتم.. هذه رغبتك!

- رغبتي وصحتي وأولادي..!

ذهلت:

- وهل تلك المرشوشة تضر بالصحة؟!

تراجع عن اندفاعه وحماسته:

- لا.. لا يأخذك الظن بعيداً، لكن الكثير من هذه الهرمونات غير مضمونة النتائج، لا يعرف تأثيرها، ومنها ما يأتي عبر الحدود، غير معروف مصدره وتأثيره..؟!

لم تأكل، ولم تشرب..

وقفت، وقلت، والدم يتصاعد إلى وجهك.. يكاد يفر من مساماتك:

- فتش عن غيري.. لا أستطيع الاستمرار!!

توقعت ثورته، لكن حدتها فاجأتني.

- ماذا تقول؟! ماذا تظن؟! هل هذه أخلاقك، أمانتك؟! هل تريد أن تقطعني في عز الموسم، من أين آتي بالعمال؟! هل تريد أن تخرب بيتي..؟!

مشيت، وقد وقعت في أذنك كلماته الحادة:

- رح خلّ (أبو نضال) ينفعك؟!

لم أنتظر ليكمل، ولم أنظر خلفي، حيث راح صراخه يطاردني حتى في نومي.. الذي لم يكن في مأمن.

**

-2-

خلّ أبا نضال ينقذك!

عبارة جعلت الكلام الذي كنت أسمعه يتصعّد:

- ما الذي جنيته من علاقتك بـ أبي نضال؟!

سؤال غصصت به مرات، في لحظات قنوطٍ أو كفر أو خيبة؟!

حين انتهت الدورة العسكرية، وكنت في قطعة مشهود لها بالصرامة والانضباط، وتزداد أهميتها مع مرور الوقت وتصاعد الأحداث والضغوط، لم يكن التدخل مضموناً ولا الكلام مسموعاً، ولم يتسنّ له الوقت قبل ذلك، ولم ينتظروني حتى أكمل "العدة" كباقي زملائي الذين يغادرون في إجازة طويلة، ليعودوا فيستلموا قرارات إفرازهم، كل حسب الشهادة أو الحاجة أو الدعم..

أما أنا وقلة من الزملاء، فقد تم اختيارنا من قبل لجنة حضرت إلى الموقع، ولأسباب لم أكن أعلمها، ومن يستطيع أن يسأل أو يعترض؟!.. لم يكن لأبي نضال دور في ذلك، ولم يكن ممكناً أن يكون له دور في سنين الخدمة الأخرى، التي تطاولت حتى حسبت أنها لن تنتهي.. الإجازات نادرة والمغادرات معدودة، والتدريب متواصل، والاستعداد لا يفتر، حتى لتظن أن المعركة الحاسمة مسألة وقت ليس إلاّ!

لم تكن الأحوال العامة هيّنة، في البلد الشقيق؛ حيث لم تغب الشمس على همّ قديم، الأحزاب والقوى والميليشيات التي تتبدل مواقفها، وتتغير مواقعها، وسموت رشاشاتها باطراد.. التوتر والشراسة والهمهمة والأنياب البارزة التي لا تضحك.. وعلى الحدود الجنوبية دوي وتحليق وتهديد ووعيد، ومن البحر مدافع البوارج القادمة من البعيد، وطائراتها تساهم في المعمعة المحتدمة.. ولم يكن الأمر في الداخل أهون، القلق مستمر، وأصداء التفجيرات التي تطال المواقف والحافلات والمنشآت تتردد في أحاسيسنا التي نحاول فيها الخلود لأنفسنا في استراحات تنذر بمواقف أشد، وأوقات أكثر عسراً.

خلال تلك السنوات، كانت لقاءاتي بأبي نضال قليلة. فالساعات التي يمكن أن أسترقها لا تتيح الكثير من الإمكانيات للحديث، إذا ما كان ظرفه مناسباً. لكنني كنت أقرأ علائم الاكتئاب على محياه.. برأته من طلب مساعدتي، واستسلمت لقدري!

لكن قتامته كانت تتجاوز ذلك، وتبتعد تأملاته، ويتطاول شروده، حتى أجد أن من واجبي أن أغادر، فيعتذر وأعتذر، وأعود إلى حيث الدوامة والقلق والتلهي بالركض والصراخ والكبت..

لم أكد أصدق إشاعة التسريح، فكم من مثيلاتها كانت تشع في ظلمة أوقاتنا، وكم من الأخبار والدعايات التي تنسم عليلة تحرك الروح، فتعذب الحياة.. قبل أن تغيب في ثنايا مهمة خشنة جديدة، وظروف مستجدة.

حين صرت في البيت، نسيت ما علي عمله، انشغلت بالمهنئين وسعدت لفرحة أمي وغبطة أبي وارتياح أخوتي.. لكن ذلك سرعان ما تلاشى أمام متطلبات لم يكن من مجال للتفكير فيها، وأحوال تفرض على من كان في مثل سني وحاله كحالي، أن يسعى لتأمين مورد رزق. بعدما كان التفكير في إمكانية الخروج إلى الحياة هو المهيمن.

كدت أنسى شهادتي، لم أحتجها طوال تلك السنين، لم يذكّرني بها أحد، ولم تكن لتفيد في شيء. فالتاريخ هو ما يزرعونه في حاضرك، والمستقبل أن ينجو فتنجو.. لم يكن التاريخ الذي درست سلساً، لا من حيث ظروف دراستك وامتحاناتك، ولا من حيث المنهاج ومفرداته، محاولاتك لم تنقطع للحصول على عمل بأي عقد، مدير المشروع الذي عملت فيه، قدر لك وضعك، وأمّن لك بعض الوقت للدراسة، زملاؤك في العمل لم يقبلوا، أوغروا صدر مديرك فطردك لأنك تتعالى، وما الذي يعنيه أن تكون طالباً جامعياً أو لا تكون؟!

الأعمال لا تنتظر، والكشوف الشهرية لا ترحم، والخطة ومدة الانجاز وسيوف التأخير، ومطرقة الطبيعة الشتوية.. كل ذلك يجعل إمكانية استمرارك تتبخر. بذلت جهداً حتى غدوت حارساً في مشروع. لم تستمر، لا يمكنك أن تكون شاهد زور؛ فرئيس المشروع يرسل من يأخذ المواد ليلاً. لم تصدق أول الأمر، أوقفت السيارة، هددوك، ووعدوك، لم ترضَ. شكوت إلى المدير، فشكاك إلى الواحد الأحد قبل أن تفعل ذلك، وقال: أنت لا تعرف مصلحتك!! فاذهب إلى "تاريخك".

في معمل لصب حجارة البلوك، أمضيت أياماً ثم بدا عليك التعب والإرهاق، من الاستيقاظ قبل الفجر، ومتابعة كل شؤون العمل من مواد وسقاية وتحميل، لكن الأمر الذي دفعك للابتعاد، تأكيد صاحب العمل قلة معرفتك، أو قلة وعيك، أو سعيك لخسارته؛ فليس معقولاً أن يصبّ كيس الاسمنت الواحد لديك نصف ما يستطيع عامل آخر أن ينتج منه، وأحجاره ما شاء الله لا أحد يتحدث عنها بسوء. وهل من الضروري أن يكون الشرط إنزال الحمولة قلباً، والحجر التي تتكسر على حسابك؟!

من يمكنه أن يتعهد ذلك؟! ومن يشترط، أو ينتظر لتجف الحجارة، فالمشاريع لها مدد، والورش الأخرى تنتظر: التمديدات والطينة والدهان.. والناس تترقب السكن والمنشآت التي تزيد الدخل الوطني! ولا تنسَ أزمة الاسمنت وسعره الأسود وسوقه الأكثر سواداً، وحدّة المنافسة في السعر، والدفع على الطالع والنازل. طريقتك في العمل لا تناسب. فشردت من جديد. وعدت إلى

"تاريخك" الذي يعجّ بالمؤامرات والدسائس والحيل والمعارك.. والبطولات التي وجدت نفسك معها محاولاً أن تصمد، ولكن ذلك ليس يسيراً، حتى في أبسط طريقة لممارسة الحياة..!!

وما بين قلق في المرفأ، تعمل يوماً وتتعطل أياماً، وعمل في المشغل الزراعي مع أمّيات وأمّيين وعجزة وأرامل وعانسات، وراتب لا يكفيك أجرة الطريق، أنهيت فترة الدراسة، واستطعت فك رموز التاريخ الذي لن يسجل وقائع حكايتك، التاريخ الذي يكتبه الأقوياء المنتصرون المأجورون، المأزومون، الفارون.. لأن للمبادرين المحتجين.. شرف الشهادة، والخلود!

*

هل كان أستاذ التاريخ يحقق سبقاً في عادته تلك؟! وهل كان ذلك عن قناعة وخبرة ودراية؟! أم أنه كان يتكهن بمصيري حتى يتفّ على كل شيء، وهو يشرح؟! كانت تلك عادته التي عانى منها، وعانينا أجيالاً من الطلاب الذين مروا على تلك الثانوية العريقة، وتوزعوا شعاب الحياة ومنحدراتها.. يتهرب الجميع من المقاعد الأولى التي تشغر، ونستغرب أن يستغرب ذلك، ونتساءل إذا ما كان يجهل حقاً سبب تزاحمنا على المقاعد الخلفية، ويقول حين ننحشر فيها: أنتم على عكس التاريخ، الجميع يحاولون أن يكونوا في المقدمة؛ فيضحك ناصر: الكثير من حوادث التاريخ يذكر أن الكثيرين ممن كانوا في الصفوف المتأخرة كانوا مدبريها!

كان يقول: لكنني أريدكم أن تظلوا في الضوء، وتمارسوا قناعاتكم في وضح النهار ومن الواجهات الأمامية.

قال شعبان: نخاف على رؤوسنا!

وضحكنا. قال الأستاذ: خير أن تواجهوا، حتى لو فقدتم رؤوسكم، سيذكركم التاريخ!

ضحكنا، وتهامسنا: لن يذكر التاريخ أننا نبتل من بصاق أستاذ التاريخ!

فكرت كثيراً بعدها: كم من الناس تحملوا بصاق التاريخ، وهم لا يستحقون، وكم من الذين يتفون بشكل أو آخر، يفترض أن يغرقوا بالسوائل الأكثر قذارة.

لم أكن أتوقع أنني بعد كل تلك المواجهات غير المتكافئة مع حصص التاريخ وسادته، والهروب المستمر، والادعاء بأنني طالب علم حديث، ولا أحب الماضي، ستقترن فصول حياتي مع سيره، وسيكون مصيري مرتبطاً بالخبر الذي يمكن أن يُزفّ عن مسابقة ستجريها الوزارة لقبول دفعة جديدة من حملة الإجازات الجامعية، ومن بينها "التاريخ".. سنوات وسنوات مرت من دون أن يحدث هذا.. ولم يكن هيناً الحصول على وظيفة في ظل التقنين الشديد وقانون العمل الجديد، وندرة المجالات التي تتطلب مثل هذا الاختصاص.

وصرت أستذكر مواقف أستاذنا باستمرار، في كل منعطف، وخيبة، ومرارة.. وأتفّ من دون أن أحدد المقصود، كما في كل الحالات التي يكون المرء فيها غراً أو ساذجاً أو جاهلاً. وكان للذين أواجههم نصيب وافر في السر والعلن، وإن كانوا لا يستحقون، وربما كانوا يقومون بذلك مثلي، وعلي وعلى أمثالي، لتعذر القيام بذلك على من هم أبعد، أو لأن ذلك لا يشفي الغليل. وإمعاناً في العجز الذي يسيطر على مصادر العقل والتفكير، لكني مع مرور الوقت، ومع ازدياد التعرف إلى الذين يستحقون، صرت أكثر خبرة وإتقاناً بما أقوم به وأكثر قناعة!

أستذكر أستاذنا سابق عصره كثيراً، وبت أتصور نفسي مكانه أرشق الكثيرين بما يفرغ شحنات، وهو ما يفعله الكثيرون الذين يتصورون الطلاب درائي تسهل إصابتها، وتسجيل النقاط والأهداف والانتصارات.

*

غادرتَ مكتبه بعد ما ازدحم بأصحاب الحاجات، ولم يعد سبيل لأي تواصل معه، واعتذرتَ من إشغالك إياه بالسؤال عن مسابقات تربوية يمكن أن تعلن، واعتذر منك لعدم وجود بصيص أمل في الأفق.

كان مجرى النهر العريق يتعفن كمدفن قديم، وكانت الروائح قد بدأت تفحّ منه، فتَلْقى الزائر الضيف بعد أن كان يلقى زوار دمشق مصفقاً مهللاً.

ما الذي يجري؟! ولماذا تغيرت الأحوال؟! ولماذا كشرت السماء عن صحوها الذي لا يبتسم، ورقت السحب أو تلاشت، وغاب الشيب عن قاسيون والجبال الأخرى التي تمد النهر بنسغه، وتضخ في شراييه ماء الحياة لأعرق عاصمة مأهولة ما تزال؟! وما تزال تشع رؤى ومبادئ ومشاعر.. مداداً قومياً متصلاً؟!

قال أبو نضال حين كنتما تعبران أحد الجسور فوقه:

تكاد لا تصدق أن في هذا الخندق الطويل المغطى في بعض أقسامه كان الماء، وتكاد لا تقتنع أن المياه تجري من الغرب إلى الشرق، في الوقت الذي يبدو من المنطقي أن يكون الجريان معكوساً؛ فالشرق يمول الغرب شموساً ونفطاً وأساطير، كما أمده بالعلوم والإشراقات والاكتشافات ذات زمن انحط بعدها.

وأشار إلى المجرى، وقد وقفتما:

– حتى الماء الذي كان يجري، ضحل، والمجرى سيغدو كتلاً اسمنتية مبلطة أو غير مبلطة.. لا فرق.

وتفكر ملياً بما قرأته عن هذا النهر الدفاق، الخلد الذي وعدوا به، وقد كان يحمل الأشجار المقطوعة في مواقع جريانه العليا إلى أصحاب المناشر في العاصمة، فيصطادونها بعد انتظار، ثم تتحول بين أيديهم إلى أسرّة ومناضد وأشكال أخرى نفيسة..

تهرب من المجرى الذي يختنق إلى المتحف غير البعيد، لن تدخل إليه، فقد عشت سنين في التاريخ وأحداثه وآثاره، وتمر سنون وأنت تعيش أصداءه الكارثية، ولن تدخل سوق المهن اليدوية، وقد عبرته مراراً. لن تمكث طويلاً في الساحة التي زينتها قامات الشهداء التي تعلقت في مشانقها.. ولن تتصاع للروائح المتواطئة مع الشهية المحمومة، وستجانب الحفرة الهائلة والمضخات الصامة للآذان والثعابين الممتدة منها إلى الخارج، ناقلة مياهها الجوفية التي تكاد لا تنضب حتى تشقق الأرض تحت أساسات بعض أبنيتها القائمة غير قريب منها. تساءلت عن الحفرة، ستجيبك بعد ربع قرن كتلة بيتونية كبيرة ما تزال تجثم بغلظة وقتامة وصلف في أهم مناطق العاصمة عراقة وازدحاماً، تقود إليها مختلف الإشارات من الاتجاهات جميعها.. ستعبرها بالكآبة نفسها، وبالمرارة عينها بعد ربع قرن أو أكثر مرافقاً صديقك المعلم المحصور في صندوق!

تأخرت كثيراً وأنت تنتقل من مكان إلى مكان. لن تقضي المزيد من الوقت أو الضنك أو التسكع الواخز.

ستتأخر عن الحافلات التي ستؤوب في إحداها بلا خفّ لحُنين حتى.. سيكون مفيداً أكثر وواقعياً أكثر أن تسرع للسفر، ولن يكون مناسباً التسكع طوال الدوام والرجوع إليه في مكتبه لمرافقته إلى بيته كما طلب منك بإلحاح، والعودة إلى البحث عن منفذ لك مريح، ولن يكون ذا جدوى أن تذهب لتنام لديهم؛ فلا شيء طارئ، ولا ثلوج في النبك أو دير عطية، ولا انقطاع في الطريق بسبب الضباب في حسيا أو الجليد في القسطل.

ولا امتحانات جامعية ولا عسكرية.. كل هذا انتهى زمنه، وناست أصداؤه، وانحسرت تفاصيله بكل حدتها وضيقها وآثامها. وتلاشى دخان احتراقها الذي كان يعميك، وقد تجاوزته بصبر وأناة وجلد وواقعية؛ لا بد مما ليس منه بد!

لن تذهب إليهم في الدار في غيابه، وإن كانت فرصة أن تراها لا تفوّت، ولن تكون حالك كبيرة الإقناع، وإن كنت تبحث عن سبيل لك، وتجدّ في السعي إلى وظيفة، ومن ثم يمكن التفكير بالزواج، ويكون مشروعاً أن تجني على أحد، وقد تندفع لمشاركتك تلك الجناية من تنتظر خطوة منك مبادرة أو تصريحاً. أو تتخيل ذلك، فتسعد، وتتراجع عن ذلك فتكتئب، فماذا يمكنك أن تفعل؟!

لو كانت الأحوال في لبنان آمنة والطرق إليه سالكة، لغامرت في الذهاب إلى حيث كان أبوك، وأبو نضال وغيرهما الكثير. لكنك تعرف ما يجري، وقد صار الهاربون من الجحيم نزلاء في المدارس والقرى والأحياء. فأين المفر؟!

لن تذهب إلى زميل لك يقيم في إحدى الغرف الضائعة في حي مخالف، فقد لا تعرف طريق الوصول إليه، ولا مواعيد وجوده. زرته مرة، وعجبت كيف يمكن أن يعيش المرء في مثل ذلك الحيز، وكيف يمكن أن يوجد هواء كاف، أما الماء فبالقطارة والانتظار، وأما الروائح فمظلمة كثيفة. وتساءلت عن معنى أن يتفاخر صديقك هذا وآخرون لا يختلفون ظروفاً ومواقع أنهم يعيشون في الشام!

ستنتظر الحافلة الكبيرة كي تمر في طريقها إلى العباسيين؛ حيث محطة الانطلاق. ستسعى للإياب باكراً، ليس لأنك راضٍ به غنيمة؛ بل لأن الطريق إلى القرية من مركز المحافظة أصعب وأوحش وأقسى من الطرق الأخرى بعد أن تغيب الشمس. ولست حاضراً لاستئجار سيارة تقلك إلى البيت مساء، ولست مستعداً للتسكع على شاطئ البحر، وقد تعبت من شاطئ النهر، فلا الروائح أروَح، ولا الوقت أكثر ألفة. ولن تبات في المدينة التي لا تبعد عن الدار كثيراً، لكنه ليس قليلاً على أمثالك، وفيها من الأقرباء والأصدقاء؛ كيف ستسوّغ أمر مبيتك فيها، وما بتّ في دمشق؟! ومن جاهز لاستقبالك هذه الأمسية أو سواها؟!

عليك انتظار "أم كامل" الحافلة الغاصة بالذين يتزاحمون ويتضاغطون بسبب ومن دون سبب، سوى وجود بعض الراكبات. لم تنتظر تلك الحافلة لهذا السبب، لا تحبه؛ بل تستهجنه؛ بل لأن من المستحيل استئجار سيارة من تلك السيارات المحمومة صفرة وسرعة وجشعاً، كي تظل لديك أجرة الطريق الطويلة، التي ستسلكها حانقاً محبطاً كسيراً، لأنك لا تستطيع حتى اصطحاب بعض الحلويات الشامية أو النبكية التي يحبها أفراد أسرتك، كانوا ينتظرونها (البرازق، والكعك المسمسم، والهريسة..) أيام امتحاناتك وإجازاتك المتباعدة. كيف كنت تتدبر أمر أسعارها من الرصيد المتضائل إلى درجة التلاشي؟!

وماذا تبقى من رصيدك الآن؟!

تحاول أن تستجمعه، وتتساءل، وقد تشتُم أو تتفّ.. أو تنتظر!

***

الفصل الثامن

-1-

بعد كثير أو قليل، سنصل، سيصلون إلى القرية، وأنتهي إلى المحطة الأخيرة. سيصلون، منهم من يقيم عليّ بعضَ اليوم، وينتهي إلى بيته، أسرته، وظيفته، أرضه، همومه، مشاغله.

ويستعد –ربما– لرحلة أخرى مشابهة لواحد آخر، قد يكون هو ذاته. وهذا ما يفكر فيه الآن، أو بعض اليوم، أو أياماً قادمة قليلة.. ريثما ينتهي واجب العزاء. ومنهم من يقيم بعض الأيام، ويعود من حيث أتى.

بعد قليل أو كثير، سترتسم تلك الندبة الرطبة في تلك المقبرة الوعرة التي تطل على القرية، وبعض القرى الأخرى التي شهدت الكثير من شقاوتنا وعنائنا، وتشرف على الأراضي التي تتماوج فيها الزروع المخضرة، والمفترق الذي يقود الخطو إلى دروب غدت عريضة ومعبدة رغم ندرة العجلات، وكانت مساراً يومياً تنجذب إليها الأقدام، وتنشدّ الرؤوس إلى السفوح التي تعمرها ألوان الحراج المتنوعة، وتنفتح الرؤى إلى رؤوس الجبال التي تعممها الأشجار، وتؤانسها الوشوشة الصنوبرية والقامات المتعالية، أو الوحوحة المبثوثة في مخابئ طبيعية، أو مصطنعة..

كثير أو قليل.. لا معنى لهذا، لم يعد له معنى. فالكثير قليل في الحياة.. أو ما تبقى من العمر الذي يشك في إمكانية احتسابه في عدادها؛ فما معنى الحياة حيث لا يحس بك أحد؟! والقليل كثير في ضفة ستغدو ذكرى مع كل ما تضمنته وما شغلته وانشغلت به من مشاعر وأحلام وأحداث ووقائع وخيبات.. الإحساس بالزمن تغير منذ وقت طويل، ضُغط كثيراً، ثم تمدد، وتثاقل حتى كاد يتلاشى. لم يكن مريحاً يوماً، حتى حين صار عدد الأيام والليالي شغلاً، أو انشغالاً، كان الشعور بالفقد والخسران يراود اللحظات والأفكار، ويقلقل المضاجع والمجالس. ها هو الإحساس يتضاعف الآن، إزاء ما تبقى من فسحة أو مجاز.. لا يمكن أن أستهلكه ممدداً في صندوق، بعدما عدت إليه حين بهتت غمامة دخان العاصمة، وضاعت خلف الجبال التي انسربنا في أحد معابرها المشغول بخبرة، والمكتشف بالغريزة قبل أن ترسمه المخيلة واللوحات..

أشياء كثيرة، تستطيع الغريزة أن تؤمنها أو تشير إليها، لو استطعنا قراءة ملامحها أو المحافظة على إمكانية عملها.

أشياء كثيرة، كان يمكن أن تكون أكثر نجاحاً، لو لم نعمل فيها غاياتنا ونوازعنا.

النوازع والغرائز تبرز تلك الأفكار التي شغلتني، والحماسة التي هيمنت على أقوالي وأفعالي ونشاطي. لم أكن وحدي بالتأكيد، ولم يمكن الأمر ليختلف كثيراً بيننا، في البداية، فمن يمكن ألا يهتم بالتملك، ويسعى إلى التحرر من كل سطوة؟! ومن لا يود أن يكون صاحب قراره، ومن يرفض أن يشبع ويسعد ويكتفي ويحصل على كامل حقوقه؟! وخاصة ممن عانى وتحمل وقاوم وكمد وكتم وجاع وبرد وذل.. أو شاهد والديه، أخوته، جيرانه.. في مثل هذه الحالات..!!

ألا يفسر ذلك انسياق الكثيرين إلى هذه المبادئ والسعي للانتماء إليها، والعمل مع من يتبناها بكل جدية وحرص وتضحية؟!

لكن.. ما الذي حصل بعد ذلك، فكرت فيه كثيراً، ولا معنى للتفكير فيه الآن، فيما مقطرات الوقت تشحب وتَهِن.. سأتحرك صوب مُرافقيّ، لأرى كيف يعيشون الرحلة الأخيرة معي؛ بل مع رفاتي التي يحبسونها في صندوق مربوط إلى سطح هذه السيارة..

لماذا أصر نضال على أن يكون إلى جوار سائق الإسعاف؟! لماذا لم يكن معهم؟! ولماذا تركوه وحده؟!

نضال يحتاج إلى مساعدة في الصعود والنزول، لا بأس، يؤمنونها له، نشيطون في هذه أحياناً، لكنه يحتاج إلى عون من نوع آخر؛ هو ولي العهد، الفاقد الأكبر، حامل المسؤولية التالية.. ليست يسيرة! وهو رغم عجزه، سيتحملها واثقاً من ذاته، سيتحملها أكثر من أخيه وأختيه.

ها هو يضع عكازيه جواره: فخذاه الضعيفتان، وعجيزته الضامرة، وساقاه الناقصان بجزءيهما المتدليين اللذين لا يصلان إلى أرضية السيارة، رأسه المرفوع، وظهره المحدودب وعيناه الجديتان.

ها هو بعناصره هذه يجعلني أحس بالكآبة والندم والخسارة، ويحملني مسؤولية مُرّة.

كان يمكن ألا تكون حاله كذلك، لو أخذ الجرعة تلك في وقتها؛ بل لو تناول الجرعات المطلوبة، يوم كان في سن مناسبة.

لم أكن في حال تمكنني من التفكير فيه، أو الاهتمام به أو بأمه، والانتباه إلى ضرورة التلقيح ضد شلل الأطفال..

كان صحيح الجسم، بادي السعادة والانشراح، ومن النادر بكاؤه، حتى حين يجوع. وحتى في الوقت الذي لم يكن لدى أمه الحليب الضروري، وكان علينا أن نؤمن الغذاء البديل. تضاحك قبل الموعد المألوف، وحبا بسعادة، وسرعان ما انتصب ماشياً، دون استناد جدي إلى أغراض البيت؛ لم تكن في الدار أغراض كثيرة يمكن الاعتماد عليها. لا سرير، ولا خزانة. كرسي مخلع، وصناديق من الكرتون.. فكرنا: ربما ساهم هذا في اعتماده على نفسه أكثر، وساعد على نموه المطرد، وجريه في المسافة التي يمكن أن تؤمنها الغرفة بعد ترتيب مدروس لما فيها من أغراض.. كما كانت حال أبيه؛ بل إن حال نضال أفضل بما لا يقاس. فالوحول والغبار والحجارة والتراب والحصى والشجيرات والأشجار هي التي دادَتْهُ، والكائنات غير البشرية ناغَتْه..

هل تتحمل أمه المسؤولية؟! لُمْتُها، وأنّبتها، رغم علمي بجهلها في مثل هذه الشؤون. هذا الجهل الذي اتهمتها به طويلاً، وربما حملتها مسؤولية عدم إكمال أخيه دراسته، وعدم الانتباه كما يجب إلى البنتين. أشرفتُ على الأخيرة، بعدما صار لدي الوقت اللازم، في حين كان الوقت قد فات على أختها وأخيها. أما نضال فقد بقي الغصة التي تدميني، على الرغم من الحكمة التي عرفتها فيه، والصبر الذي دفعني إليه، والمواساة التي أمنها لي، في الوقت الذي كان علي أن أواسيه، وأن أعتذر إليه، وإلى سواه ممن قصرت تجاههم..

**

-2-

السماء تمد أطرافها إلى الأرض، أم الأرض تتشبث بأذيال السماء؛ هي ذي العناصر القريبة تتعالق مع العمق السماوي عبر غلالته الكثيفة، فتغمض، وتذوب الحدود، في مناسبة طالما شدتني إلى حضورها ومعناها.. فلمَ تتكرر الآن.. الآن؟!

أهي احتفالية باقتناص كيان أو استرداد روح؟!

أم محاولة إعثار لأوبة أخيرة؟! فما الفائدة أو الجدوى؟!

كانت أمنية في السنين المتأخرة ألحت في الأيام الأخيرة أن تتيسّر الرحلة هذه، بعدما تعثرت الرحلات السابقة. هي الأشياء بخواتيمها، والأقدار تحمل النصر المنذور لها كل حين. لكن إحساسنا به يختلف، حين تكون المغلوبَ الذي على حتفه تقام الولائم!

الطبيعة في لهوها الموسمي لا تخيفه كثيراً، لكن مفارقاتها التي تشتد قوة وقطعاً في أوقات غير محسوبة، تبدو مقلقة.

ليس الوقت أوان ثلج. منذ أيام يراود الخريف الأشجار عن أثوابها البالية، ويهز الأحاسيس منبهاً بقرصة برد، أو رعشة مخاتلة.

لم يعد المطر يبكّر، ناهيك عن الثلج، ولم تعد الفصول إياها!

الثلج ليس غريباً على هذه المنطقة الوسطى بين العاصمة والمدينة العديّة، لكن قدومه في هذا الوقت يحمل أكثر من سؤال أو بشرى لمن يعيش بعد!

الثلج لم يكن غريباً حتى على تلك الجبال التي تساكن البحر، والقرى المتاخمة للزرقة، متشبثة بالسفوح، تستقبله بخوف ألا تتحمله السطوح الترابية.. حتى كنا نخرج لنخفف عنها، ونرفع تراكمه عن الأبواب التي تكاد تغص، فتغوص أقدامنا الحافية في الثلج والطين..

القطيع يجوع، ويخور، وزوادات الحطب تنفد، والدخان يملأ الفضاءات القليلة ويخفف الرؤية.. مقارباً بين النهار والليل، مداخلاً اليقظة بالسبات!

حتى المطر لم يعد يطيل الإقامة هناك؛ دورة الطبيعة، احتدام الغازات في الجو، انثقاب الأوزون، انحسار الكثير من الغطاء النباتي.. أم ضعف الإيمان، وسيادة الفجور، وازدياد القتل والظلم والاعتداء؟! تَضاعُفُ الكره والحقد والغيرة والحسد والنميمة.. أم أكل لحم الميت؟!

لا يهم، لم يعد يهم، فقد وفَرتُ لحومهم، رغم أنهم أكلوا لحمي حياً، فماذا سيفعلون بعد موتي؟!

لا يهم، الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ! تلك ميزة الموت، أولى ميزاته، والأهم أنني لم أعد أحس، رغم الثلج الذي يملأ النظر، ويقترب من مسار العجلات. لا أحس بالبرد، على الرغم من أن ما يدثرني لا يزيد عن ثوب واحد؛ بل إن ردائي الآن، وأنا خارج ذلك الصندوق، ليس سوى الثلج ذاته، البياض، الرذاذ، البرودة.. التي لا أحس بها، سيحس بها من يراني من يمكن أن يميزني..! هل يقدر أي منهم على فعل ذلك؟!

سأجرب أن أزورهم في تلك السيارة، لأرى ما يفعلون؟! هل هم صامتون؟! هل يتحدثون عن الموت خاشعين، أم هل يتكلمون عني، يذكرون وقائع وأحداثاً من تاريخي..

اذكروا محاسن موتاكم!

هل يعرفون هذا القول؟! هل يطبقونه؟!

لا.. لن أغضب، أو أنزعج إن ذكروا السلبيات.. لا أحد يخلو منها، ولكن لينصفوني! طالما تمنيت ذلك، كنت مهتماً به، ومأخوذاً في كل تلك الاجتماعات المنذورة للنقد، أو تلك التي تتخذ من النقد البنّاء شعاراً أو ستاراً، وتبالغ في ذلك لتضيف إليه النقد الذاتي!

كنت أقول: دعونا نطبق الأمر على أنفسنا، وجهاً لوجه، لا أن نحفر الأخاديد تحت الأقدام، ونظهر حسن الملقى وطيب الكلام..! لو سارت الأمور كما رغبت، كما تقول المبادئ والأفكار التي ارتضينا، لما كانت الدنيا كما هي عليه الآن!!

ليقولوا ما لي وما عليّ! لن أغضب أو أنقبض أو أتذمر؛ بل سأكون مسروراً رغم كل ما بي، لو اطلعت على إحدى السلبيات التي لم أستطع تبيّنها، أو لم أقبل بها، أو لم يقلها أحد أمامي!

لكن.. لا.. لا يمكن أن أبقى دون قلق، وأنا أشاهدهم غارقين في الضحك. غير معقول، يتبادلون النكات والمزاح والطرائف، وفي بعض المفاصل بين طرفة وأخرى، أو قبل الانتقال منه ليتحدث إلى آخر، يرمون عبارة رحمة للميت، أو لمن كان سبب الاجتماع دون موعد.

ومع اشتداد صعوبة الطقس، تبدأ علائم التذمر والقلق، وتنطلق الدعوات بالتيسير، والتلطف بالعباد الخطائين الغافلين.. إكراماً للميت الذي يجب دفنه، وللأحياء الذين سيكملون مراسم الحياة. فالحي أفضل من الميت.. وهذا ما يستدعي موجة جديدة من النوادر والحكايات والضحك المقلقل.

لم يشاركهم عماد في الحديث والصخب، أراه يجاملهم بابتسامة، أو يبادر إلى إطلاق دعوات الرحمة، فيتذكرون ويسارعون لمنافسته في ذلك..

هل أعتب عليه؟! أو ألومهم؟! هل يمكنني أن أفترض التزامهم الصرامة في الحديث، والجدية في الكلام احتراماً لحضرة الموت؟! لم يكونوا قريبين، ولم يكن لي مع غالبيتهم مسيرة طويلة، أو معايشة مديدة منذ زمن طويل!

لكنني لا يمكن أن أقبل أن يتصرف الآخرون في السيارة الصفراء، كما يتصرف هؤلاء. لا يمكن أن أتصور ذلك على الأقل، فهم الأقربون الأولى بالحزن والبكاء، والمواساة. وإن كان التصبّر مطلوباً، والرضا بقضاء الله وقدره من آيات الإيمان!! كانوا صامتين، من دون خشوع، يتهامسون أحياناً بكلمات ناتئة. ما زالوا غير راضين عن مراسم الخروج، وما زالوا غير متفقين على تفاصيل الدفن، والمدة التي سيقضونها في القرية، وفي أية دار سينزلون؟! وأيام العزاء الأخرى في دمشق. ما زالوا يفكرون في المسألة من مختلف الحساسيات والظهور وكلام الناس في القرية والعاصمة.

ثائر يرفض أن ينام إلا في فنادق المدينة غير القريبة، بعد انتهاء العزاء كل مساء. وأخته ثورة المتذمرة من عدم وجودها إلى جانب خطيبها ذي النجوم، لا تستطيع النوم في بيوت القرية التي تتخلف سنين ضوئية. والأم حائرة ساكنة تخفف من الأصوات، حتى لا يلحظ ذلك المشيعون

الآخرون، أو حتى لا تغضب روح الميت التي ستبقى تحوّم حتى إغلاق القبر بإحكام، وحتى لا يزداد نشيج الأخت الصغرى، الذي يتواتر مع كل رأي يتغافل عن مناسبة الموت، ويتناسى من يكون الميت، ويبدي اضطراباً من سوء الطريق، وعسف الطقس، وبئس المصير!

**

-3-

– بماذا نفعك أبو نضال؟!

تساؤل أعرف أنه يتردد من أفواه الكثيرين، وأحسه في ملامح عماد، لم يقل لي ذلك من نفسه. وأظن أنه يتمنى أن تتيسَّر أموره عن طريقي أو أية طريق أخرى، ليكون اسمي في منأى عن متناولهم. أعرف حساسيته وصدقه ونبله، وأعرف أنه لا يقبل ممارسة الغلط، أو الظلم، ولا حتى أن يكون شاهداً عليه، فكيف يقبل أن أمارسه؟!

من حقه أن يكون له مقام محترم، مثل الكثيرين، وفي أماكن يفترض أن تكون لأمثاله؛ أعرف ذلك ومقتنع به، وأعترف أنه كان علي أن أبذل جهداً أكبر في سبيل ذلك، مع أنني لم أقصّر.. ولكن، ألا يعدني الكثيرون غيره مقصراً؟! ألا ينظر إليّ ثائر وثورة على أني سبب بلائهما؟! ألا يعتقدان أنه كان بإمكاني أن أجعلهما يعيشان حياة الترف والبذخ والثراء، كما يعيش أمثالهما من أولاد زملائي، رفاقي، تلامذتي؟!

ألا تحاول زوجتي أن تشعرني بمنّة بقائها إلى جانبي واعتنائها بالأولاد وشؤون البيت، في الوقت الذي تعيش فيها مثيلاتها فوق الخدم والحشم والسائقين الذين يهرعون، حين تلوّح لهم إحداهن، إلى الحلاق أو الخياط أو السوق..؟! أقرباؤها حانقون، وأقربائي عابثون، وأنا أين أذهب؟! وكيف أفكر؟!

ألا يعرفون أن مع كل طلب كنت أطلبه يراق ماء وجهي، حتى لو كان منطقياً؟! فكيف إذا لم يكن كذلك؟! ألا يفهمون، وقد شرحت أو لمّحت أو زفرت؟!

إن كل كلمة من أجل أيّ كان مع أيّ كان من المسؤولين الصغار الكبار، سيكون لها ثمن: كلمة مماثلة، واسطة أخرى أمرّ وأعظم؟!

وما هي نسبة الموضوعية في ذلك؟! وماذا تستطيع أن تقول لهم؟! يقولون، وسمعت بعض هذا الكلام من الذين يصدقونني القول حفاظاً على سمعتي: من لا يخدم الناس لا يستحق الاحترام.

هذا كلام حق، يراد به باطل، إن كل المبادئ التي اعتنقت، والأفكار التي آمنت بها، كان الهدف منها خدمة الناس، الناس الذين يستحقون، الناس الذين يحبون العدل والإنصاف، ويقتنعون بما تخولهم به إمكانياتهم، لا أن تخدم من دون معايير وبلا اعتبارات منطقية أخلاقية وقانونية..

أما المقربون فلديهم مثل آخر لا يقل مرارة: من ليس فيه خير لأهله، لا خير فيه!

أفهم ذلك، وأتفهم أن من حق أهلي ومن واجبي نحوهم أن ينالوا ما يستحقون.. لا أن يأخذوا حقوق الآخرين!! لو كان الأمر كذلك، لكانت المواقع والمناصب والمسؤوليات جميعها تخص أقرباء المسؤولين!

يضحك بعضهم ويقولون:

- أليس هذا هو الواقع؟! مع زيادة في من يتقربون بالمسؤولين بطرق ووسائل وأساليب..

بماذا نفعتُ عماد، وماذا قدمت لأسرتي وأهلي و...؟!

لقد عملت للوطن، وفكرت في المواطنين جميعاً، أليس في هذا خدمة لأهلي وأسرتي؟!

وماذا قدموا لي هم؟! أليس من حقي أن أسأل أنا أيضاً مثل هذا السؤال؟!

لماذا لم يقدروا أمانتي وصدقي مع نفسي ومبادئي وأفكاري؟! لماذا كانوا ينهالون عليّ بأقسى ما يفعل خصومي في المنافسة غير الشريفة؟! ولا يتورعون عن اتهامي بالتكبر والنكران وعدم الأهلية، ومن كان يشفق عليّ يصفني بالعجز وربما بالغباء؛ وهل أمرّ من ذلك؟! لقد خرجت أو أخرجت في وضح النهار، وبتهم سخيفة: عدم قدرتي على المواكبة، وإعاقة حركة التيار!!

هكذا، ببساطة، انتهت قضيتي، هل خرج صوت في صالحي؟! هل ضج الشارع بذلك؟!

قد يستغرب الكثيرون هذا السؤال، لأننا لم نعتد على ذلك، يضج الشارع بقرار ويسكت بقرار، تقتحم المسيرات الساحات، وتسد الممرات والطرقات وتعطل المدارس والوظائف والمصالح في موعد محدد، وبشعارات محددة، وتنتهي بأمر.

هذا صحيح، ولكن هل جرب أحد أن يحتج على قرار كان؟! كم من الناس يرفضون أن يأخذوا أماكن سواهم؟! كم نسبة الذين يخرجون من مواقعهم ليتسلمها من هو أجدر منه؟!

ربما سيداخل المجادلون:

- من الذي يحدد الجدارة، الكفاءة؟! من الذي يقرر جهة الحق؟!

أقول لهم، كما كنت أقول:

- القانون.. القانون هو الذي يحدد، المعيار الواحد للجميع، الشهادة والسلوك والشخصية.

يقهقهون:

- ببيضة يعطيك المختار شهادة حسن سلوك، حتى لو كنت ناهباً مقام المزار!

أرد أيضاً:

- ليس المختار وحده من يقرر، هناك آخرون، هناك عمل وإنجاز وحضور ومبادرات..!!

قالوا:

- كأنك تعيش في المدينة الفاضلة؟!

أقول:

- على الأقل أفكر أن أعيش فيها، أو أسعى إلى ذلك؛ أليست المبادئ والأفكار التي نقدسها تقر بالكثير من هذا؟! أليس التوزيع العادل للثروة وتكافؤ الفرص والأرض لمن يفلحها ويعمل بها.. تدل على ذلك؟!

رب قائل:

- هل تعتقد حقاً بأن أحداً سيتظاهر في الشارع من أجل إقالتك أو إقالة أمثالك؟! لو كان الأمر كذلك كان على الناس أن تراقب الحال، وحين تجد تغييراً تهرع إلى الشارع.

بالتأكيد ليس هذا هو المقصود، ولكن لا أعتقد أن هذا هو السبب الذي يجعل الكثيرين ثابتين في مواقعهم.

- لأنهم ثابتون على أفكارهم ومبادئهم!
- لأنهم ثابتون على مصالحهم وولاءاتهم و..
- ولماذا لم تثبت؟!
- بل أنا الذي ثبتُّ وأثبتّ صدقي..
- هل تعتقد أن الناس سيحتجون حتى لو أقيل من ساعدوهم في مصالحهم، وكانوا يتمسحون بأذيالهم؟!
- بل سيهرعون إلى آخرين خَلِفوهم.؟؟
- وتلك هي المسألة الأمرّ والأعظم..

**

-4-

انتهت برهة الصحو التي سمحت بإصلاح سيارة الإسعاف. من حسن الحظ، حظ المرافقين أن العاصفة الثلجية لم تستمر، وأن الطقس عاد للانفراج وفق تعابيرهم. وفيما كان النهار يتجاوز منتصفه، أخذ الموكب يمضي في الطريق بطيئاً حذراً، هادئاً. فقد تعب المرافقون من الكلام، ووهنت الهمة على استيلاد نكات أخرى، أو حكم وأمثال تساعد على تحمل المزيد من الوقت والجهد، قبل الطقوس المضنية.

عبرت السيارات أعمدة الدخان التي تحاول تسلق الفضاء بعسر، ويبعثرها الهواء في اتجاهات متقاربة، فتزيد من ضبابية المشهد الذي لم يزل يهيمن، على المنطقة كلها.

كنت تشعر بالأسى من منظر الدخان متعدد المنابع هذا، وتحس بمعنى ما تكرر الحديث فيه عن ضرورة الاهتمام بالبيئة التي لم تعد تستطيع استيعاب كل هذه السهام القاتلة، وهي علاقة متداخلة بينها وبين تغير الطقس وتشابه الفصول. كان ذلك يؤكد حقيقة البحث الجدي عن توازن بات يُفتقد باطراد، ليس فقط في مدى تزايد احتياجات البشر وضرورات تأمين متطلبات الحياة المستجدة مصافي ومصانع وآليات وموارد.. بل في ضرورة أن يتم ذلك بخبرة وفهم حضاري وإنساني، واتباع الطرق الجديرة بالحفاظ على الجدوى الاقتصادية والانسانية أيضاً.

عن أي توازن تبحث؟! وقد صار ما صار؟! انتبه لنفسك من أن تنقلب عن ظهر السيارة، فقد دار الموكب مغيراً سمته، جاعلاً الدخان والمصفاة كلها خلفه.

كنت تعد هذا الدوار نقطة تحول مهمة في رحلتك الغادية أو الراجعة. وقد اختلفت فيما بعد معاني الذهاب والإياب؛ فهل تذهب إلى القرية وتعود إلى دمشق، أم تغدو إلى العاصمة وترجع إلى القرية؟! كنت تفكر طويلاً في ذلك، مع كثير من الأحاسيس المتناوبة؛ لم يعد هذا مهماً، فها أنت الآن في عودة لا ذهاب بعدها ولا إياب.

"ها قد بدأت مطالع الغيوم تظهر، مشهد يترجّع في الذاكرة حنيناً ومرارة. منذ زمن بعيد، لم ألحظه. لم أكن مهتماً به زمن الانشغال الأوسع بما يتجاوز الحدود بين المناطق والجهات، لم أنتبه إليه وقتئذٍ، كما كنت ألاحظ في الأزمنة الأولى. لم أكن مقتنعاً بالفصل، أو التفكير فيه فسموني بالبرّي! من المؤكد أن الأمر لم يكن دعاية فحسب، صار تهمة، لا تنال مني وحدي، بل تقصد الكثيرين الذين أمّوا المدينة بعاداتهم أيضاً. صحيح أن بينهم من تمدّن، لبس وأكل وشرب وسهر وتعلق، نسي القرية، وغرق في الضجيج.. وصحيح أيضاً أن هناك من تهجّن فأضاع أشياءه الريفية، وما وجد ما يناسبه من أشياء المدينة!

لم يكن الأمر يعنيني، إلا في حدود الاستهجان والشفقة والنصيحة، وقد راجعني منهم الكثيرون. لست وصياً على من لا يريد رأياً. ولم يكن لرأيي ذلك الأثر السلبي الذي يتوهمه البعض؛ فصاحب الدار العربية الذي قصدته لم يتردد في القبول بسكني لديه في غرفة تطورت إلى اثنتين، بعد أن تزوجت، ولم يضايقني، ولم أتضايق من عاداته وعادات زواره؛ كان لتلك الطقوس حيوية وتودد وألفة تتجاوز الحجاب الذي ترتديه النسوة، وطلب الاستئذان في الدخول وفتح الطريق.. أو الإعلان عن ذلك بالنحنحة أو الطَّرق على الباب.

لم يكن الأمر مشكلة بالنسبة إليّ. تلك خصوصيات أحترمها، وأغض الطرف والانتباه عن أية حركة أو نأمة في الجوار. لكن حركة معينة تكررت لم أستطع تجاهلها، وكانت صاحبتها قادرة على اجتذاب التنبيه إلى حضورها الذي زاد منه كل تفصيل من عناصره شدة الحرص وصرامة القيود..

لكن الأمر لم يتطور أكثر مما تتيحه الظروف العصيّة: سلام فكلام.. ولم يكن أمر البحث عنها حين غابت يسيراً. هل خافت؟! هل ضبطت؟! أم اختارتها خطّابة حاذقة؛ فرائحتها تكفي، أما صوتها فعذب، وعيناها فقارستان..!! لم يخف جاري قلقه عليّ كما أفصح، ولم أقلق إلا على غيابها.. الذي استطال، وحوّل انتظاري شوكياً، لم يعوّضه حضور البديلة التي صارت زوجتي عن ضياعها، ولم تكن الملامح التي أخفاها الحجاب توازي ما كانت تصر على إغفاله، إلا أحياناً قليلة..

هل تسرعت؟! العمر والانشغال باجتماعات سرية وأوراق مخبأة، كنت أراها بالدرجة نفسها من الإثارة التي تبعثها ملامحها العابرة..

الغيوم تتكاثف، تعكر الصحو الذي لا يؤثر كثيراً على طقس البرودة الذي يثيره الثلج.. لكنه الصحو الذي يسود أياماً كثيرة، الصحو الذي يختلف عما يعنيه في تلك البقعة التي أقصدها.. ولا سيما في أيام المطر الذي لا يكاد أن ينقطع حتى يتجدد على مدى أشهر.

مثل هذه الانفراجات.. صحو مثمر، تهرع النسوة لإملاء التنانير المكشوفة بالحطب المبلل، وتتسارع ألسنة الدخان من مواقع متعددة، دخان يحمل رائحة الخبز الطازج، بعدما رقد العجين أكثر من الوقت الضروري، أو يكاد.

صحو تتراكض الدواب فيه إلى أقرب الحراج، ويسارع الرجال إلى إحضار المزيد من الحطب، وإصلاح الأسطح الطينية التي سمحت لبعض الماء بالعبور المقلق.

صحو، يملأ الجرار من العيون التي فاضت.. وباتت مياهها تحتاج إلى ترقيد قبل أن تدخل في الاستخدام الضروري.. صحو تترجع فيه أصوات السيول والسواقي والمزاريب تهدهد آخر جرعاتها، قبل أن تستأنف الفحّ لدى عاصفة لا تتأخر..

الصحو يستمر، فيزداد القلق، بعد أن تكون الأرض جفت، والزروع قاربت على النضج، الينابيع تأخرت في الظهور المبهج، والآبار لما تمتلئ بعد.

حينئذ يصبح الدعاء مبرراً، والقلق مسوّغاً. فهل يقترب الصحو ذاك من الصحو الذي يهيمن غالبية العام يستقطع بأيام مطر، يكفي القليل منه مع الثلج الذي ينتظر فوق الجبال والسفوح، لإغناء بردى، ورفده بما يجعله شرياناً للحيوية والغناء والسيران..

فكرت، صرت أفكر في معنى الصحو، بعد أن..

***

الفصل التاسع

-1-

ها هي مطالع الغيوم من جديد، لم أغب طويلاً عنها، كما لا تغيب عني.. اعتدت العكر في السماء التي تتناهض من الذرا بمزاج طفولي مشاكس، أو هواية فنان حديث التشكيل، أو غواية الامتداد غير المحدود.. لا معنى للاستقامة ولا ضرورة للانحناء المدروس.

ها هي مطالع الغيوم.. أرجوها أن ترق قليلاً، حتى نتمكن من دفن باحترام، لا بد أن المطر سيؤثر في حجم الحضور، هناك من ينتظر منذ ساعات. تأخرنا، هل ينتظرون أكثر، والشمس تميل بعناد إلى الغرب؟! ربما يتحملون المزيد من الجلوس الممض أو الوقوف المتعثر، أو التمشّي المضطرب.. لأن لأبي نضال موقعه في نفوس الكثيرين، حتى الذين لا يعرفونه من القرى المحيطة، والمدن القريبة.

ستغيب الشمس، وتزداد القتامة، ويتضاعف الانقباض مع هطول المطر، وسيكون مسوغاً لمن بقي وقتاً مديداً في انتظار وصول الجنازة أن يغادر. لن يلومه أحد. ولن أكون سعيداً إذا لم يكن حشد المشيعين الذين يستقبلون أبا نضال ويودعونه، أعظم من أي حشدٍ آخر.

المطر لم يمنع حضور المحتفلين بالمناسبة السنوية المهمة أمس. قبل الموعد بقليل توقف الهطل. تحدث المسؤولون بسعادة: هذه بَرَكَةُ الذكرى، كما كانت صحوة الفعل في الماضي، لكن الحضور لم يبيّض الوجه، أرادوا أن يحمّلوني المسؤولية: لم تبلّغ كما يجب، لم تسعَ كما ينبغي..

لم أهتمّ لذلك. ليست أول مرة يكون الحضور فيها على هذا الشكل، وفي مناسبات لا تنتهي، حتى في عز الربيع، أو الصيف.. لا يتغير الحال إلا في حدود ضيقة.

لم أقل لهم إنني مشغول بزوجتي التي تتثاقل وتتوجع في آخر أيام الحمل، ولم أقل إنني كنت أحضر وسائل الدفء والخبز والمؤونة التي نحتاج إليها أكثر في الأيام التالية.

سننشغل، ويتزاحم المهنئون..

انتظرناه طويلاً، تأخرت في الزواج، هو المولود الأول. عزمت على تأخير الإنجاب رغم ممانعتها. قلت مفسراً:

- حتى تصبح الحال أفضل، لن أجني على أحد.

قالت:

- ولماذا جنيت عليّ؟!
- لم ألزمكِ.
- هذا جزاء القناعة يا عماد!
- القناعة لا ثمن لها، ويمكنك أن تجدي حلاً إذا تغيرت قناعتك.
- لا تجعلها تتغير، ساعدني على ذلك.
- لم يكن الأمر مفاجئاً لكِ، لم أخبئ شيئاً عنكِ.
- ولكن راتبي..
- لا تذكري راتبك أمامي، لم أتزوجك من أجل راتبك، ولا أنتظره.
- وهل أنا غريبة؟!
- لست غريبة، ولست جديداً عليك!

تحملت الكثير، رضيت. لكن الملل، والكلام الذي يطوف، والشماتة، والتساؤلات.. جَعَلَتْها تحمل، وأخفت ذلك أسابيع، حتى هنأتني أمي.

لم أكن حاداً حين علمت، كما توقعت ربما أو كما تخيلتُ.. فلا بأس بولي للعهد، أو ولية. وإن لم يكن العهد مشرقاً. ربما كنا ننتظر أن تجري أمور كثيرة من غير انتظارنا، أو إرادتنا. هل هو هروب من المسؤولية؟! أو ضعف ثقة بالنفس، أو استسلام مبطن نحاول أن نخفيه بالإصرار على ما اعتقدنا أنه الصواب، ولا نرضى مراجعة التفكير فيه؟!

قلت ذلك مرة لأبي نضال، فأعجبته الفكرة، وقال:

- لو أننا نقتنع بأن نراجع حساباتنا ونحن في مواقع الفعل، لوفّرنا الكثير من الأخطاء التي تحدث بإشرافنا وباقتناعنا بحتمية حلولنا. الآن.. وقد صرت خارج كل شيء، أرى أنني أستطيع أن أحلل الأشياء بشكل مختلف، وأقوّمها.
- ما تقوله يا عمّ صعب وصحيح في الكثير من الأحيان.. ونتائجه ليست مكفولة دائماً، والاعتماد على هذا الحل قد يفضي إلى الفوضى التي لا يتحمل نتائجها أحد. فالمسؤولون يتنصلون، والفاعلون متوارون أو مخفيون.. والبيدر يبدو من دون حارس!

كنت أحس ذلك في المنظمة المحلية التي أوكلت مهامها. لم يكن ذلك عن رغبة، القناعة كانت بالمبادئ والوثائق التي أعرفها، الأقوال التي تتردد، وتتوزع مكتوبة ومقروءة في جميع المنابر. قناعتي بها كانت وما تزال، رغم إحساسي بعدم الجدوى، بعد سنين من الالتزام والسعي إلى لمّ الشمل العقائدي الذي تفرق لأسباب وأسباب..

قبلتُ، ولم يكن لديّ عمل: مقيم في القرية، ويمكنك أن تقوم بالمهمة بيسر ومن دون عناء، لقاء أتعاب تساعدك في تأثيث دارك. هذه ليست سوى محطة للوظيفة الأكيدة، شهادة حسن إقامة

تضاف إلى شهادتك، فلا عثرة بعدها.. هذه الشهادة مطلوبة من الجميع ويتمناها وينتظرها كل راغب عمل أو طالب وظيفة، أو حتى طالب رخصة عمل، أي عمل؛ ألا تذكر كم عانيت حتى حصلت عليها من أجل المنشرة؟! الآن يمكنك أن تؤمنها للآخرين، وأنت وشطارتك! قبلت، وفي خاطري أمل أن أستطيع أن أمنحها بلا تردد، أو أساعد في منحها وفق الواقع، لكل من يحتاج إليها.

*

لم يقل أنت وضميرك، ووجدانك، لم تعد مثل هذه التعابير ضرورية أو مألوفة.

قبْل ذلك، وحين تعثرت أمور الرخصة، وبعد ملاحقات ومضايقات واتهامات بأني حارق الحراج، خارب البيوت، قاتل الخضرة.. جاءني شخص أعرفه، كنا في الصف نفسه؛ بل على مقعد واحد. قدم خدماته واستعداده للمساعدة. رغم أن "حالتي صعبة وأموري معقدة، لكن كرمى للصداقة القديمة"، جاءني ناصحاً:

- ما رأيك أن تساعدنا، ولك الرخصة، وكل ما ترغب به من أجلها؟!
- لم أفهم.. أنا أساعدكم؟! من أنتم؟! وما الذي تحتاجون إليه؟! ومن أنا لأحققه لكم؟!
- أنت مهم، أو ستصبح مهماً مثلي.. وربما أكثر!

وتابع وهو يحدق في عيني:

- أما من نحن، فلا أصدق أنك لا تعرف، ألا تعيش في البلد؟! ألا تسمع وترى وتحلل..؟!
- لم أفهم.. رغم أنني لست من دون تفكير، ربما تعذر عليّ ذلك مؤخراً. أفصح عما تريد!
- الأمر في غاية السهولة، ولا يتطلب منك إلا ورقة كل حين نحدده لك، أو هاتفاً حين تجد الأمر طارئاً.

وأضاف بعد أن تراجع على الكرسي:

إياك أن تفوتك أية معلومة؛ كل تفصيل يمكن أن يكون هاماً، نحن نقدر ذلك، ولا تغفل أو تتغافل، أو تتكاسل!

جفلت، وهو يسدد نظرة حادة، ويرفع يده وإصبعه:

- ولكن إياك أن يعرف أحد عن ذلك شيئاً، ستندم كثيراً!!

تراجعت إلى الخلف أيضاً:

- وهل الأمر يحتاج إلى كل هذا الحذر؟!

وتابعت بعد أن فسح لي تأخره في الكلام، وكان يبالغ في الجدية:

- وما هي المهمة الخطيرة التي تكلفونني بها؟! أنا لست في معركة، ألا تكفي كل سنوات الخطر؟!
- لا.. لا تعقّد الأمور! ولا ترفض الأمان. أنت في خطر، هل نسيت؟!

لم أقبل. رغم أنني ملتزم في اجتماعاتي الدورية أكثر من أي من المستلمين الأقدار على أي مستوى أعرفه. وحين جاء من يقترح عليّ مهمة المنظمة، انتفضت وترددت، لأن الطرح كان مشابهاً لما طرح سابقاً.

لكن ما جعلني أقبل إحساسي بالوحدة، وبالعطالة وعدم الجدوى، وإيماني بأن للشخص دوراً في تنشيط الموقع وإحيائه وإنمائه ونجاحه، أو في إضعافه وإماتته، أو موته على أقل تقدير.

ربما كان ذلك اختباراً ذاتياً أحتاج إليه، لم يتوفر في مسابقات أخرى، أو لم أفزْ به في مجالات أخرى.. فكان الشعور بضرورته دافعاً إلى القبول بشروطه!

ما إن انتهى الاحتفال بضحالته، والكلمات بشحّ وقودها، والقلق الذي سببته اتهاماتهم، حتى وصلني الخبر الذي صعقني.

لم أتردد في التحضير للسفر إلى العاصمة للمشاركة في التشييع، رغم كل الظروف. فالأمر لا أهمّ منه ولا أكثر واجباً..

سيكون الأمر مثار تساؤل أيضاً. سيزعجونني. ولا سيما أن أبا نضال صار في عرفهم خارجاً عن الطاعة.

لكن الأمر لن يهمني، ولن أتردد لحظة في القيام بكل ما يجب علي تجاهه: تلميذاً، صديقاً، قريباً، جاراً. وأكثر من ذلك كله.. لا أسميه لأنني لا أستحقه، أو قد لا أستطيع القيام بما يتطلبه.

**

كان المسؤول قبلي وصياً على جميع المؤسسات، يأمر وينهي. يفرض رأيه على المدراء والموجهين والمسؤولين في الدوائر المحلية.. ويشارك في تعيينهم. وحين خفت سطوته، أحجموا عن التسابق إلى هذا المنصب الذي لم يعد هاماً.

كانت أهميته تنبع من الهيمنة والتدخل في كل أمر، وقدرته على توجيه المكاسب الصغيرة أيام الأزمات: حليب الأطفال، الخبز، المناديل الورقية، الاسمنت، المياه، الكهرباء..

حتى غدا كل من عامل المياه، أو فني الكهرباء أو موظف المؤسسة.. ذا حضور لا يضاهى، وهو في أحسن حالاته حصل على الشهادة الإعدادية، أو عجز عن تخطيها؟! تلك الموضوعات كانت تستهلك معظم زمن الاجتماعات الأسبوعية، الذي تضاءل فيها الحوار الجدي حول مسائل أساسية، وتقزّم الموضوع الثقافي الأسبوعي إلى صفحات مكررة من كتب ونشرات وخطب وصحف رسمية..

لم يعد فيها من روح..

وحين حاولت البحث عن حديث أكثر جدوى يشارك فيه عدد أكبر، ويكلفون بالإعداد المناسب.. تقلص عدد الحضور أكثر، حتى كاد ينعدم..

وتذكرت قول أبي نضال.. ضاحكاً، حين تقابلنا في آخر زيارة له إلى القرية معزياً، وقد علم باستلامي المهمة الحزبية في القرية:

– يطعمك الحج والناس راجعة!

أجبت بلا تردد:

– أنتم السابقون..! إلا إذا كنتم تتكرون جزءاً من حياتكم، أو تنقلبون على أنفسكم، كما يفعل جميع المسؤولين الذين يخرجون، أو يتخلفون عن سلم التصعيد والترقية.. فتصبح جميع الفصول قاتمة، ويطال النقد كل شيء؛ فكل معاني الإخلاص والإيثار والنظافة والرؤيا والثورة والنضال الحق.. متجسدة في شخصه الذي افتقده التنظيم، وترملت بعده المسؤولية!

لا حظت اهتمامه بما أقول، واستغربت لهجتي الاتهامية التي أستخدمها مع رجل بقامة أبي نضال الذي أجاب بجدّية، تجاوزت المرح الذي بدأ به اللقاء:

– لا.. لا يا ابني. أنا لا أنكر ذاتي، ولا أسفّه التجربة، ولا أقلل من أهمية المرحلة والإنجازات التي تحققت، ولا النضالات التي مورست، والعذابات التي تخللتها. فقد عشتها بكل جوارحي، وأخطأت مع المخطئين، أكثر أو أقل، لا يهم؛ فقد فكرت بوعي، واندفعت بحماسة، لأنني أتيت إلى التنظيم عن قناعة بأنه الأقرب إلى روح الناس، والأقدر على التعبير عن المستضعفين الذين يشكلون النسبة الكبرى من الشعب. وما زلت مقتنعاً بذلك.

قلت محاولاً التكفير عن الأسلوب الذي تلبسني مع المسؤولية الجديدة ربما، أو أنه رد فعل ناجم عن المرارة التي عشتها قبل ذلك:

- إذن، لماذا تلومني يا.. رفيق؟!

ضحك باصفرار، متجاوزاً النداء:

- بل أبارك شجاعتك وجرأتك يا بني.. وثقتي بك تجعلني أشجعك، وأتمنى لك التوفيق.

وأضاف بملامح جادة ودودة:

- انتبه لنفسك ياعماد. عليك أن تعرف أن الأمر ليس يسيراً. لم يكن كذلك. وصار الآن أصعب!

•

(ضحكت باصفرار:

- وماذا كانت النتيجة؟!
- كما ترى.. تنظيم فارغ، واسم لهيكل تذروه الأهواء والمصالح.
- هل الأمر يقتصر على تنظيمنا؟! ألم تتغير الحال في كثير من العالم؟! من كان يتصور انهياراً لامبراطوريات وزوالاً لأنظمة كثيرة؟!
- وهل هذا يسوغ ما نحن فيه، أم يدعونا إلى التبصر والاستفادة وأخذ العبر؟!

وأضاف بعد أن بدا عليه الانفعال أكثر:

- إذا كان ممثلو تلك الأنظمة أو ظلالهم هنا لم يعتبروا، وما زالوا يفكرون بالطريقة ذاتها.. حتى أن بعضهم كان يبشر بتلك التغيرات التي أدت إلى ذلك الانقلاب الشامل..

قاطعته، بأسلوب غير مهذب، محاولاً الوصول إلى صورة جلية، ما تزال أسبابها تعذبني:

- ربما لم تكن الأمور واضحة أو مفهومة لديهم، ولدى الكثيرين غيرهم، حتى لا نظلمهم، لأن الأمر كان أكبر من قدرتنا على التوقع والاحتمال..

أجاب بهدوء، مستوعباً تدخلي، هازاً رأسه محركاً رموشه تلك الحركة التي تشي بغليان داخلي ومرارة حادة:

- من لا يرى من الغربال الأعمى خير منه!

كنت سأتابع بسذاجة: لماذا لم تروا من الغربال ذي الفتحات الواسعة؟!

لكنني تذكرت أنني أحاور واحداً ممن كانت رؤيتهم الثاقبة سبباً في مآلهم المسدود. في حين كان يتابع:

- وبعد أن حدث ما حدث، هل تغير لديهم شيء؟! لقد عادوا إلى أساليبهم السابقة!

قلت مؤكداً نيتي في استفزازه لاستخلاص أكبر قدر من الاقتناع:

- ألم تكن الوقائع أكبر منهم؟! لقد سميتهم ظلالاً وتابعين، فماذا تنتظر منهم؟!
- أنا لا أنتظر منهم أمراً مهماً، ولا أحملهم أكثر مما يستطيعون.. ولا أبرئهم!

توقف برهة، ثم تابع بحدة:

- ومتى كانوا مثالاً لنا؟! لقد بدأ الكثيرون منهم قبلنا، ولو اقتنعت بأساليبهم وتوجهاتهم لاندفعت معهم. ولو كانت تلك الأساليب والطروحات مثمرة لما ظلوا في مواقعهم.

وتابع بعد أن ترددت في الكلام، وقد كنت أود فعلاً أن أسأله عن تلك النقطة بالذات:

- ياليتهم ظلوا كما كانوا! لقد انقسموا وتفرقوا، ويتنافسون على الكراسي التي نبقيها شاغرة كرمى لمشاركتهم الوجدانية.

أضفت وقد وجدت سبيلاً للمشاركة الوجدانية ربما:

- وهم فرحون بها؛ إذ لم يبق لهم هناك مرجعية!
- هذه مشكلة من يرضى أن يكون ظلاً أو صدى.
- ولهذا خرجت يا أبا نضال..؟!
- بل أخرجت يا بني، أو لُفِظتُ..

بدا عليه القلق والاكتئاب، فقلت محاولاً إشغاله أكثر:

- وكيف كانت طرق التنسيب أيامكم؟!

نظر بحدة:

- لم تكن لنا أيام. عشنا فترة محمومة قبل العلنية، وكنا ملاحقين حتى على النوايا. بعد ذلك، كان الإصرار على أن يكون الراغب بالانتساب مقتنعاً جريئاً مضحياً، حتى أن عليه أن يقوم بعمليات في الأرض المحتلة!
- لكن الحال لم تستمر على هذا النحو..
- بالتأكيد؛ لو كان الأمر متواصلاً بالجدية نفسها، ما كنا في مثل هذي الحال.

عادت إليه حالة التوتر، فقلت متضاحكاً:

- يعني، ألم تكن هناك مغريات من نوع آخر؟!

حدق باهتمام:

- ماذا تقصد؟!

تابعت بالمرح المفتعل ذاته:

- المرأة.. مثلاً!

انتفض بسرعة:

- لا..

توقف ثم استدرك:

- ربما أُستغل ذلك لاحقاً!

وأضاف كما لو كان يفكر في الأمر أول مرة، أو يفتش عن كلام مفيد:

– للأسف كانت الدعاية حول حرية العلاقات بين الرجل والمرأة طريقة للاجتذاب الغرائزي.
وأضاف قبل أن أتدخل:

– ليس عندنا فقط؛ بل في تنظيمات أخرى، والأمر لديهم كان أوضح. بالطبع يختلف الأمر بين تنظيم وآخر؛ منهم من تمادى في ذلك كثيراً، ومنهم من استخدم المرأة للإيقاع بالشباب.

– هذا ما تحدث به الشيخ محمود، بعد أن اهتدى كما يقول..

ضحكنا بعد فترة كابوسية أحسست بها، وفرحت لانفراج أسارير أبي نضال الذي لم يطل، فأضاف:

– ليس هذا فحسب؛ إن كثيرين ممن دخلوا في تنظيم آخر، فعلوا ذلك نكاية بمدرس مزاجي، أو متأنق شبيبي، أو متسلط حزبي من تنظيمنا! أو كانوا فاشلين في المدرسة والحياة كرد فعل تعويضي، وقد يكون ذلك للاستفادة من إيفادات حصلت لمن لا يحملون أية شهادة، وعادوا بشهادات عليا غالبيتها في الترجمة!

– وهل كانت الحال عندنا أفضل؟! ألم يوفد أناس بعلامات دنيا لا تؤهلهم الدخول إلى جامعاتنا، وعادوا بشهادات عليا في الطب والهندسة ومختلف الاختصاصات العلمية؟!

– ولا تنس أيضاً يا عماد أن تنظيمنا احتكر المتفوقين، ونسّبهم حتى من دون أن يسألهم، وكثيرون آخرون دخلوا التنظيم من أجل الوظائف والمراكز والكراسي العليا المخصصة لهم..

– ليس هذا فقط يا أبا نضال وأنت سيد العارفين؛ بل صار الارتهان للقيادي الذي يؤمن لهم مثل هذا الموقع وذلك الامتياز.. بصرف النظر عن سلوك أي منهما، وعن أن إيمانهما بالمبادئ ضمني، ولم يعد لها حضور وتأييد.)

فكرت كثيراً في ذلك الحوار الذي جاء بعد أن صرت مطالباً بتنفيذ الخطط والمشاريع التي لطالما برمت بها.

كانت خطة التنسيب مرهقة، أرقام جوفاء يجب أن تؤمن، صراع يجري حول الحصول على الانتساب، الذي يؤمن وظيفة.. فموجة التنسيب لا تستثني أحداً. ثم صارت تقتصر على المتفوقين الذين لا يمانعون إذا كان ذلك سبيلاً لما يحلمون بتحقيقه من دون عناء، ومهما أثر ذلك على تفوقهم، وقلل من أهمية الحافز الذي لا بد منه للسعي الجدي لتحقيق الإنجاز المعتبر.

الآن صرت شاهد زور على حقائق تفارق الواقع، حتى المتفوقون لم يعودوا يرغبون بالانتساب.. ولم يعاتب أحد إلا إذا تطاول على مسؤول وعده بوظيفة أو موقع وخذله لمصلحة آخر..

*

لم تطل الجلسة تلك الليلة، ولم يستكمل الحوار..

التوتر كان قد أخذ من عماد كل مأخذ، قبل أن يحضر أبو نضال متوتراً هو الآخر. استقبلني ثائر بلا ترحيب. بتول لم تظهر، ونضال خرج ولم يعد من دون أي اعتذار. أما ثورة فلم تسلم باليد على غير العادة، مع غطاءين على رأسها: الأول يتقدم حتى منتصف الجبهة، يعلوه الثاني متأخراً، لينحدر حتى وسط الظهر.. لمح عماد ذلك حين عبرت بسرعة متعثرة الخطوات بعد أن أحضرت الشاي، وأمرها ثائر بالخروج بطريقة موارية: اتركي من يدك، نحن نكمل الضيافة!

لم تكن تلك الحال وليدة ساعتها، كان عماد قد لاحظ التعامل الذي بدأ ينكمش. أم نضال لم تعد تجلس في أثناء وجوده، وغادرت ملامحها أية معان باشّة، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن جديداً، فإن حدته تفاقمت مع مبالغة في اجتياح الأغطية لكل المعالم والعناصر. كان نضال قد أسرّ ببعض امتعاض من شيء ما يحس أنه يتغلغل في الأركان، ويغلق النوافذ ويسدل الستائر. ولم يكد عماد يفهم حين قال ذات قلق:

- كان الله في عون بتول!

ربما ذهب خياله حينئذ في اتجاه آخر. وعزز ذلك أن أبا نضال بدأ يقوم بواجب الضيافة من دون أن ينادي على أحد، فيقوم إلى المطبخ مرات، أو يحاول نضال القيام بذلك بمعارضة والده.. إضافة إلى ذلك الرداء على رأس ثورة بعد أمها التي بالغت في الغياب.

قال ثائر، وقد جلس مكفهراً:

– أليس ما وصلنا إليه نتيجة طبيعية لممارساتكم الارتجالية ومواقفكم الساذجة تجاه القضايا المطروحة؟!

فوجئ الجميع بالحدة في النبرة والمعنى، تلك التي لم تتوقف عند ذلك:

– وتنتقدون كأنكم منزهون عن الخطأ، والآخرون هم المخطئون. ومن تكونون؟! وماذا تمثلون؟! وماذا فعلتم لإصلاح الخلل الذي أدى إلى هذه الكارثة التي تدّعون؟! ولماذا لا تعترفون بأخطائكم وما جنيتم علينا؟! لماذا لا تقرون بأن نظركم كان قاصراً، لا ترون أبعد من أنوفكم، فلم ترونا؟!

كان أبو نضال ينظر كالمشدوه، وأطرق عماد مخافة أن تتلاقى عيناه بعيني الرجل، فيكتشف مدى الخيبة والخذلان. لكن ثائراً تابع غير مكترث:

– كلكم تتقوّلون مثل هذا الكلام بعد أن تصبحوا على الرفّ، لتبرئوا أنفسكم من التلوث الذي أصاب كل شيء، وفق توصيفكم، ولتسوغوا فشلكم في تأمين مجرد وظيفة محترمة لأيّ من أولادكم.

نظر إلى عماد مدعماً رؤيته:

– ولا تنصرون حتى من التجأ إليكم بحثاً عن مورد رزق. والآخرون أمّنوا لمن والاهم كل ما يمكنهم، وما زالوا يؤمنون. وماذا تنتظرون؟! السترة والسمعة والآخرة.. هذا ما تبقى لكم؟! وماذا تتركون لنا؟! حتى الاسم صار مثار سخرية!

قال عماد محاولاً التخفيف من الأجواء المشحونة:

– ها أنت تثور علينا، وتطبق معنى اسمك!

– هذا أقل ما يمكن أن تسمعوه وتروه!

خرج صافقاً الباب بعنف. لم أتكلم، ولم ينظر عماد إلى الرجل الذي انكمش على نفسه، وهو يستمع إلى ترددات كلام ابنه تخترق الجدران، مدوية في البيت الذي يكاد يهتز تحت وقع أصدائها.

" لا أنكر أنني فكرت قبل ذلك في الكثير مما قاله الشاب، وأنني أحجمت عن قوله في وجه أبي نضال مرات احتراماً لكيانه، وتقديراً لتجربته ومشاعره. ربما ألمحت إليه ببعضه، وقد صممت أن أجاهر به بعد أن بينت لي التجربة القصيرة أشياء كثيرة، ويمكنني أن أنتقد، وأتحدث عن الفساد الذي يجتاح كل شيء، والتخريب الذي يقوم به الآخرون (على عينك يا تاجر).

لكنني إن تحدثت بذلك الآن، فسيقال لي ما قلت بعضه لأبي نضال ولسواه:

– لماذا تبقى مشاركاً في الإثم؟!

لأعيش؛ من أجل أطفال سيأتون، وزوجة تحتاج إلى أشياء وأشياء..

سيقال لي: الأمر يتطلب تضحية.

هذا صحيح! لكن التضحية مستويات، والبقاء بلا استفادة أو ميزات أقسى من الخروج! وإن قدمت استقالتي وخرجت إلى اللاعمل، وقد جربت هذه الحال المُرّة، سيقال: كل من يخرج، يبدأ التشهير بالآخرين!

ومن هم الآخرون الذين يتحدثون بالطريقة نفسها ربما، يلومون ويتهمون الآخرين؟! ما هي نسبتهم؟! أين يظهرون ويمارسون سلطانهم؟! وهل هم كتلة متراصة يحمي كل منها سواه، وليس لها عمل سوى مواجهتنا؟! ما عرفته وما أتصوره، أن الآخرين يتربصون بنا وبالآخرين، ويحفر كل منهم تحت الآخر، ويجمع له الملفات، ويحضر الاتهامات.. وما أن يقع أحدهم حتى تكثر السكاكين!

كنت سأقول لأبي نضال:

– هذا الكلام المعمم عن الفساد إسهام مباشر في ترويجه، وتسويغ لمن تورط للإيغال في التورط، وحافز لمن لم يتلوث كي ينخرط في براثينه؛ حيث الثروة والنفوذ والجاه والسلطة.. ولو إلى حين! فالعمر لا يعاش مرتين، كما لا يمكن التبلل بماء النهر الجاري نفسه مرتين، وسنوات العز لا تفوّت؛ لا أحد يُعدم، ولا أحد يحاسب كما يجب، ولا بأس من بعض الوقت المدان، وبعدئذ تمدك ثروتك بما تهنأ به، ويشكرك عليه ولد ولدك!

الحديث في الفساد ملمّظ ومشوق، كالحديث عن عملية اغتصاب جنسي.. يبالغ في الوصف والتفاصيل، حتى تثار الشهوة وتفور الغريزة، فيُنسى الفعل الجرمي، ويتولد دافع للقيام بالفعل!

كنت سأتحدث لأبي نضال عن ذلك، ربما كان سييجيب: الآن بتّ تقول هذا الكلام بعد أن صرت في الميدان؟! لن يقول صراحة، قد يفكر فيه، وهذا ما يحزنني أكثر!

لا لا.. لن أتفوه له بشيء، لا أستطيع حتى مواساته، أنا الذي أحتاج إلى مواساة، ستكون مغامرة حقاً، لكنها ليست أقسى مما في حياتي من مغامرات لم تتوقف. لن أقول له شيئاً، كنت سأستشيره في قضية راجعتُ فيها بلا نتيجة.. سأودعه، أراه منكباً على نفسه، مغمضاً عينيه، لن يحس بي، لن أكلمه. سأخرج من دون أن أطلب الإذن من أحد، سأخرج قبل أن يأتي أحد.".

**

–3–

ناولني مظروفاً أسمر، مبتسماً بزهو، ثم عدل جلسته مسنداً ظهره إلى الوراء، رغم أن الكرسي يكاد لا يتسع لانتشاره.. أمسكت المظروف بلا كبير حذر، ظننت أنها رسالة أو دعوة لفرح أو نشاط أدبي.. لم أهتمّ كثيراً، وانشراحه لم يذّلل جديتي. رغم أنني حاولت أن أماشيه في مشاعره التي تبدت على ملامحه.

فتحته.. دهشت، أغلقته:

– ما هذا!!

– لا.. لا شيء، سمعت أنك..

قلت بحدة:

- ماذا سمعت؟!

- أقصد، وصلني أن المصرف أرسل إليك إنذاراً.. هذه أقساط.. ثلاثة.. خمنت أنها كذلك، هل هي أكثر؟! أرجو أن تعدها وتخبرني..

سألت بصرامة:

- ما الذي أدراك؟! أنا لم أخبر أحداً!

- سمعت من المصرف.. أقصد كنت هناك، وسمعت..

- هل يذيعون أسماء المتخلفين عن الدفع في المصرف؟!

- لا لا.. الأمر مصادفة، الموظف هناك قال لي. أقصد.. سألني. أقصد..

- لا بأس، لا بأس! أشكرك على كل حال، سأتدبر أمري، لا أريد أن أثقل عليك!

قلت ذلك بلهجة ألطف، وأنا أمد يدي إليه بالمظروف مغلقاً..

- معاذ الله، لا والله لا يجوز. ولو.. أنت تستاهل أكثر من ذلك..

- قلت لك.. أتدبر أمري، معتاد على ذلك. لا أود أن أتعبك معي، وقد يتعذر علي إعادته إليك.. في وقت قريب!

اقترب برأسه مني.. مثنياً ساقيه بزاويتين مختلفتين، واضعاً يده اليسرى على ركبته المناسبة:

- تعيده..؟! من قال إنك ستعيده؟! أعرف أنك بلا وظيفة ولا راتب.. هذه هدية، تقدمة مني إليك.

- هدية؟! وما المناسبة؟!

- أية مناسبة.. تعيينك أمين منظمة.. أو عيد الحزب، أو عيد الفلاحين أو عيد العمال.. أو عيد..

- معاذ الله.. أنا لا أريد هدايا!

- آه ما أصعبك! أخي.. ليست هدية، إنها تقدمة.. دفعة على الحساب.. إنها.. حصتك.. جزء من حصتك..

وتابع وأنا منشغل بذهولي:

- عدّها يا رفيق عماد، وإذا كانت غير مناسبة.. نزيد، لا يهمك!

رميتها في حضنه، ووقفت صارخاً:

- أنا ليس لي حصة، ولست شريكاً لأحد!

**

-4-

دخل ناصر وقال ضاحكاً:

- هذا أول الغيث..

قلت باستغراب:

- أي غيث تقصد؟!

- رأيته خارجاً من عندك.. لم يكن مرتاحاً، هل بالغت في الطلب؟! طوّل بالك يا أخي، (ما الك بالقصر إلا من امبارح العصر)!

رمى نفسه على الصوفا التي أنّت بصدى متتابع.. نتج عن مختلف أجزائها، وأضاف:

- يا الله.. غداً نجلس دون صرير، وننعس من الهزّ النشوان!

بقيت محدقاً، وهو يتحرك بسلاسة.. ثم نظر صوبي بجدية:

- بصراحة، أعجبتَني. لا تقبل بالصغيرة. اطلب المزيد!
- أطلب.. ممن أطلب، وماذا تقول؟!
- هو هو.. أخي (بالمشرمح، لا تريدها واطية!)

أدار وجهه عني، وأضاف بثقة:

- (يا شي بيستاهل يا بلا..)

أعاد النظر إلى وجهي، لا حظت ذلك من زاوية نظري الذي أضعته في ركن ما:

- هذا الرجل كان يعطي حصته شهرياً للرفيق الذي كان قبلك، وصار فوق.. بالتأكيد ستزداد حصته، قد يطلب منك أيضاً، أو ستصبح موارده مختلفة المصادر، أعمق وأبعد. وتزداد نفقاته أيضاً. المهم.. لا تقبل إلا ما يليق بك. قد يطمعون، هذه محاولة أولى، جس نبض.. في بداية المباراة ثم يبدأ الهجوم.. الآن مدير المؤسسة الاستهلاكية، غداً رئيس البلدية أو المراقب، رئيس الجمعية، مدراء المدارس، والآخرون الذين يرغبون أن يصبحوا مدراء، موجهين، أمناء سر.. أية مهمة لا تتطلب العمل وأولئك الذين يرغبون بالوظيفة.. أي وظيفة، سيكون لتقويمك الدور الأول في تحقيق ذلك..!

لم يهتم لرد فعلي وما يمكن أن يكون، هذا الذي أحتار في تقديره، وتابع:

- أنت مهم يا صاحبي، يا بختك.. صبرت ونلت، لا تقلل من قيمتك، ولا تغرد خارج السرب. هذه سنّة متبعة لا تحاول تغييرها، لن تستطيع، لن تكسب إلا العداوات من فوق ومن تحت. ثم ستتجاوزك السلسلة من تحت إلى فوق، وتصبح صفراً على الشمال. فكّر ثم أجب. يضحك..
- أو فكر من دون أن تجيب.. أو لا تفكر، هذا أفضل لك وللجميع! ويمكنك أن تستعين بصديق. لا لا داعي لذلك، الصديق جاء إليك من نفسه، ها أنا أنصحك، إيه.. ماذا قلت؟! لا.. لا تقل شيئاً..

لم أنم تلك الليلة! إذن لم يكن في الكلام مبالغة! كنت أسمع وأستنكر، أو أستغرب. أو أقلل من أهمية ذلك، وأعدّه شذوذاً عن القاعدة، وليس أساسها.

(انظر.. إلى من سبقك إلى هنا.. أين أصبح، وكيف؟!

ألم تر إلى الصروح التي تبنى في السفوح ورؤوس التلال، ألم تلاحظ الأراضي التي استصلحت، والمزارع التي تكاثرت، والآبار التي حفرت..؟!

لم يكونوا أفضل منك، انطلقوا عبر طرق مشابهة، وبسبل قد لا تمتد طويلاً، أو لا تصعد كثيراً، المهم أن تعرف كيف، ومتى، وأين..؟! ليس المهم أن تعرف؛ بل أن تستوعب، تسكت.. إذا كنت لا تريد أن تتصرف!

ليست منابتهم مختلفة عن منابتك.. ولا فصول السنين التي عبرت بهم متمايزة عن فصول سنيّك. لكن لديهم حسن التقاط الإشارات أو إرسالها، كما الصحون التي تعلو بيوتهم وبيوت الكثيرين. والبقية تأتي.. ملذات وسعادة وانتشاء وتدشؤات وأنفاساً تخرج من منافذ ضاقت بسبب الاكتناز. لكن أصحابها لا ينزعجون من أصدائها المنفرة، لأنها تدل على شبع وانتفاخ في كل الأعضاء والعناصر..

مع ذلك..

أول ما فكرت فيه، أن تتحدث في ذلك.. ولكن لمن؟!)

ستسافر إليه، تأخرت كثيراً في ذلك، سمعت أنه مريض. بماذا انشغلت عنه؟! هل هذه الاجتماعات واللقاءات والندوات والمسيرات تسوغ ذلك؟! ستلوم نفسك، وتلومه أيضاً، لأنه لم ينهِك عن هذا المسار. لقد انشغل أبو نضال عن القرية وأصحابه، وانشغل حتى عن بيته وأسرته، واجباته وأحلامه الخاصة.. كما شكا لك مراراً. كان عليه أن يأمرك بالابتعاد عن هذه البِركة. لماذا لم يفعل؟! هل الشعور بالذنب تجاه تردده في مساعدتك؟! أو عجزه عن ذلك؟! هل سيظن أن هذا سبب انقطاعك عنه، وعدم عيادته في بيته، وقد صعب عليه الخروج حتى إلى الحارة القريبة، كما سمعت من زوار الشام؟! هل سيغفر لك ذلك؟! وهل ذاك هو السبب الحقيقي حقاً، أم شعورك بالذنب أيضاً بعد انقطاعك عن رؤيتها، وابتعادك القدري عن بتول. بتول.. يقظة الحياة وصحوها ومطرها، برعم الزهرة الناهض، وعطرها الغامض. ترى؛ ما الذي استجد لديها، وأين غدا قلبها؟! هل انشغلتَ عنها أيضاً أم تشاغلت خجلاً وتبكيتاً؟!

هل ستسامحك أيضاً؟! هل تغفر ذلك لنفسك؟! هل تغفره الحياة؟!

ستحكي لأبي نضال أو ستشكو؟!

ليس غاضباً منك، من أحد، وليس عاتباً.

سيقول لك: لا تشكُ لي فأبكِ لك! أعرف ذلك؛ بل إن ما أعرفه، لا يساوي ذرة في بحر ما أنا متأكد منه!

المظاريف التي قدمت لي مباشرة أو بالواسطة ورفضتها لا تعد ولا تحصى، مفاتيح شقق وسيارات، شاليهات وهكتارات، دعوات وسفرات.. فأنا مدير مكتب الوزير، عفواً كنت، ومسؤول متوسط في التنظيم. كانوا يقولون: هذا الأمر سيتم، لماذا لا تكون أنت واسطة الخير؟! ولماذا تتركه لسواك؟! رخص البناء في المناطق الزراعية، رخص التحريج والمشاحر، حفر الآبار في المناطق التي شحت مياهها الجوفية، الطرق الزراعية، حراس الغابات، المشاتل والنباتات الجديدة.. التغاضي عن الحرائق التي تلتهم الحراج وتسجل ضد مجهول/معلوم يريد إقامة منشآت ومقاصف ومزارع.. كل ذلك سيمر من بين يديك.. يمكنك أن ترتاح وتريح، أو أن تظل منقبضاً مفلساً متهماً بما لا يسر ولا يسمن!

سيضيف بعد أن يتنهد متعباً: سأقول لك.. لا تؤاخذني، أعرف معدنك، فأطمئن إلى ما ستفعل! لن أنصحك، ولن أحذرك، ولن أخيفك. ولا أطمئنك.. سأتركك تفعل ما تراه مناسباً.

لست سيء الالتقاط كما يقولون.. استطعت تفسير الإشارات التي انبعثت خلال نظراته الثابتة الواثقة، وملامحه التي استقرت غير مترددة.. ثم التفتَ إلى نضال الذي قال فور دخوله باشاً، قبل أن يلحظ الجدية الموشاة بالألفة:

– هذا صديقك الذي كنت تسأل عنه.. لم ينسَ، كما ظننتُ! ولم ينشغل عنا.

وأضاف بصوت فرح:

– هذا ما قلته لي يا أبي، وتراهنّا. وأعترف أنك ربحت الرهان.

اقترب مني بلهفة، فيما كان والده يردد بصوت مجهد ربما لم يسمعه سواي: لست وحدي من ربح. ولكن!

قال نضال:

– رغم أني خسرت الشرط بسببك. فأنا مسرور برؤيتك. اشتقت إليك يا رجل. ما الذي يشغلك؟! عاشق، ولهان.. اللهم أسمعنا الأخبار الطيبة.

كانت هذه السيرة تزيد من توتري، وكنت خائفاً من مباغتة ثائر أو ثورة، أو نظرة عاتبة منها.. بتول إن جاءت. لكن ذلك لم يحدث، لحسن الحظ أو لسوئه، لا أدري. لكنني قلت:

– أنا سعيد برؤيتك يا نضال، ومتكفل بترميم خسائرك من الشرط!

– لا.. يكفيني أنك جئت. هذا يعوّض الكثير. ولا تنسَ أن الرابح أبي. وهو يستحق أن نخسر من أجل أن يربح!

تدخل بصوت متهدج:

– لا.. هذا ما لا أريده يا نضال. أريدكم أن تربحوا، حتى لو خسرت أنا.. بالنسبة لي لم يعد في مستقبلي ما يهم، وقد لا أعيش أياماً بقدر ما عشت من سنين. اربحوا، لكن قبل ذلك، اعملوا من أجل أن تربحوا.. لا تعتمدوا على الربح عن طريق المراهنات واليانصيب، فالخسارة مضمونة. هل رأيت مقامراً غنياً.. أو سعيداً؟!

قلت، وقد التقطت الإشارة:

– لكن المراهنة هذه تختلف يا أبا نضال.. لن أخذلك!

– أعرف يا (ابني).. ولكن كم هم أمثالك؟!

وأضاف كما لو كان يحدث نفسه:

– راهنت على الكثيرين الذين خذلوني. أنا لا أصدق أنهم هم أنفسهم من كانوا متحمسين للعمل بتفان، مندفعين للتضحية حتى بالأرواح من أجل المبادئ، من أجل الوطن، من أجل.. آه آه..

يطرق رأسه، يضغطه بيديه.

يهرع نضال بكرسيه:

- أبي أرجوك.. ادخل لترتاح، أنا سأقوم بالواجب مع الأستاذ.
- أنا لست غريباً يا أبا نضال.. أرجو أن تأخذ راحتك.
- راحتي!!

نهض بتثاقل.. نظر إليّ ملياً:

- مثلك من يريحني.. مع السلامة.

مشى خطوة، ثم توقف كأنما تذكر شيئاً:

- .. سلّم على سنديان الضيعة!

وقف أمام الباب، أسند يده إليه. أضاف كمن يواسي:

- لن أتأخر كثيراً..

***

الفصل العاشر

-1-

هل كان علي أن أنتظر الموت حتى ألتقي بكل هذه الوجوه الطيبة؟!

هل كان ينقصني هذا المشهد حتى أحس بالأسى الحقيقي، والفقد المرّ؟! كنت أعرف ذلك، أفكر فيه، لم أنسه، لم يغب عن ذاكرتي لحظة. لماذا ابتعدت إذن؟ لماذا ظللت بعيداً؟! كان

الأمر مسوغاً حين غادرت إلى سبل أخرى تضيق بها جهات هذه القرية، ولا تستطيع أن تؤمنها تضاريسها العسيرة.

صحيح أنها لم تستعصِ على خطواتنا الشاردة، ومغامراتنا الأولى، ومشاوير الرعي والصبا والتحطب، ولم تحجب الصدى اللذيذ الذي يتردد بإلحاح:

قرع طبل ملحّ، ألحان أرغول لا يقاوم، وشاباش مدوية.. رغم الوعورة ومشاكسة الأشواك والأغصان، والظلام، وخطر الكائنات البرية والبشرية المتربصة.

وربما كان مسوغاً أيضاً الانشغال بالنضال وتحقيق المصير، والنصر الحتمي لمشاريعنا الاجتماعية القومية الاقتصادية الإنسانية. ذاك الاحتراق الذي مضى الكثير من العمر في أتونه، من دون ظل أتفيؤه في الأيام التي تلت.

تمنيت لو أتفيأ ظل هذه الأشجار، أو تلك المزروعة في المنحدرات والوديان، أو الشامخة ما تزال دون نسب قريب خضراء متسامقة، تبث نسيمها العذب، مهما اشتدت رياح الجهات والذرا..

كم تمنيت إغفاءة هنية من دون قتامة الغبار، وضجيج التلوث، وصرير الحاجات التي تتعاظم وتتكاثف، وحزّ الشكوى، ومراوغة الندامة والقناعة والخيبة والصمود.. والمصير الغامض!

ربما استطعت في تلك الإغفاءة أن أعاود التحلم؛ منذ وقت طويل لم أعد أحلم. كان الحلم يجعل النوم لذيذاً، والحياة ممتعة، حين تحاول أن تعيش تلك الأحلام، أو تسعى لكي تعاش من قبل سوانا، بعدنا.. لا يهم، المهم أننا نحلم وننشغل بتحقيق أحلامنا..

منذ زمن لم أعد أحلم، حتى قبل أن أصبح خارج مشاريع تنفيذ الأحلام، بعيداً عن عقود تعهدات تنفيذها وصفقات إنجازها بسرعة، لحرق المراحل وضغط الزمن، واللحاق في أقرب ما يمكن بركب الحضارة والعدالة..

منذ زمن لم أعد أحلم؛ ترى هل هذا ما جعل نومي كابوساً يكمل انضغاطات الواقع؟! حتى صرت أهرب منها إلى الشرود، أو السبات/ اليقظة، والذي يشبه الموت السريري مع فارق قدرتي على القيام بما يلزم حاجات دنيا، لولا تلك اللمحات التي تخطر في البال تلخص هذه الدنيا بمشاهد الجبال والتلال هذه.. وانشغالي بتفاصيل كانت فيها وعنها، وأخرى ستكون..! لماذا لم أقترب منها قبل هذه المناسبة؟! لماذا لم أقرر أن أعيش فيها بقية وجودي؟! قررت. لماذا لم أنفذ؟! اعترضتْ بشدة، ساعدتها ابنتها ثورة وأيدها ثائر، نضال رحب بالفكرة، لكنه اعتذر عن عدم قدرته على مرافقتي، أفهم ذلك! وجوده هنا كان سيعني تأكيد عطالته التي جاهد كي يمحوها، ونجح إلى حد كبير..! بتول لم تمانع، لكنها ستتابع دراستها، أليست حالها في العاصمة أفضل؟!

أنا لم أقل غير هذا، ولم ألزم أحداً منهم بما لا يريد، ولا يمكن أن أمارس الضغط على أم نضال، فهي غير قادرة على العيش هنا كما أكدت مراراً، لم تتصوّر ذلك، ولا تستطيع ترك الأولاد. أليس منطقياً هذا يا أبا نضال؟!

وحدي.. غير قادر على البقاء هنا طويلاً، حاولت، لم يكن ذلك يسيراً، رحب أخي الأصغر بالفكرة قبل أن يتوفاه الله منذ سنوات، رغم أن زوجته خمنت أنني أحاول استرجاع ما كان لي من أراض استثمروها، تنازلت عنها منذ زمن طويل، لم أفكر فيها، ولم أطالب بأي من نتاجها؛ فالأرض لمن يفلحها ويعمل بها؛ هذا هو الشعار الذي رفعناه، فهل من المعقول أن أنفذ نقيضه؟! ليس أبو نضال من يفعل ذلك، لا في أول العمر ولا في آخره. وعلى ماذا يتم الكلام؟! أراض منحدرة مستصلحة مشجرة، شاركت في استصلاحها وزرعها، ثم غادرت، ولم أفكر فيها بعد ذلك، رغم تذكير زوجتي وثائر وثورة، حين يزورنا أحد من أبناء أخي، حاملاً بعض الزيت والزيتون.. أخي الآخر قضى نحبه قبل الأوان، أختي تمنت أن أسكن في القرية أواخر عمري، الأخرى مريضة. الأمر ليس هيناً، كانت لكل من البشر هنا مشاغله وهمومه.. تغير الزمن الذي كان الناس فيه قريبين مسايرين، مندفعين.. توقعت هذا، وتفهمته..

لا ألومهم، مهما يكن فما يزال الوضع هنا أفضل بما لا يقاس من المدينة التي تحتاج فيها إلى خصال وتضحية لتحافظ على كيانك، بعد أن تبذل الكثير لتحدد ملامحه.. إن استطعت. لقد حاولت، فهل تمكنت من ذلك؟! هذه أسرتي تمثل النتيجة التي ستبقى، فهل نجحت؟!

اشتقت إلى هذه الوجوه.. الكثير ممن كنت أتمنى أن أراهم، غابوا، ما تزال وجوه من قرى قريبة وبعيدة ممكنة التعرف. ها هي تضطرب وتتأهب لدى وصول الموكب، ما يزالون ينتظرون وقد قارب المغيب، رغم أن الشمس مطفأة أو مخفية خلف الغيوم التي تتصاعد بإصرار من فوق البحر، الغيوم السود تغطي الواجهات جميعها، لطالما تطلعت مستفسراً عن إمكانية هطول المطر، وتساءل سواي، وسألنا أبا حمدان عن خبرته في ذلك..

ها هم ينتظرون منذ ساعات، سمعتهم يقولون في السيارات المرافقة: تأخرنا كثيراً، موعد الدفن فات، هل سنلقى أحداً بانتظارنا..؟!

سيكون الدفن فقيراً مخجلاً، سيقتصر على أبناء القرية. الطقس صعب، البرد قارس، والأرض موحلة..! كنت أنتظر هذا المشهد؟! هذا ما أقلقني من التأخر في الطريق ساعات! لو عرف أحد بما يخطر لي، لدهش؟! يستعجل الدفن؟! ولو عرفوا بما يحدث لي وبما أشعر الآن، وكيف أتحرك وأين أقف أو أجلس لدهشوا أكثر، وربما رافقني بعضهم، أو سبقني إلى دنيا أخرى أو إلى حيث لا دنيا؟!

وجوه أخرى أعرفها، ترددت علي زمناً، لم أعد أراها، هل ألومهم؟! ربما خطر لي ذلك أياماً. لكن الآخرين، رفاق النضال السلبي والإيجابي، كانوا ناكرين أكثر..! لا يهم، ما زلت أرى في ملامحهم ما يريح، رغم معالم الهم والانشغال والتعب.. وحضورهم دليل على أنهم أوفياء!!

الوجوه الأخرى لا أعرفها، لم أرها، لكن وجودها مطمئن. طيبون.. جاؤوا لاستقبالي، لم يروني، سمعوا عني، عرفوا أنني بلا مسؤولية، بلا إمكانية، ولا أمل.. جاؤوا لوداعي!

كان يمكنهم ألا يحضروا: الطقس، والأشغال، والانشغالات الكثيرة.. وعدم العلم، والتعرف..

كان يمكنهم ألا يأتوا، لم يرتضوا مثل ذاك الموقف، لا يرتضون..! الواجب والإنسانية!!

الواجب والإنسانية.. هذا ما كنت أفكر فيه، حين أفكر فيهم، يستحقون حياة أفضل، أكثر هناءة وعدلاً وإنصافاً.. أكثر كفاية، وأيسر منالاً؛ طرقات وآليات ومدارس ومشاريع صغرى تؤمن لهم قوت يومهم.. كنت أحس وما أزال أن مثل هذه المنشآت الصغرى والمتوسطة أكثر

مناسبة لهم، للتنمية، للإنجاز، من تلك المشاريع الضارية، التي أنفق الكثير لإنجازها، وكلفت الكثير لصيانتها، وصرف الكثير الكثير لمسؤوليها وأربابها..

أقرت على عجل، وأنجزت بتسرع، أو بتباطؤ مرير. اعترضت وقتها بهدوء: لن تستمر طويلاً، وتسبب التلوث والأمراض والهلاك للكائنات جميعها.. الغبار فتّاك، والهباب قاتل، والأوبئة الأخرى لا تقل شراسة! محسوبية وفساد ولا مبالاة، والبيدر أكرم من صاحبه، ومن حضر القسمة فليقتسم.. و(طعمي التم بتستحي العين)، و(فخار يكسر بعضه)، و(بعد حماري ما ينبت حشيش)!!

ألمح تساؤلاً في ثنايا الوجوه، وعلامات استفهام. هل ينظرون إلى الموكب، أم إلى أهل الميت الواجمين، أم إلى الصندوق الذي يتقلقل فوق الأيدي التي تسير به باهتمام، رغم البرد والمطر الذي بدأ يهطل.. لماذا لا أتبلل؟! رغم أنني خارج الصندوق.. خارج أي شيء، وداخل كل شيء.

أتراهم يراجعون سيرة صاحب المناسبة؟! ويستذكرون الأقوال والأحداث خلال تلك الأيام؛ حيث كان في عز المسؤولية، ويوم صار في بؤرة البؤس. هل يتساءلون عن الأحلام القديمة، والأفكار التي كانت مشرعة، ما تزال مشرعة، والمصير.. والجدوى؟!

لو كنت قادراً على الرد، وسألوني، بماذا كنت سأجيب؟! لو كنت بينهم، لأمطروني بسيل من الأسئلة الخائبة والاتهامية عن أشياء أعرفها، وأخرى لا أعرفها. كيف سيكون شكل إجاباتي وفحواها، ما إيقاع صوتي الذي سيدل على ما أقتنع به، إن حاولت المداراة؛ لن أحاول، سأجيب بصدق وصراحة! ماذا ستكون ردود أفعالهم؟! كيف سيتصرفون؟! ماذا سيقولون؟!

هل هذا ما منعني من الحضور الحي، والإقامة الأخيرة؟! ومم أخاف؟!

هـم لا يخيفـون؟! يصـدقون، يقـدرون ويسـوغون كثيـراً، ويسـامحون دائمـاً.. تلـك خصـالهم فضائلهم. أليست هذه مشكلة أيضاً؟! أليس هذا ما يسمح باستمرار الأخطاء واستفحالها؟!

ليس هذا ما يمنعني من البوح. فليس لدي ما أخاف منه، ما أخاف عليه. ألم أفكر فيهم دائماً؟! أليسوا سبباً في مآلي؟! لا أحمّلهم المسؤولية ولا ألومهم. ولكن أحاول أن أسوّغ لنفسي مرة أخرى، مرة أخيرة!!

هل كان يمكنني أن أنجز أكثر؟!

هل كان يمكن أن أقاوم أكثر؟!

هل كان عليّ أن لا أعترف بالهزيمة؟! لم أقبل بها، ولكن.. الانتحار هو الحل، أم مزيد من العنف الذي لا يذهب ضحيته إلا الأبرياء؟!

لا أعرف، ولست مرتاحاً تماماً.

أود لو أستطيع الاعتذار منهم، الاقتراب أكثر: مصافحتهم، تقبيلهم جميعاً، طلب السماح الذي لن يبخلوا به. لا يبخلون به، ها هم يمنحونه، ويترحمون بصدق ولهفة.. آه لو يسمعونني، لأتقدم منهم بالاعتذار، وتأكيد أنهم يستحقون أكثر مما كان مني، من سواي، من الجميع.. يستحقون أكثر مما يمكن أن يكون.. ولو بعد وقت طويل!!

**

-2-

لو عرف الشيخ محمود بما أفكر فيه، لفرح بالتأكيد، ولسان حاله يقول:

الله الهادي، هذا من تأثير أحاديثي، وهذا مبشر. كنت أعرف ذلك، على يقين منه. رجل مثل عماد لا يمكن أن يكون خارج السرب، يختلف عن سواه من المراهقين والمستهترين، لديه أفكار وتجربة ومعاناة.. المعاناة هي التي دفعته للتفكير غير المنطقي. التفكير في حد ذاته إذا لم يكن مضبوطاً يقود إلى التهلكة. التسليم هو الأساس، الروح ملك بارئها، والحساب والعقاب يقتضيان من المخلوق التجربة، والتجربة تحتاج إلى ظروف مختلفة وحالات اختبار قاسية، لا يمكن الحكم من زاوية أو بيئة أو حال أو حياة واحدة.. إلى متى يستمر هذا؟! الله أعلم، وهو ليس بظلّام للعبيد.

ليس مهماً موقف الشيخ محمود أو زميلي شعبان. تلك هي أفكارهما وحججهما. المهم أنني أتمنى الآن ألا تبتعد روح أبي نضال كثيراً، فمثلها ضروري للحياة.. قد تتعذب من جديد، تعاني وتقلق، وتتمرد. لكن حضورها يتطلب الحياة بعناصرها المتناقضة ومواقفها وحالاتها المفارقة. روحه نسمة طيب تنعش الذاكرة، ذاكرة الوعي الجمعي، وتنشط العقل الذي ما يزال يعارك محاولاً ضبط المسارات بين الرغبات والحاجات، والحصول على هدنة تضمنها الشروط الإنسانية المناسبة، لتوفير الوسائل والمادة الخام والأمان..

ضياع روح مثل روح أبي نضال جريرة نتحمل مسؤوليتها جميعاً، كما نتحمل تبعاتها. والسعي إلى بقائها يستحق صلاة، دعاء، توسلاً.. هل هي أنانية؟! سأكون أنانياً، لم أكن من قبل.. ذلك أحد الأسباب التي أوصلتني إلى ما أنا عليه..

ما زلت أقيم مع والديّ الكهلين، أصرف عليهما.. حتى ثمن الدواء لا يساعدني فيه أحد من أخوتي، أختي البعيدة وحدها تساهم في ذلك.

أخي البعيد يمكنه الاقتراب حين يريد، لكن مسؤولياته الجمركية تمنعه وزوجته، أولاده لا يعرفون أمهم!

أخي القريب مشغول في وظيفته المالية، يجمع الضرائب التقنية التي قربت ملاهي العالم إلى بيته، حتى صار أولاده يبثون هذه الثقافة لأترابهم بكل اعتزاز..!

لم أكن أنانياً..

لم أرض أن آكل لحم الناس الأموات ولا الأحياء حين طلبوا مني أن أكون مخبراً، مع تحقيق كل الرغبات المطلوبة. لم أنافس أحداً على حقه حتى في قطعة بطاطا واحدة في صحن المرقة المقدم إلى ثمانية أفراد في المطعم العسكري الشاسع المكتظ، ولم أسابق أحداً على إجازة، أو صداقة دسمة، أو علاقة ذات أبعاد دنيوية..

بل إن اتهامات وصلت أصداؤها إليّ تتعلق بالبرودة وعدم الاهتمام واللامبالاة.. أحياناً.

لكن ذلك لم يهمني، ما دمت أبحث وأسعى بالطرق المشروعة.. التي لم أقصر في سلوكها، رغم أن في ذلك مغامرة قد تتجاوز سلوك الطرق الملتوية المتحايلة الباحثة عن منفذ أو ثغرة أو عبور مهما كان الثمن!

لم أكن أنانياً لأستغل علاقتي بـ أبي نضال للوصول إلى ابنته، رغم أن الأمر شرعي، ورغم كل الملامح الميسرة، والإشارات الإيجابية التي تبدت منها، ومن نضال أخيها..

لكن المؤشرات القابضة من الكائنات الثلاثة الأخرى جعلتني أتردد، ثم أبتعد. ربما كانت هناك أسباب أخرى لا جدوى من إثارتها الآن، وأنا أنتظر مولوداً من سواها.. لن أكون أنانياً لأتمنى أن يشبهني، أنا الذي لم يشغلني جنسه ذكراً أو أنثى، لست مغتراً بنفسي إلى الدرجة التي أفترض

مثل ذلك الشبه، على الرغم من الانسجام الذي أحسه، والتوافق المرّ بين القناعة والواقع والجدوى.

تقول زوجتي:

- إن كان ذكراً فليشبهك، لا أزعل، بشرط أن تشبهني إذا كانت أنثى، هل لديك مانع؟!

لا أرد، وحين تتبرم من حياديتي، تقول:

- تفهّمنا أنك لا تريد أن تعرف جنسه قبل أن يأتي، لكنني أحس أحياناً أنه لا يعنيك، أم أنني أنا التي لا تعنيك؟!

تحاول دائماً استثارة مشاعري المتثاقلة، لأن زواجنا كان بمبادرة منها، كيلا تذهب للتعليم في محافظة بعيدة. أنا لا أفكر في هذا، وممتن لها قبولها بي، رغم عدم توفيقي في عمل مستقر. إلا إذا كانت ترى في مهمتي الجديدة موقعاً مهماً، ربما ساعدها ذلك في تسويغ رضاها أو مبادرتها.. أتجاهل استفزازها ببرودتي المتثاقلة.

- المهم أن يكون مكتمل الخلقة، صحيحاً.

أتابع بعد أن ألحظ اهتمامها وتحديقها.

- وسلامتك طبعاً!!

تلقي شبه ابتسامة، وتقوم بتثاقل مبالغ فيه. أحس بذلك، وسرعان ما أتجاوزه إلى التفكير في الحياة التي سيعيشها هذا المخلوق المجني عليه، الطرق التي سيسلكها. ماذا يمكن أن أؤمن له لأكفيه شر الحاجة، وألم المعاناة.. وأقول بعد لأي:

- لن أكون أنانياً لأختار له طريقه، يمكن أن تختلف ألوان الإشارات على زمنه، والمعابر قد تتغير، والمبادئ والقوانين والمشروعية، قد يعاد النظر بكل شيء: الأسرة، الدين، الشارع، الحلال، الحرام، الأحزاب، السلطة، المسؤولية..

لن أكون أنانياً أو متسلطاً لأنشغل بمصيره ومصير أخوته إن أتوا!

سأكون أنانياً من أجله، أجلي، أجلنا..

وأتمنى أن ترضى روح أبي نضال التي خرجت تواً، قد تكون ترافقنا، تسمعنا ولا نسمعها، تراقبنا ولا نراها.. تتمنى علينا أمراً لا نعرفه، وتحتج على قضية نجهلها..!

أتمنى أن ترضى روحه فتعود إلينا عبر مولودنا القادم؛ قد يكون وُلِدَ، ربما هو يبكي الآن.. يبكي أم يضحك أم يشرد. هل يرضى بذلك، هل يستطيع الرفض؟! هل تجتذبه أمنياتي ودعواتي؟! هل يستجيب لي.. هل يقدرني، إن عرف أني..

هل يغفر لي الله ذلك؟!

هل أخطأته؟! وهل هي الخطيئة الوحيدة..

سأتحملها لو تحدث، ومستعد للحساب والعقاب من أجلها. لو تنفّذ، لو تهل روح أبي نضال في دارنا..

**

-3-

لم أكن مقتنعاً..

تساءلت عما يمكن أن يكون، لو لم يكن ما هو كائن.. ما الذي يجعلني أتساءل، وسواي لا يفعل ذلك، لا يجيب؟!

ما الذي يقلقني، ويطمئن الآخرين؟!

هل هم مقتنعون؟!

ليتني أقتنع!..

قلتها مرات، وأشفقوا علي، وأشفقت عليهم،

- غداً تكبر وتقتنع!

قالوا.

- ليتهم يشغّلون عقولهم.

قلت ذلك كثيراً، وأحياناً أقول:

- ليتني مثلهم، أنام ملء جفوني عن علامات الاستفهام التي تتكاثر وتكبر.. حتى لتكاد تغطي الآفاق..!

**

-4-

كنت صغيراً على الأسئلة، قالوا، وقالوا: صغير على الإجابة التي يمتلكون، وعليك أن تنتظر لتنضج، وقد لا يحصل ذلك قبل الأربعين. من يضمن وصولي إلى هذه السن؟! وقد لا يحصل إن كنت لا أستحق، ومن يضمن الوصول إلى تلك المحطة، ومن الذي لديه معيار الاستحقاق؟!

وكنت ناضجاً. لا أريد أن يمضي وقت النضوج في الانتظار الفج، صرت ألح في السؤال. يتندرون بأسئلتي التي لا يجاهر بها إلا جاهل أو كافر، ولما كنت صغيراً على الجهل ومتسرعاً في الجهر، أخذوني على قدّ عقلي! من حسن حظي، أو من سوئه، لا أستطيع التمييز. تغامزوا، وتجاهلوا. تهربوا من مواجهة ليست في الحسبان، وتستّروا بأدعية يجيدون تكرارها، وطلبات الرحمة والاستغفار يبذلونها بسخاء على من هب ودب.

**

-5-

مـا للـذاكرة تـداهم أوقـاتي العلنيـة والسـرية، حتـى لأكـاد أعـيش فـي الماضـي بكـل تفاصـيله وعناصره؟!

هل هو الانحدار الذي بدأ في الحيز الأخير من العمر الذي يحسب بطرق غير مقنعة..

الانحدار الذي يتسارع بلا ضابط ويتكشف بلا أقنعة، أحس بتدافع يخوّضني في المسالك الوعرة بهمة، وضجيج الصخرة التي تفلتت من تشبثي بعبء الوادي غير ذي الزرع، فهل ستستمر دون زحزحة بعد الآن؟! وهل يمكن المكوث فيه طويلاً.. أو إلى الأبد؟! وما الفرق بين الاستقرار والتعفن؟! لم أجرب ذلك، ولم أبتدع حركة التصعّد كما لم أختر الصخرة!! المكوث فوق والسكون تحت؟!

لم تكن صغيرة.. أكبّرها كما يقولون، ويقولون: من كبّر ما ضرب؟!

لم أكن أريد الضرب؛ بل الوصول إلى إجابات؟! أو محاولة الوصول؟! لماذا أنّ الآخرون؟! وما الذي أصابهم؟! لماذا لا يفرحون بصخورهم الصغيرة ولماذا لا يصلون؟؟ لماذا لا يتركونني وصخرتي العملاقة؟! حيثما نلتقي؟! في الصعود أو الانحدار في السفح، فوق أو تحت؟!

**

-6-

لو لم يكن هذا الوضع، ماذا يمكن أن يكون..؟!

رد أبو نضال:

- ربما كان مثل هذا السؤال وراء ما حل بي.. بالناس.

وأضاف بعد تفكير:

- تساءلت، من منطلق البحث عن واقع أفضل، يقي من الجوع والبرد والتشرد، واقع يرفع الظلم، ويسحب الحراب من الصدور والظهور التي توالي البحث عن أمان وكفاية وعدل، ويؤمن بقاء الرؤوس مرفوعة، تنظر بثقة إلى الآفاق، وتخطو فوق الدروب التي يمكن لها أن ترسم بغريزة البقاء الآمن..

الأرض لمن يفلحها ويعمل بها، والشمس ليست ملك أحد، ولا الهواء يهب بمشيئة أرضية طامعة.

هكذا فكرت، وفكرنا. ووجدت في تلك الشعارات ما يرضي، وما يكفي لكي يحقق الكثير مما نريد..

هذا سؤال غريزي مشروع، لا تظنن أن المشكلة في إطلاقه؛ بل إن في عدم التفكير فيه مشكلة عدم استخدام قدرات عقلية في هذا الكائن العاقل!

ربما كان صعباً في عمرك، أو في بيئة مثل بيئتنا التي لم تعتد مثل هذا السؤال، رغم أنها لم تنس أن تفكر في القهر والاستغلال والشقاء والعناء المتراكم، سواء من الطبيعة أو من بعض البشر مالكي الإقطاعات، ومكابس الزيتون وطواحين الحبوب..!

لم ينشغلوا عنهم في كل إلحاح الحاجات. ستقول لي إن الأمر لم يصل في الواقع إلى ما كان طموحنا أن نصل إليه. لم نصل؛ أقول لك ذلك بوضوح، لكننا حققنا أشياء مهمة: القناعة بإمكانية الوصول والخروج من عنق الزجاجة، أو بئر الزمن، أو كهف العادات والأفكار.. حققنا خطوات هامة، يمكن الاستمرار فيها والبناء عليها. لم نصل إلى الغايات الكبرى والأهداف العظيمة في الداخل والخارج. للخارج أمراضه وأسبابه ومتآمروه والمتدخلون فيه المتربصون بأي اتجاه صوب التوحد. أما في الداخل، فإن الكثيرين ممن حققوا تقدماً، استثمروه لأنفسهم، لأهلهم، لمعارفهم، لجيوبهم.. وظلوا يرفعون الراية ذاتها، ويرددون الكلمات عينها؛ لكن مع نقص أكيد، فالمعاناة لم تعد معيشة، ولم يعد بالإمكان ملاحظتها لدى الآخرين الذين بدؤوا يحاولون التقرب بأيّ وسيلة. دخلوا في التنظيم لأنهم وجدوا ذلك شرطاً أساسياً، والشروط الأخرى تلي، وتتنامى المواقع والمكتسبات.. أعترف لك يا عماد بأن منطلق سؤالك أعمق، مع أن هناك من يراه سلبياً من حيث الدافع إلى القنوط أو التردد أو القلق.. كل ذلك لا يساعد على العمل والإنتاج

والسعي.. لأن النتيجة أبعد من حياة مقدرة في أحسن حالاتها بعشرات السنين، وأعقد من تأمل بسيط..

***

الفصل الحادي عشر

-1-

سيفرح الشيخ محمود كثيراً لو علم بما خطر لي. ستتوسع خطواته، وتعلو عصاه أكثر وهو يحيي من يراه، أو يحس بوجوده، أو ينادي من خارج الدور، منبهاً من يمكن أن يكون هناك إلى حضوره، وضرورة الاستعداد للقيام بالواجب..

لم يكن في قريتنا شيخ، تلك مسألة تم النظر إليها من وجوه متعددة. الراحة من وجوده الدائم والانشغال بالطقوس التي يفرضها حضوره، والالتفات إلى الأعمال والأشغال، وملاحقة الآخرين حكايا وسيراً وعلاقات تخفى وتبين. والحاجة إليه للقيام بما تمليه الواجبات التي تتعلق بالآخرة، بأحاسيس ومشاعر وأمان وأوهام، وحقائق تتطلب دفن الميت، بعد الصلاة على روحه، والقسم بأننا (لا نعلم عنه شيئاً، وأنت أدرى منا به)، رغم أنه قد يكون "فعل السبعة وذمتها" على رأي ناصر، وهي تشبه شهادة حسن السلوك التي يقدمها المختار لكل طالبيها. أما الأحوال الأخرى من "كتائب" وتعويذات، ونذور، وأعياد ودعوات إفطار، فإن لقريتنا سمعة لا تسرّ حولها، ومن يقوم بها لا يعلن ذلك، ولا ينفيه إذا ما أسرّ به أحد العارفين..

لكن الخطبة والزواج لا يمكن إنجازهما من دون إقرار الشيخ محمود، ولا ينسى متابعة المناسبات الدنيوية الأخرى: نجاح أولاد، عودة من سفر، شفاء قد يدعي أن له دوراً فيه. ولم يقتصر حضوره على ذلك، فقد صار لجولاته البعيدة حديث، ولعلاقاته المتباعدة صدى مهم في إنجاز ما تعثر من معاملات، أو توظيف من شق عليه ذلك..

حاول مساعدتي في تأمين مستقبل مناسب. أكد ذلك مراراً، ولم يقطع الأمل. (لكن أبا نضال هو السبب، في البداية كانت علاقتك به تمنعك من الاعتماد علي، وربما الاقتناع بإمكانياتي، ثم صار لاحقاً مثار اعتراض من أعلى مستوى.. نبهتك، ولم تقتنع، قلت لك لا يبول على جرح، لم تصدق، رجل ليس عنده لله، لن يكون عنده للناس نصيب، رجل يأخذ من غير ملّته يموت في علته. انظر ما حلّ به. من جهتي، أشفق عليه، تحدثت من أجله مع علية القوم. لولا ذلك، ما تركوه يعيش بسلام، أما أنت، تستطيع أن تعوّض، سأسعى من أجلك، لو تقتنع!).

سيسعى من أجلي لدى المسؤولين الكبار، توصل إليهم، أعرف ذلك. حدثني أبو نضال عنه، وعن إقامته الطويلة في العاصمة، معتمداً على كوفيته الناصعة، باعتبار أن لباسه الرسمي لا يكاد يميزه عن الآخرين. فهو رجل دين عصري، جاء إلى هذه النعمة بعد تفكير واقتناع، لم يرثها عن والده الذي أمضى عمره في الحقل، يزرع ويحصد ويرعى، وينتظر المطر والفصول والمواسم

التي تشح وتفيض بما يشاء الواحد الأحد، في الوقت الذي كان يهزأ منه محمود: "الدين أفيون الشعوب"! ما علاقة ربك بتقصيرك وإهمالك؟! وما علاقته بعدم اقتناعك بضرورة الإقلال من الأولاد؟! وكانت لديه الأفكار الملحة حول "حتمية الحل الاشتراكي"! لكن الفلاحين عاجزون عن إنجاز ذلك، ولا بد للعمال من حركات تجعلهم معنيين بوسائل الانتاج، بعد وعيهم بضرورة التخلص من مستغليهم.

وحين يسأله أحد: أين العمال والمعامل؟! عمالنا في لبنان أو أمريكا اللاتينية.. ومن يعود منهم لا يجد وسيلة إنتاج حديثة..!

كان يقول: الزمن كفيل بذلك. لا بد من مرحلة الرأسمالية التي توصل إلى مجتمع الكفاية والعدل، بعد أن تستفحل تناقضاتها.. ليصبح لكل ما يحتاج إليه، بعد أن يقدم ما يستطيع!

هل كان لأيام الاعتقال القليلة ذلك المفعول السحري؟! أم استشف التغيرات الهائلة التي ستحدث في العالم؟! لم يكن من الذكاء في تلك الدرجة، ولم تكد تخبو أصداء ولائمه التي كان يقيمها مع زملائه، حين يكلفه والده أو جدته إيصال الديوك إلى شيخ القرية البعيدة.. ولم يتأكد لدى الكثيرين أنه انتقل إلى الصف الآخر من النضال نكاية بأستاذ الأدب الذي كان له دور في الحزب المهيمن، أم أن ذلك كان بتأثير زوجة الحزبي العنيد، الذي قضى الكثير من سنيّه مطارداً، أو معتقلاً، والتي استضافته طويلاً!

قال: أعرفك نبيهاً، ماذا تنتظر بعد؟! الفرصة سانحة أمامك، وأنت شاطر في الكلام، أنا أحب مصلحتك. واحد غيري لا يشجعك على أن تنافسه، ولكن حالك تقلقني! وقلبي يتقطع على من هو في مثل وضعك!

الله يقبل التوبة، ويغفر لابن آدم كل ذنوبه، إلا أن تشرك به أو تنكره.. صدقني إن اختياري لك واجب أملاه علي حلمٌ، فيض، رؤيا.. فأنت تستحق، لولا ذلك ما كان إصراري على التحاقك بجيوش الرحمن..

وهذا كله من أجل روحك التي يبدو أنها طيبة، وهي تستحق أن تعود إلى هذا الهيكل الآدمي مرة أخرى. أنا متأكد من ذلك.. وواثق أن روحك ستحظى به، هذا إذا اقتنعت وتبت، وأكملت واجباتك الدينية. في العمر ما يزال بقية.. وتوبتك ليوم واحد، وصدقك في ذلك يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فلا تتأخر يا شيخ عماد. وقد أُعذِرَ مَن أَنذَر!

ولم ينسَ في مناسبات كثيرة أن يذكر الحوادث التي طافت حول الأرواح التي انتقلت من جسد إلى جسد، والحكايا التي أكدتها الوقائع، والتي دل فيها المدعون على عناصر وأدوات وعلاقات لم يكن يعرف بها الآخرون، وليس لديهم من الخبرة والوعي والقدرة على ابتكارها.. لم يكن ذلك يهمني لأنه تفصيل صغير من السؤال الأكبر الذي ما يبرح يلح: ماذا كان يمكن أن يكون لو لم يكن ما هو موجود..؟!

هذا السؤال لم يعنِ شيئاً لمحمود الذي لطالما أكد: "المادة تحرك التاريخ"، والعلم والعمل هما من يخلقان المعجزات. بعدئذ لم يقبل الشيخ محمود مثل هذه الأسئلة، لأنها كفر وإلحاد. وما عليك إلا التسليم بقدرة القادر على خلق أي وجود، أو شكل منه، وحكمته في اختيار هذا الأنموذج ليختبرنا "أيكم أحسن عملاً"، وأيّنا يعمل لآخرته.. وفي الطريق إلى تلك الآخرة، يمكن للروح أن تمر في مراحل متعددة، تختبر فيها أو تنتظر..!

في فترات الخدمة العسكرية الطويلة، كان يجري الحديث عن ذلك أحياناً، وخاصة حين يتم التشجيع على الشهادة، فالشهداء "أحياء عند ربهم يرزقون".. ومن الزملاء من قال إن الروح تعاود التجسد فلا بأس، ولا خوف، ولا سيّما إذا ما خرجت في سبيل الوطن أو القضية، أو الله.. آخرون لا يقتنعون. مع ذلك فإن هذا لا يؤثر في إقدامهم، إذا ما فرضت الحرب، أو نادى المنادي للذود عن الكرامة.. ومن الناس من يرى أن الروح يمكن أن تكون حتى في الشجر أو الحجر، فلا عجب أن تعود من الإنسان إلى الإنسان، أو تنحدر إلى الحيوان، أو تتجمد في الأشياء..!

لم أكن أقتنع، أو لم أنشغل كثيراً بالأمر، كنت أتساءل عن الفائدة التي يجنيها الكائن الجديد من روحه القديمة إذا كانت بيئته وشروطه وأسرته وظروفه مختلفة. إنه كائن مختلف، بعمر آخر وتاريخ ودور مختلفين.. ولا أعتقد أن لانتقال الروح هذا علاقة بالمرحلة السابقة. ربما كان لحماسة الروح وحيويتها وخروجها الطارئ من الجسد دور في سعيها لأقرب هيكل؛ لأن غالبية الحوادث التي سمعت بها أو قرأتها تتعلق بموت فجائي نتيجة إصابات جسدية قاتلة، دون أن يكون للموت الطبيعي حضور ذو بال.

انتفض الشيخ محمود:

- هذا كفر، وتفسير قاصر ومتخلف وانتقائي، هذه أمثلة فقط تظهر أو نسمع بها لتعبر عن الحال برمّتها، وهي دليل على وجودها، ونكرانها يعادل نكران خالقها.. ولا أريد لك هذا، فعقابه شديد..

ضحك أبو نضال:

- أفكارك مهمة، لكن هذا الأمر لا يشغلني، لم يكن يشغلني، ولا أريد أن أعود إلى الحياة على أي شكل. لا أريد ذلك، ولا أتمناه، ولا أتوقعه.
- هل تشعر باليأس؟!
- ربما كان خيبة أكثر منه يأساً، لكنها تجربة مُرّة، خيبات..
- ألا يوجد أمل في أن تكون الحال أفضل؟!
- لا أريد أن يدب اليأس في كائن يمكن أن يكفّ عن السعي، فتتبلد الحياة، وتتماوت. وهذا أصعب من الموت. صحيح أن حالي ليست أفضل من هذا التوصيف، لكن لدى الأجيال طاقات

وقدرات وظروفاً ربما تكون أفضل، أو ربما تكون مناسبة لهم بصرف النظر عن رأينا فيها، نحن أبناء الجيل المنقرض.

– لكن يمكن أن تتجدد إذا ما انتقلت روحك إلى أحد أبناء الجيل الجديد الذي تتحدث عنه.

– لا.. لا قدّر الله، ربما ستكون عاجزة عن مسايرة الأحوال والظروف التي ستتجاوز ما نحن فيه، وما تجد فيه من خروقات أو فوضى، أو نزوع أناني وافتقار إنساني، وسطوة نوازع الشر على إرادة الخير.. حينئذ ستكون الروح أكثر قلقاً، وأكثر انفضاحاً.. وهذا ما لا أتمناه للكائن الذي سيكون!!

– هذا الكلام يقودنا إلى تأكيد ما يقوله الشيخ محمود من انتقال الروح، لأن ما نراه وما نقرؤه يؤكد تزايد حال الفصام وأمراض القلق والاضطرابات النفسية في العالم كله، وليس في منطقتنا فحسب. هل يعني هذا أن جميع المرضى دبت في أجسادهم أرواح سالفة كروحك..؟!

– لا أقول هذا، ولا أعرف، ولا أتمناه.. لكن ما يجري في العالم الآن يودي بالكائن المتوازن المنسجم إلى التناقض، وبالتالي القلق. لأن المبادئ التي يطرحها الكثيرون تكاد تكون مثالية، وما يطبق منها نزرٌ يسير. والغريب أن جميع المآسي تحدث باسم تلك المبادئ والأفكار. كأنما تقرأ من وجوه وزوايا مختلفة..!

– إذن ما الفرق بين هذا العصر والعصر القادم..؟!

– الفرق أن التجاوز يمكن أن يصبح قانوناً بحد ذاته، ويمكن أن تسوّغ الأنانية، ويسوّغ العدوان، ويصبح للشراسة والفتك مشروعية امتلاك القدرة على ذلك..

– وتصبح حقوق الإنسان من الوثائق الأثرية..!

– الآن هي كلام حق يراد به باطل، قد يصبح باطلاً طرحها أو الاقتناع بها، ناهيك عن الدفاع عنها!

– أليس هذا تشاؤماً تسببه الحال التي أنت فيها يا أبا نضال؟!

– وماذا عن حالك يا ابني؟! وحال الكثيرين أمثالك؟! أليست حال الشيخ محمود دليلاً على انتقال كارثي وشيك؟!

– ولماذا لا تسميه تكيّفاً، ألا يحتاج الكائن إلى مثل ذلك ليستمر في الحياة بأكبر قدر من الأمان؟!

– أفهم حال التكيّف، وأعي قدرة المرء على تعوّد الحال الجديدة، ليتمكن من متابعة العيش. وأدرك أن من المحال أن يحظى المرء دائماً بظروف تناسبه تماماً. لكن المشكلة تكمن في اقتناعه بما آلت إليه الأمور، بقدر اقتناعه بما كان يدافع عنه، وعادى الكثيرين، وتحمل المطاردة والمخبرين والاعتقال بسببه.. أن يدافع عن عكسه، ويتبنى ما يختلف عنه حسب كل المقاييس، تلك هي المشكلة..!!

- هل تعتقد أنه مقتنع بذلك؟!

- تريد الصراحة؟! لا أعرف، ولا أستطيع أن أستثير مشاعري حيال ذلك. إذا كان غير مقتنع فهو منافق، ويندرج ضمن السلسلة التي تطول.. وهي مشكلة حقيقية لأنه يتاجر بالإيمان وبالدين. وإذا كان مقتنعاً فالمشكلة أكبر، لأن التحول الكبير هذا، والانتقال من ضفة إلى أخرى، والسير بمسارين متعاكسين بالحماسة ذاتها، كل ذلك يجعل من الإنسان كائناً معرضاً لكل أنواع التحولات. وعندئذ يصبح الأمل بالتطور الأفضل ضعيفاً، ويضحي الخراب واقعاً، والقنوط مسيطراً ومسوغاً! لا أعرف، ولا أتمنى ولا أستطيع التمييز!! وبالنسبة لي الأمر انتهى، الحسرة على أمثالكم!!

كان الله في عونكم!!

- إذا شاء الشيخ محمود!!

ضحك طويلاً.. ضحكة صفراء.. وسايرته في ذلك.

لم يكن الشيخ محمود وحده..

عدد مهم من أمثاله بدأت نشاطاتهم وتحركاتهم في مختلف القرى، وعدد أهم من الشبان انشغلوا بهذا الجانب المريح نفسياً.

قال شعبان زميلي في الصف، وقد التقيته بعد زمن، فبدا لي بسبحته وكوفيته وهدوئه المبالغ فيه، وأقواله التي تكثر من ذكر الله ورسله:

- الإحساس بالتقارب بين الإنسان وخالقه ضروري لمعايشة الواقع الصعب، والعبور بأقل الخسائر، ويؤدي إلى الصفاء والنقاء والتسامح، ويبتعد به عن الثرثرة والملاهي والأوقات الضائعة التي ينقاد المرء فيها إلى عادات منكرة وأفعال شائنة، واهتمامات غرائزية أكثر منها حاجات لازمة.. انظر إلى هذه المظلات المعدنية التي تدور في كل الاتجاهات، وتتكاثف فوق معظم الدور؛ متى كنا ننشغل بهذا، صرنا مثل المدينة أو.. العياذ بالله، ربما سبقناها!

على ماذا يتفرج أبناؤنا، وعلام يبحثون؟! عن اختراع جديد، أو عملية جراحية مصورة، أو منطقة غير معروفة من العالم، أو آثار تكتشف حديثاً.. أو..

حتى الرياضة بمحطاتها المستمرة لم تعد هي المشكلة الحقيقية. المأساة هي في تلك الأغاني والمفاتن والغوايات التي تظهر وتتحرك وتدعو، إنها تغري ذوي العقول والشوارب، فما الذي تفعله بالمراهقين؟! أما المأساة فهي في المحطات الأخرى، لم أشاهدها، قالوا عنها الكثير، العياذ بالله، اللهم أَجِرنا؟ ولكن كيف السبيل إلى ذلك والشيطان صار في بيوتنا؟!

ضحك ناصر حين أخبرته بحديث شعبان، وقال:

- شعبون يقول هذا؟!

- نعم، شعبون!
- اسمع ما جرى معه إذن؛ الكلام على ذمة تيسير، زميلنا الآخر قال: كان ابنه يقلب في التلفاز، وكان شعبان يبيت عند والده، فعبرت محطة بمشاهد فاضحة، بدلها الشاب بسرعة قبل أن يراها والده. قال الشيخ شعبان الذي رأى الشاشة: دعهم، حتى ننال ثواب البصاق عليهم!!

قالت زوجة شعبان لزوجتي، حين جاءتنا مهنئة بقراننا الذي تأخر:

(اشكري الله أن اهتمامات زوجك مختلفة عن انشغالات زوجي، كنت لعنتِ الحظ الذي ساقك إليه؛ معتزل في غرفته، لديه زواره من أمثاله، أو شبان صغار، وهاتي ضيافة، انقري على الباب، لا أحد يدخل، حتى ابنه أو ابنته. نسي الأولاد، لا يسأل عن مستوى الكبار في المدرسة. أما الصغار فلا يهتم حتى بصحتهم: لا تأخذيهم إلى طبيب، الله الشافي. أما أنا فلا يسأل عني إلا لتلبية حاجاته، التي يجب أن تنفذ بلا أي تأخير، ومن دون أي اعتبار لحالي وحاجاتي.. ويغيب أياماً، لا أعرف عنه شيئاً، ولا يعرف عنّا..

يقول بمنّة: انظري إلى الآخرين يلعبون الورق وطاولة الزهر أو المنقلة، يتخاصمون أو يثرثرون على فلان وفلانة، على الأخبار، وما في الأخبار غير وجع القلب والروح. هل تريدين أن أصاب بجلطة أو انفصام في الشخصية..؟!

أقول له في سري طبعاً:

وما الفرق، النتيجة واحدة!

وتزفر بحرقة: ايه.. ذنب لما ينته بعد!)

يقول أبو نضال:

- ليست الحال مقتصرة على القرى، لكنني مفاجأ بها، لم تكن قرانا كذلك. الحال ذاتها في المدن أيضاً، وربما كانت أفظع. يلتقون جماعات في المراكز الدينية أو في البيوت. هناك لقاءات للذكور وأخرى للإناث. وهنا المشكلة أعظم، كثافة في المختليات وكثافة في الصحون.. المدينة تكاد تغطى بها، حتى على الشرفات والوجائب، لأن السطوح لم تعد تتسع!!

تحدثنا طويلاً في الموضوع كعادتنا، بحثنا في مختلف جوانب المشكلة. لم نختلف على الأسباب، فالخيبة من الفشل والهزائم، وتدفق الوسائل والأساليب والأفكار والحالات.. تجعل الشرخ حاداً، ونذر السوء أكثر حضوراً..!

هل هذا ما دعاني إلى الاستمرار في مهمتي الحزبية؟! علني أستطيع من موقعي الميداني أن أحد من هذه الظواهر.. وبناء على تشجيع منه!

لكن الحال لم تتحسن، وما زال الملتزمون يتقلصون، والخطط تتلاشى عناصرها المنفّذة.. ولا بد كي تستمر من أن تكذب بعدد الحضور، والنشاطات المقدمة، والحوار الحيوي والأسئلة الجادة والاستعداد للمشاركة والحماسة والاندفاع.. والأنكى من ذلك أن عليك أن تسجل كذبك على الورق.. دليل اعتراف وإدانة، يستخدمونه في أي وقت، لأنهم يعرفون الواقع، ويمارسون ما نمارس؛ بل ما هو أفظع وأدهى.. هل هذه حقاً سياسة متبعة، وخطة مبرمجة؟! كما قال ذلك المفكر في محاضرته التي تركت ردود أفعال متناقضة: الغاية إفساد من لم يفسد بعد، لكي يكون الجميع مدانين تحت الطلب! سرّ منها الكثيرون، ولامني المسؤولون لأني لم أتدخل، في الوقت المناسب، لأوقفه عند حده، أو لأثبت للحاضرين الذين اكتظت بهم القاعة الكبيرة، غيّه، وسوء تقديره، وبؤس استنتاجاته، وعكر غايته!

**

-2-

حط على غصن ممتد صوب الواقفين يؤدون صلاة الجنازة. الشيخ محمود الواقف أمامهم، يسرع في الكلام، قبل أن يهبط الظلام، ويعود المطر الذي توقف منذ قليل.

ألهذا يتعثر في القول الذي ردده مئات المرات؟! أم أنه يعيده كما حفظه، ولا مجال لتقويم اعوجاجه، الآيات تختصر والكلمات تتأرجح أواخرها، وتمتص الحروف الوسطى.. فتنقلب المعاني، أو تغدو الجمل غير مفيدة..! والحسرة على الروح التي تؤبَّن؛ أما يكفيها ما لاقت من عسر في الحياة، حتى تلاقي هذه العثرات في الدعوات؟! ترى، هل ينتظرها مصير أسود من جراء هذه الصلاة العرجاء؟! أم أن ما يقوم به المؤبن يعبر عن نيته الحقيقية وعدم اقتناعه بما يتمناه لأبي نضال، وعدم قدرته على القول السليم؟!

هل يلاحظ الحاضرون ذلك؟! ليس الآن وقت الملاحظة، أم أنهم لا يتوقعون أفضل، فهم يعلمون!

في حالات مشابهة، كانوا يحضرون شيخاً ذا لباس عصري ولغة متماسكة تسعد المشيعين، رغم أن الكثيرين منهم قد لا يفهمونها، لكنهم ينتشون من صدى إيقاعها المسجع، غير آبهين بالوصايا والتهديدات التي تنهال من فمه بثقة. سمعوها كثيراً، وربما رددها بعضهم، أو قرأها في كتب ورسائل ذات أوراق مصفرة لم تعد سرية، بعد أن صار يسيراً تصويرها، أو طبعها، أو نسخها عبر الشبكة العنكبوتية!

شعبان كان يردد: أليس هذا كفراً؟! لم يعد هناك من سرّ، لم تعد من قداسة، يمكن لأي أيد ملوثة، أن تمسك بأية ورقة ذات قيمة عُلْوية، يمكن لأي شخص كافر أو ملحد أو غرّ أن يطلع على ما لا يجوز له الوصول إليه؟! أين التميّز؟! أين العلماء والعارفون؟!

ما يزال يقبع فوق الغصن الذي ما تزال في أطرافه خضرة، تهتز مع الرياح؛ فلا خوف إذن من انكساره؟!

"ومم ينكسر؟! لم يعد لي من وزن. يمكن أن أقف على ورقة سنديان، أو ثمرة دوّام، أو أي فرع صغير. يمكن أن أطير فوقهم، وأقف على التابوت الذي يضطجع أمامهم، كي يكون في توجههم إليه ما يسوّغ. لكنني سأظل هنا، أراقب المشهد بحرية ويسر. أستطيع أن أفرح لو كان ذلك مفيداً. فما يزال المشيعون مسمرين في أماكنهم رغم البرد والصقيع، والريح التي تشتد أحياناً، ورغم المسافة التي تبعدها المقبرة عن أغلب بيوت الضيعة، يقطعونها مشياً.

بعض الدور جاورتها، امتدت القرية كثيراً صوب الحراج والغابات، لم يكن هنا من سكن ولا ساكنين. بيت واحد، ضائع بين غابة من السنديان كان ملتقى الهاربين من أسرهم، وحاجاتهم، وعوزهم، يلعبون الورق، ويشربون. يضحكون ويتعاركون ويضجون. ينشغلون بالخسارة والربح، وما الفرق؟! وكم يكسب الرابح وماذا يخسرون؟! سجائر، أو زجاجات ذات سوائل حارقة، بَيضاً، أو تبغاً.. هنا كانوا يفرمون الدخّان أيضاً، ويصنعون العرق.. ويخفون (الكركي) والغلة.. يلعبون بها ومن أجلها، كما يلعبون بالأيام والمناسبات!

هنا كان للأوراق السرية حضور. أوراق صفراء ورسائل لا يسأل ناقلوها، وتخفى عن النسوة والأولاد. أوراق أخرى ومنشورات كانت تُتبادل ويجرّم حاملوها بقسوة. كنا نجتمع هنا. أفراد قليلون من قرى متباعدة.

لم تطل بنا الحال، فأولاد الحلال موجودون في كل زمان ومكان، نقلتُ إلى أبعد قرية في المحافظة، رغم أنهم لم يصادروا شيئاً، لو كان لديهم دليل مادي كان السجن مصيرنا، وربما التقينا بالشيخ محمود، وإن كان كل في اتجاه. استطاعت المحرمات الأخرى أن تستمر علنياً:

الموبقات التي نحاربها وندعو الجميع لكي يبرؤوا منها، ويهتموا بقضاياهم وأوضاعهم المزرية، والبحث عن سبل التخلص من مستغليهم ومذلّيهم المتعاونين مع "الجندرما"، فيطلقونها إليهم حين يريدون، ويعمونها عنهم حين الرضا.

ضحك أبو أسعد: نريد ثمن نجاتكم، لولا معاصينا، لكنتم في خبر كان!

قلت: ندخلك في خليتنا!

- بأي صفة؟! ما أنا بعامل، ولست فلاحاً، ولا كادحاً.. آه صحيح، سمعتكم تقولون: أصحاب المهن الصغيرة! يمكن أن تقبلوني بصفتي مهنياً.. ولكن ما هي مهنتي؟! آه.. صاحب ملهى!

ينظر حوله، في أحد الأركان لاعبو ورق، وفي الركن الآخر مائدة خمر، ومنقلة وطاولة زهر. كل ذلك يكاد يضيع في جو عابق بالدخان والأنفاس والروائح.. وخلف الحاجز القصبي أسمع صوت الفرّامة. وفي الخارج /كِرْكي/ وصناديق من العنب..

- هو ملهى أو "كازينو" هكذا يسمونه في بيروت، أعرفه حق المعرفة، ونصف هؤلاء يعرفونه، ولولا الأحداث هناك، لما رأيت أحداً منهم هنا.. أحياناً كنت أحس بسوداوية، وأدعو العجائز للحضور.. فينامون أياماً، لأن الطقس لا يسمح لهم بالمغادرة، وهم لا يرون في وضح النهار، فكيف يتبصرون الطريق والدّخان يدمع عيونهم، و"العرق" يشوش رؤوسهم..؟! فما ترى إلا الشبان الذين يبحثون عن آبائهم وأجدادهم عندي. وفي إحدى المرات هاجمتني مجموعة من النسوة في نص الليل.. واقتادوا أزواجهن من دون أن يقاوموا، وما دافعت عنهم.. بيني وبينك، كنت قد مللت منهم. لا فائدة ترجى.. ولا..

- هذا "الكازينو" يحتاج إلى نساء، ما رأيك بالنوَرِيّات..! والله جبتها يا أبا..

سنجعل يوماً في الأسبوع للرقص والفقس.. بيني وبينك، يذهبون إليهم عند العين، وقرب الفوار.. لا، هنا أفضل!

ما رأيك يا رفيق حسن؟! يمكنكم أن تجتمعوا في ظلهم كما تشاؤون، ومن يأتي في طلبكم أعزمه على وليمة.. فينسى ما جاء من أجله!!

*

لو كانت فتاة الزعتر حية، لأحسست براحة ما، وأنا أتملى الوجوه الدافئة في بعض الوقت المتبقي، وربما تألمت أكثر لوداعها. لم تكن تخطر كثيراً، إلا حين أفكر في المبادرة التي يمكن أن تقدم عليها المرأة في أكثر الموضوعات حساسية، وهو ما كان يبدو غريباً أو مستهجناً.

كثير من الإنجازات الحقيقية تكون المرأة صاحبة فكرتها، لكنها تحتاج إلى مباركة الرجل لتعبُر. وقد لا يسمح بذلك إلا بعد أن يضيف إليها تعديلات قد لا تعني شيئاً، كيلا تسجل باسمها. تتحمل المسؤولية بكفاءة في البيت والزراعة وتربية المواشي.. في التربية والاقتصاد.. ولها آراء صائبة في الناس والعلاقات والواجبات الاجتماعية، وفي إدارة الأزمات أيضاً.

حين علمت أمي بما دار بيني وبين فتاة الزعتر، غضبت: هذه ليست من ثوبك متطلبة متعبة.

أنا لم أحك لأحد؛ كيف علمت أمي؟! هي من تحدثت بذلك، وما كنت سوى واحد من عديدين كانت كلمات الأغنية تلك الشرك الذي تصطاد به الضحايا. أحدهم من لا ينطبق عليه وصف الضحية، كان ينتظر مثل هذه الفرصة، فغدت هي الضحية. وكان لفضيحتها دوي أودى بها إلى بيروت، لتضيع سمعتها وتنضب حياتها في أتون الحرب الأهلية.

لم ينتظرها أحد، ولم تعد مع من عادوا وعدن، مع ضيوف أشقاء، كان عماد يحدثني عن ذلك، وكنت أنتظر خبراً عنها، فضولاً ليس إلا! كنت أقول في نفسي ذلك، وأنا أدندن بالكلمات تلك، محاولاً تلحينها. لكن إحساساً متناقضاً كان ينتابني، يناوشه التناقض بين الحال المدينية الغاصة بالانشغالات والحال القروية المفتوحة.. الدار المغلفة بسور عال حتى لو تزين بالياسمين، المفتوحة إلى الداخل في غرف معزولة، والسفح المنفتح في اتجاهات عديدة تسوره في الأعلى حافة صخرية عالية مع مغاور

يمكن أن يلجأ إليها الرعاة والصيادون وقاطفو الزعتر، هرباً من مطر أو حر، أو ارتهاناً لعاطفة أو نزوة كانت إحداها سبباً في خروج الفتاة المتفتحة تلك بلا عودة..

ألهذا تعثر اللحن، أم أن تعليقات زوجتي ونفورها من الكلمات القروية ومشاكستها المتزامنة كانت كفيلة بعدم إكمال المحاولة والعزوف عنها؟!

تعثر اللحن واضطربت الذكرى، تحار المشاعر حيال ذلك. لم أكن نادماً، ولا راضياً. ولم أنشغل كثيراً بمثل هذه الحالات. فتيات أخرى تقاطعن مع دروب حياتي سوى حسنا وفتاة الزعتر وأم تحسين، في قريتنا والقرى الأخرى، في البلدة التي عملت في مدرستها، ، في الحي الذي سكنت فيه، والدائرة التي أمضيت فيها عمراً، لم ينلن الاهتمام المألوف. كنت مشغولاً دائماً، وما أبتغيه جلّ أن يسمى!

فهل حصلت على ما أبتغي؟! أم أنني صرفت العمر في الطريق إليه، وحانت لحظة الترجل؟! أم ترجلت قبل ذلك بزمان، أو أجبرت عليه!!

لم يرتح والدي لزواجي من ابنة المدينة: الله يوفقه، موالـه من رأسه دائماً، لم تكن مثل هذه الزيجات موفقة في الماضي، لعله ينجح!

ولم تغضب أمي: ليس هيناً على بنت الضيعة أن تعيش في المدينة معه، أعرف حسن، مشغول دائماً، ستعيش غريبة!

أخوتي كانوا أكثر المنزعجين، قاطعوني، ووصلتهم قبل أن أنشغل أكثر بالأسرة، ونضال والوظيفة والتنظيم، فتباعدت الأسباب. لم ينقطع حنيني إلى السفوح التي خبرتها راعياً ودارساً مجنوناً وجامعاً الزعتر البري والجوي! كنت أخطط في كل إجازة أن أزورها، وأن أعرج إلى ذلك السفح. لكن كل المواعيد لم تثمر، ويخطر لي الآن أن أهرع إليه، لقليل من الوقت، ما تبقى من الوقت، فهل أستطيع؟! هل أستطيع أن أصل إلى السفوح الأخرى، والذرا العديدة، أتملى ما تبقى من صنوبرها وسنديانها وأشجارها الأخرى، أدرج على دروبها التي توسع الكثير منها، وأتابع مواقع الرعي والدراسة والتأمل، هل ما تزال موجودة، وهل يمكنني تمييزها؟! ليتني أمسح بناظري ما يتسنى لي من مشاهد ومناظر ولوحات طبيعية أو مصطنعة.. وأعود قبل أن يوأد الجسد؛ هذا جسدي لا يصح أن أتركه في آخر لحظاته، ليس من الوفاء ذلك، لن أدعه يغيب عن ناظري، سأحرسه، وأحميه، وأصونه، وأودعه، وأرافقه.. لو أستطيع!

*

الغصن يهتز بقوة، هل ينكسر؟! حدث ذات مرة في جنازة أبي أسعد، في الوقت الذي كان فيه الشيخ محمود يعلن بصوت عال: اللهم إنا لا نعلم عنه إلاّ خيراً.. سمع صوت تكسر، وانهار فرع كبير من الشجرة المعمرة التي تكاد تغطي نصف المقبرة. لكنها لم تصل إلى الشيخ الذي كان أبعد عن متناولها. أصابت بعض الرؤوس والأكتاف وحصل هرج ومرج، وأكمل الشيخ مختصراً الكثير مما تبقى..!

قال تيسير:

– كيف يقسم ذلك الشيخ على أنه لا يعلم عن المسجى أمامه إلا الخير، في الوقت الذي كان صاحب "الملهى"، كما سماه بنفسه، والجميع يعرفون أنه لم يترك منكراً يعتب عليه؟!

رد شعبان:

– هل الأمر متوقف عليه؟! ألا تقال لكل من يدفن هنا.. وفي أماكن عديدة أخرى؟! وهل استثنيتْ من أي من خطب الجنازات التي سبقت أو تلت؟!

– من جهتي، لو كنت في المكان ذاته لما أقسمت إلا بما أعرف.

– وهل تقوم مقام ربه ؟! الله هو من يحاسبه، وهو من يعرف عنه كل شيء..

– إذن لنختصر هذه الجملة، ونقول: اللهم أنت أعلم منا بعمله..!

– هل ستغير قوانين العبادة!

– لا.. ليس الأمر كذلك، وليست هذه من القوانين، هي أقوال يتفق عليها، يتم تجاوزها أحياناً.. والزيادة عليها بالأقوال والأمثال كتعبير عن مقدرة المصلي، وقيمة المصلّى عليه.. ولا سيما إذا ما كان الحضور من مناطق مختلفة بعيدة وقريبة..

"حين روى لي عماد الحادثة، ضحكت، وقلت هذا مؤشر جيد كي يتم التخلص مما لا فائدة منه، ولا ضرورة له.. فهل سيقول الشيخ هذه العبارة أو سيتجاوزها، ألا أستحقها؟! إن عبر عنها ماذا سيقول الناس؟! وإذا ما قالها هل سينكسر هذا الغصن الخائر.. ويلقيني فوق المصلين؟! ما ذنبهم؟! يجب أن يقع فوق رأس الشيخ الذي صار يبتعد عن الشجرة وأغصانها، وكذلك المشيعون..! وحتى لو وقعت على أحدهم، لو كان في متناول سقوطي.. ما الذي سيحدث؟!

ليس لي وزن .. ولا إمكانية لأن أطلب منه أن يقول كل شيء.. على مسؤوليتي! لم أقم إلاّ بما كنت مقتنعاً به. ولكن هل يعني الاقتناع صواب الرؤية، وصلاح العمل؟! أليست جهنم ملأى بأصحاب النوايا الحسنة؟! هل يمكن لمن يتحمل مسؤولية، أية مسؤولية، أن ينجو من الخطأ، أليس الهوى جلاباً للضرر؟! هل كنت صاحب هوى..؟! حسب ما أعتقد، لم أكن كذلك، ولم أكن إلا إلى جانب من يستحق.. والهوى في هذه الحالة منسجم مع المبدأ، ومنسجم مع الأفكار التي أعتنق، ومؤيد بالقرارات التي تنفذ. لم أسع إلا إلى فعل الخير. لم أقم إلا بما حسبت أنه

كذلك.. لكن هل كان كذلك حقاً؟! هل أؤمن؟! لماذا كان لي ولد معاق، وولدان عاقان؟! ولماذا انفض عني الناس.. طويلاً بعد أن صرت بلا مسؤولية؟!

ليس هذا وقت مثل هذا الكلام، أعرف ذلك، ولست كافراً أو جاحداً، كما أظن، ولا سيما في حالي هذه. وليس الخالق في حاجة إلى من يقول له، أو يشرح. هو العارف القادر الرحيم الكريم!. وأنا الآن حقاً فقير إلى رحمته؛ أرجو أن لا ينساها المؤبن!

سأترك هذا الغصن إلى الجذع، بل إلى صخرة أبعد، ولأترك الشيخ يقول ما يشاء، حتى دون أن أستمع إليه!!

آه، ألم أنس شيئاً، ألم ينسوا أمراً هاماً؟!

أين أنت يا نضال.. أراك على كرسيك في أول الخاشعين، كنت أوصيتك، هل نسيت..؟!

أطرقتَ:

- وماذا سيقول الناس؟! إن رأوه معي!

قلت لك:

- المهم أن يحضر دفني..

قلتَ:

- أين سأضعه، أين سأخبئه..؟!

- إذا ما كنت ترى أن الأمر عسير إلى هذه الدرجة، فدعك منه!!

لكنني أعلم أنك لن تخذلني.. هل ورطتك، هل ينقصك مثل هذا العناء؟! كان علي أن أرحمك، كما تقول أمك، وكما يقول أخوك، وأختك: ارحمنا!! لا ترحمنا ولا تترك الرحمة تنزل علينا!

ألم أفعلْ؟! قبلت بخطبة ثورة إلى ذلك النقيب ذي المستقبل البادي من حركته الدائبة عبر الحدود، من دون أن يفتش، أو يوقف! وتركت ثائر يشارك واحداً من تجار السيارات الذي قبله لأنه يعتقد بأمانته، لمعرفته بنسبه؛ قال له ذلك أبو أحمد رفيقنا القديم! وماذا سيقولون الآن؟! ها قد رحمتهم، وأرحتهم، وارتحت.. لكنها تبكي، بتول أعرفها، وأختها تشاركها، وأمهما أيضاً.. ثائر واجم، ونضال شارد..! هل يفكر في تقصيره في تنفيذ الوصية.. اعذرني يا ولدي، لم أقصد إحراجك، لكنها رغبة لم أستطع مقاومتها!

لا بأس عليك، لا أواخذك على ذلك.. ما يزال هناك في البيت فوق الخزانة قرب سريري.. نسيتَه في غمرة الانشغال، أنت معذور. أم تركته في السيارة..؟! لا بأس، لا بأس!

ولكنه هنا.. فوق هذه الصخرة.. يا لوفائك يا نضال! كنت سأقول إنهم لم يوافقوا على ذلك، وأنك احترمت رغباتهم وخوفهم من كلام الناس. كنت سأعذرك وأعذرهم.. لكنك لم تنسَ..

آه.. منذ زمن بعيد لم أجرؤ على ملامسته، لا خوفاً منهم، وقد كانوا ينزعجون من ذلك، ولكن خوفاً من أحاسيسي التي ستفيض، وتقذفني في بحر لا قرار له.. ستعيدني إلى طفولتي، ستضخ الحيوية في شراييني التي تكلست، ومفاصلي التي تيبست.. كنت أخاف من ذاك التجاذب والمفارقة بين موات الواقع الذي أعيش، وضجيج الحياة الذي كان. لم أكن لأقاومه، ولم أكن لأتحمله؛ فتركته فوق الخزانة يتغبّر، وتتفلّت أوتاره وتضيع ريشته، وتتقلقل أخشابه..

ذات مرة وضعته في حضني، حنوت عليه، ضممته بنشوة. لم أعزف، نقرت على أوتاره، كانت رغم نشاز الصوت ذات وقع عذب، دخل مفاوز الروح.. فأبعدته. حدث ذلك مرات.. لكن في هذه المرة كان السبب ما رأيت من عزف على آلة من دون جوف، من دون حضن، آلة وترية.. قالوا إنها العود. لكن شكلها مختلف. حزنت، وقلقت، وطلبت من بتول أن تناولني إياه. نظرتْ إلي بحنوّ. لم تمانع، رغم أنها كانت تعرف ماذا سيجلب علي ذلك من أوقات أعتكف فيها وأزهد، وأبتعد. قلّبته في حضني، وضعت أوتاره على فخذيّ، تلمست انحناءاته، التي كانت كانحناءات أنثوية شهية، هل انتشيت؟! تألمت للحواف التي صارت ناتئة، واللون الذي بدأ يتحور..

لا.. ليس على هذا النحو. أعرف أن آلات كثيرة تجاوزته، وأعرف أن أصابع فظة تناولته.. ورافقته أصوات منكرة. لكنه لم يتغير.. ولم تختلف إيقاعاته الحانية، العذبة، الشفيفة، الشرقية..!

لكن أن يشوّه، ويغدو لوحة وأوتاراً وأسلاكاً تمتد بعيداً؟! هذا كثير عليه، عليّ.. هذا ما لا أتحمل النظر إليه، أو أتخيله!

وماذا سيكون مصير الأعواد الحبلى؟! هل ستُسقِط بقيصرية، كما صاروا يسخرون؟! وماذا سيحل بعودي؟! شغلني ذلك طويلاً. لن أخاف عليه إن بقي لديك يا نضال. ولكن من يضمن ذلك؟! ربما قاسمك أخوك عليه، فتُظلم بسببه.

أشكرك يا نضال لأنك لم تنس وصيتي، ولن تزعل مني، لم أحس بذلك يوم أوصيتك، وستكملها بالتأكيد. عماد كان يتمنى أن يعزف. لم تسعفه الظروف. ولن تسعفني الحال لأهنئه بوليده الأول، وأقدم إليه هديتي. قد يتعلم العزف، وقد يكون موهوباً؛ من يدري؟!"

يقترب من الصخرة، يتحرك العود، قليلون من انتبهوا، وتعلقت أبصارهم بما يجري، فالجميع مسمرون منصتون إلى الشيخ الواعظ المهدد.

"الآن.. سأحضنه.. أقلبه في حضني، أدوزنه، كما لم أفعل منذ سنين. الشيخ لما ينته بعد، الأيدي ترتفع إلى الآذان وتنخفض. لن أضرب على أوتاره حتى ينتهي. ماذا سأعزف؟! لن أحدد. لن أعزف لحن الشهيد رغم أنني أستحق!! ولا لحن الوداع!! لا أستطيع.. سأترك لأصابعي أن تتحرك بحرية ولروحي أن تختار.. إذا ما كان لها بَعْدُ ذلك."

*

ما إن انتهى الشيخ من صلاة الجنازة، حتى هجمت الأيدي على التابوت، تحمله وتنقله إلى الحفرة التي تهيأت.. وقد وقف في وسطها شاب ينتظر استقبال الجثة..

حانت من نضال نظرة إلى الصخرة. لم يجد العود. أحس بغصة. لا يستطيع الآن أن يبحث عنه، ربما أخفاه حريص على سمعة المرحوم، أو سحبه ولد لا يعرف معنى وجوده، أو أصرت أمه أو أخوه على إعادته إلى السيارة.. نظر إلى أخيه. لم يكن في وارد سؤاله، كان يتلقى القبلات، قرب الحفرة.. كما بدأ هو يفعل، بعد أن اتجه إليه الكثيرون دون انتظار أن يصطفوا بعد إنجاز الدفن، لتلقي العزاء. سمع عزفاً.. يعرفه، إيقاعات لها في روعه حضور، ألحان أقرب من لهفة، وأعذب من نشوة. نظر صوب القبر. جحظت عيناه.. كان العود الذي يعرفه، بالوضعية التي يعرفها.. وكانت الريشة المميزة تنتقل فوق الأوتار المشدودة بسلاسة.. العود وحده فوق الرؤوس. نظر حوله مشدوهاً. هل يرى الآخرون مثل ما يرى؟! لا يبدو عليهم ذلك، رغم أنهم ينظرون إلى الجهة ذاتها.. الألحان تتنوع، والناس في حركات غير عادية.. ينظرون إلى بعضهم بعضاً، بدهشة وحيرة. ويحركون أصابعهم في آذانهم، ويهزون رؤوسهم.. يطوف في أذهان الكثيرين منهم ما كان يتردد من حكايا عن عزف "الخليلة" حين يدفن شخص ذو مقام سام، فيبالغون في التكبير بأصوات متهدجة. ليس الآن وقت التفكير في صدقية ذلك؛ فهاهم يسمعون اللحن واضحاً ناصعاً..

وفي الوقت الذي تمضي فيه طقوس الدفن والعزاء إلى منتهاها، كانت أصداء اللحن المميز تتعالى في الفضاء، وتطوّف في الأمداء، تتجاوب معها الكائنات بترددات وإيقاعات متفاوتة:

"أحب عيشة الحرية..".

***

تمت

غسان كامل ونوس